عالم الأخطبوط

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: عالم الأخطبوط
تـأليـــــــف: هشام سلامة سلمان
القـطــــــع: 21X14
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنـة النشـر: 2025
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 2025 / 32307
الترقيم الدولي (ISBN): 2 - 685 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-685-2
9 789778 446852

عالم الأخطبوط

رواية

هشام سلامة سلمان

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

عالم الأخطبوط زى المتاهة

الكل تدهته التداهة

ولسة الناس بتسأل أسئلة معناها

ياترى إحنا جوه اللعبة ولا برها

استهلال

هل سمعتَ همساً عن حروب الجيل الرابع؟
ربما تتوهم أنها صواريخ تخترق طبقات السماء، أو ربما طائرات بلا طيار تحوم في الأفق كالنسور الجارحة... يا لسذاجتك!
هل تساءلتَ يوماً عن هوية الطرف الثالث في هذه اللعبة الدامية؟
ستجيب بثقة واهية: أعرفه... إنه... لا، ربما هو... ثم يخنقك التردد، فتدرك أنك مجرد دمية تتحرك بخيوط خفية لا تراها.
هل لامستْ روحَك يوماً ظلال نظرية المؤامرة؟
ستضحك ساخراً: مؤامرة؟ الحياة أبسط من هذه الأوهام المعقدة!
أيها الغافل، إن بساطتك هي أعظم انتصاراتهم.
هل تخيلتَ نفسك - ولو في كابوس عابر - سلاحاً مشهراً في وجه وطنك؟
سترتعد غضباً: أنا؟! أنا وطني حتى النخاع!
لكن يا صديقي، أشد العملاء فتكاً هو من لا يدرك أنه عميل.
الحقيقة أعقد مما تتصور، وأبسط مما تهرب منه.
إنها حرب بلا جنود يرتدون الملابس العسكرية، بلا دبابات تقعقع في الشوارع، بلا طائرات تشق صدر السماء.
أنت وحدك - نعم أنت - قنبلة موقوتة في هذه الحرب الصامتة.
في فجر الألفية الثالثة، تسلل إلى المجتمعات العربية عَالم جديد... عَالم لا يُرى بالعين المجردة، لكنه يلتهم كل شيء. عالمٌ غامض كالليل، مرعب كالكابوس، مختلف عن كل ما عرفته البشرية من حروب.
في قلب هذا العالم يتربع أخطبوط هائل، أذرعه تتمدد في كل اتجاه، تعتصر الدول الضعيفة بصمت مميت. يشن هذا الوحش حرباً من طراز فريد: لا دماء تُراق في الشوارع، لا انفجارات تهز الأرض، لكن الدمار أعمق وأبقى.

بينما انشغلت الدول الفريسة بتكديس الأسلحة، الطائرات الحربية، الغواصات النووية، المدرعات الفولاذية، كان العدو الحقيقي يتسلل من باب آخر، باب لم يحرسه أحد.

إنها حرب النفوس قبل الأجساد.

حرب الأفكار قبل الأسلحة.

حرب الوعي قبل الأرض.

حرب تستهدف توجيه الرأي العام، تشويه الثقافة، تفتيت الهوية، نشر اليأس كالوباء.

وأنت - سواء أدركت أم لم تدرك، قبلت أم رفضت - طرف محوري في هذه المعركة الكونية.

استراتيجيتهم واضحة كالشمس لمن أراد أن يرى:

تحويل الدول الفريسة إلى كيانات هشة منهكة، مجتمعات مشلولة غارقة في اليأس، شعوب ميتة وهي تمشي على قدميها.

وحين يستيقظ شعب من شعوب هذه الدول - إن استيقظ - يكتشف أن السيف قد سبق العزل.

يفتح عينيه ليجد نفسه جثة تتنفس، ميتاً إكلينيكياً بشهادة التاريخ.

وتكون الحرب انتهت قبل أن يدرك أنها بدأت.

...هذه ليست مجرد رواية خيالية... هذه حقيقة نعيشها كل يوم، ونحن نظن أنفسنا أحراراً!!!

(١)
(بداية النار تأتى من مستصغر الشرر)

عام ٢٠٠٢

شات علاقات سرية جدا...

كان دوما ما يجلس أمام اللاب توب الخاص به، يراسل أصدقاءه في كندا والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوربية، ويدخل غرف الشات الأجنبية، هذا العالم المفتوح دون قيود، ولكنه في ذلك اليوم قرر أن يبحث عن شات عربي؛ بعد أن شعر أنه في احتياج لشخصاً ما، حتى أطمئن لأسم الشات (شات علاقات سرية جدا) أكمل بياناته وجعل له أسم مستعار (**Batman Gay**) والتي تعنى من وجهة نظره أنه مختلف فكريا وسلوكيا، وأنه متحرر من أي يقيود يفرضها المجتمع.

دلف إلى غرفة الدردشة العامة كمن يدخل غابة مجهولة في جوف الليل، غابة افتراضية تعج بالأرواح الضائعة والباحثين عن الخلاص.

عشرات... بل مئات من الشباب والفتيات والنساء والرجال، منتشرون في هذا الفضاء الرقمي كالنجوم المبعثرة في سماء بلا حدود. الكلٌ يختبئ خلف قناع اسم مستعار، الكلٌ يحمل حكايته المكتومة، وأسراره المدفونة، وأغراضه الخفية في التعرف على الآخر - ذكراً كان أم أنثى.

هنا، حيث الهويات تذوب والحقيقة تتلاشى.

هنا، حيث يصبح كل شيء ممكناً، وكل شيء مشكوك فيه.

تصفح الحوارات المتدفقة في الغرفة الرئيسية، كلمات تتراقص على الشاشة كالفراشات حول ضوء خافت. وبعد أن رأى بعض الكلمات المبتذلة كما توقع، اطمأن قلبه نسبياً للغة الحوار.

تنفس الصعداء، ثم حرك أصابعه على لوحة المفاتيح ليكتب...

Batman Gay: هاى أنا**Gay** وابحث عن شخص سالب أو موجب للتعارف وعمل علاقة خاصة في سرية تامة.

كتبها وكأنها شيء عادى جدا له، لا حياء ولا خجل أو أي شيء من هذا القبيل... لحظة صمت قصيرة كأنها دهر، ثم انفجرت الشاشة أمامه كخلية نحل مسعورة!

انهمر عليه وابل من السخرية كالحجارة المتساقطة على رأس غريب دخل قرية معادية. تعليقات ساخرة، ضحكات رقمية مجلجلة، استهزاء يقطر من كل حرف.
شاذ؟
مقزز!
قوم لوط!
من وجهة نظره، كانت تلك التعليقات سخيفة بل تافهة، صادرة عن عقول قزمة لا تستوعب عمق ما طرحه. شعر بالإحباط يتسلل إلى صدره كالبرد في ليلة شتوية قارسة.
لكن وسط هذا الضجيج، وسط هذه الفوضى الرقمية، لمع بصيص أمل خافت.
البعض، نعم البعض، تجاوب معه. رسائل خاصة بدأت تتوافد على غرفته الخاصة في الشات، كأنها طوق نجاة يُلقى إلى غريق في بحر هائج. أشخاص اختاروا الابتعاد عن صخب الجموع، وفضلوا الحوار الهادئ بعيداً عن أعين الساخرين.
هنا، في الظل، حيث تُولد الحقائق بعيداً عن الأضواء الكاذبة... ولكنه كان يشعر من أسلوب الكتابة المعروض أمامه أنه لم يجد ضالته، حتى تواصل معه على الخاص شخص مجهول (**The Hulk Sea**) الذي كتب له رسالة ...
The Hulk Sea: هاى ممكن نتعرف
Batman Gay: هاى، ممكن، مين؟؟؟؟
The Hulk Sea: أنا جون
Batman Gay: جون ده اسمك الحقيقي؟؟؟؟؟؟؟
The Hulk Sea: لا بس اعتبره كده
Batman Gay: وأنا مقدر الصراحة، أنا بقى أسمى باهى وعندي ٢٧سنة، مدير تسويق لتوكيل شركة عالمية في الشرق الأوسط مقرها مصر، وأنت أيه ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
The Hulk Sea: أنا ...لا أنا أفضل تكلمني أكتر عن نفسك الأول وبعدين أنا من نفسي أول ما أرتاح لك هحكى لك كل حاجة عنى.
Batman Gay: أنت مالك في حاجة؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
The Hulk Sea: لا بس أحب اسمع وبعد كده احكم، إذا كان ممكن يبقى فيه بنا علاقة ولا لأ...وبعدين إيه كمية علامات الاستفهام دي، أعتبرها أداة ضغط؟؟؟؟؟؟؟؟

Batman Gay: ها ها ها، أداة ضغط، أنا بس بحاول اقرب لك، ها عايز تعرف إيه عنى؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

The Hulk Sea: تانى علامات استفهام، ما علينا ،يعنى كلمني عن حياتك، وبعدين أنا احكي لك عن حياتي، يعنى نقرب من بعد اكتر ، قولي حكايتك إيه؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

Batman Gay: إيه كمية علامات الاستفهام دي؟

The Hulk Sea: مستفزة صح

Batman Gay: لا بالعكس دي جميلة

The Hulk Sea،: جميلة أنت إلى جميل، ها حكايتك إيه يا جميل؟

Batman Gay: أنا ياسيدي، مصري طبعا، والدي توفى وأنا صغير، وبعدين والدتي خليتنى أسافر كندا أكمل دراسة، هناك العالم مفتوح، كل حاجة مباحة ومتاحة، وأظن أنت فأهمني كل حاجة، خلصت دراسة واشتغلت في شركة عالمية هناك، والشركة من فترة قررت تفتح سوق ليها في الشرق الأوسط واختارتني أكون ممثل الشركة في مصر، ورجعت مصر مدير لتوكيل الشركة في مصر ، وبس ...أظن كده كويس ها وأنت؟

The Hulk Sea: أنا عايز أقولك حاجة

Batman Gay: قول، أنا حاسس انك متوتر ، فيه حاجة؟

The Hulk Sea،: يضيقك لو قولتلك أن أنا بنت مش ولد؟

ما أن قراء ذلك أغلق الشات، شعر بالضيق بعدت أن باءت محاولته في العثور على مبتغاة بالفشل ولكن (**The Hulk Sea**) أكمل كاتباً

The Hulk Sea: الو...الووو...أنت قفلت ؟؟؟؟؟؟ ...براحتك!!!!!!!!

صمتت الشاشة، وبقيت الرسالة الأخيرة تتوهج وحدها...

مساء اليوم التالي...

دخل باهى الشات باسمه المستعار (**Batman Gay**) باحثا عمن يحتويه، وكتب نفس الجملة أنا **Gay** وأبحث عن شخص سالب أو موجب لعمل علاقة خاصةفي سرية تامة.

لاحظ (**The Hulk Sea**) وجود باهى فكتب له على الخاص مسرعا

The Hulk Sea: هاى باهى عامل إيه؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

: أنت قفلت فجأة ليه؟ هو فيه حاجه حصلت؟ ولا زعلت من كلامي؟؟؟؟؟؟؟

Batman Gay: أنتِ عايزه إيه؟ قولتلك أن أنا **Gay** أظن المعنى واضح.

The Hulk Sea: أنت لو صبرت شويةk وسمعتني للأخر كنت عرفت إن أنا ياسيدي **Lesbian**

Batman Gay: **Lesbian** كمان! طيب وعايزه أيه منى أنا أيه؟ ...البنات دى حاجة غريبة بجد!

The Hulk Sea: أيه أنت داخل فيا شمال ليه ...ومع ذلك أنامقدرة سبب انفعالك، الموضوع ببساطةأنا خدني الفضول أعرف الوجه الأخر لينا، وكمان اعرف يعنى إيه سالب، ويعنى إيه موجب، هو مش الموجب ولد والسالب بنت، ولا العكس، ولا إيه ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

Batman Gay: ها ها ها داخل شمال ...الوجه الأخر ليكم! وسالب ولد وموجب بنت! لا يا حضرت الفضولية العلاقة كلها ما بين اتنين رجالة، الموجب يلعب دور العريس والسالب بيكون هو العروسة

The Hulk Sea: اه فهمت ...طب وأنت أيه؟؟؟؟

Batman Gay: يعنى أيه؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

The Hulk Sea: يعنى تحب ندردش مع بعض ولا لأ؟؟...أصل أنا زهقت من كمية الكذب على الشات، كل ما أكلم بنت تطلع ولد، ولوطلعت بنت بجد بتكون عايزه تكلم ولد، وده بيضايقنى جدا، حاسة أنى من كوكب تانى لحد ما قابلتك على الشات

Batman Gay: أنا كمان فعلا بتضايق من الناس السخيفة دى يا عم جون، بحس أن الناس بتستخف بينا وتشتم شتيمة قذرة، مع أن الموضوع ده في كندا عادى خالص

The Hulk Sea: هاهاها جون! أنت لسه فاكر، شكلك قلبك اسود، أناأسمى شاهندا واسم الدلع شاهي

Batman Gay: شاهي! ...ماشى

The Hulk Sea: طيب وأنت بقيت كده ازاى؟ ...ولو سؤالي هيضيقك متجاوبش.
Batman Gay: مش فاهمك! وده يشغلك في إيه؟ طيب وانتى بقيتي كده ازاى؟؟؟
The Hulk Sea: أنا واخدني الفضول قوى اعرف، وبالنسبة ليا أنا ده حوار يطول شرحه بكرة نتكلم فيه بالتفصيل...اوك
Batman Gay: اوك، سلام
The Hulk Sea: سلام

مساء اليوم التالي...

لم يطمئن باهى لأي شخص على الخاص، قرأ الرسائل واحدة تلو الأخرى، كلها تحمل نفس النمط: قصص مصقولة، حكايات ناعمة، وعود براقة. لكن شيئاً ما في داخله أو ربما مجرد حذر فطري، مرر عينيه على قائمة الأسماء المستعارة، وما أن وجد شاهي أسرع وكتب لها على الخاص...

Batman Gay: هاى شاهي ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

The Hulk Sea: هاى باهى عامل إيه ؟

: وإيه علامة الاستفهام دى

Batman Gay: لاقيتكِ فاتحة ومكلمتنيش مع أن كان بنا اتفاق

The Hulk Sea: فعلا،بس كنت عايزه البداية تكون منك، يعنى أشوفك متحمس للكلام معايا ولا لأ

Batman Gay: بينى وبينك مكنتش متحمس للكلام معاكى، بس لقيت الشات ممل والكل بيستخف دمه، لقيتك فاتحة قولت ندردش والليل يعدى وكده يعنى.

The Hulk Sea: بقى كده ماشى ...اعتبر ده بداية صداقة

Batman Gay: ممكن ، ولو أن دى أخر حاجة اتخيلها تحصل في يوم من الأيام، قوليلى بقى انتى مين في الدنيا؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

The Hulk Sea: أنا شاهي...شاهي وباهى! ده كده هنعمل فوازير رمضان...هاهاها عندي أربعة وعشرين سنة، مصممة برامج كمبيوتر، مصرية، بابا مصري وماما إيطالية، عشت في مصر لحد عمر ١٣ سنة، وبعدين سافرت ايطاليا بعد ما ماما انفصلت عن بابا، بسبب قسوته وعنفه في التعامل معاها، علشان ماما كانت جميلة قوى وبابا كان بيغيرعليها قوى، المهم بعد ما سافرت ايطاليا بقت ماما كل حاجة في حياتي وكنت على طول بنام في حضنها، يعنى إحساس بالأمان، ماما كانت بتشرب خمره، كانت بتلاقي في الشرب نسيان لبابا، وفترة القهر والذل إلى عاشتها معاه في مصر، لحد ما بقت مدمنة كحوليات، وأنا كنت مشفقة على الحالة إلى هي فيها، في يوم فوجئت إنها بتطلب منى أضربها، زى ما كان بابا بيضربها، وتحت ضغط الحالة إلى كانت فيها ضربتها، وبعد ما ضربتها جت ورميت نفسها في حضني، وفضلت تبكى، وتقولى أنا بحبك قوى، بعدها بدء الموضوع يزيد واحدة واحدة، ولقيت نفسي مبسوطة إنى بلعب دور بابا في حياتها، واكتشفت إن إحساسي بالسادية فيه نشوة جميلة، والموضوع تطور لحد ما بقى بنا وهى في حضني قبلات، بعد كده العلاقة تطورت لعلاقة شبه كاملة، واستمرت العلاقة من غير ما حد من إلى حولينا يحس

بحاجة، وعلمتني تعاطي المخدرات، لحد مافي يوم ماما تناولت جرعة مخدرات زيادة وماتت، حسيت من بعدها بالوحدة في إيطاليا، وإني مليش مكان في ايطاليا من غيرها، رجعت مصر لقيت بابا اتجوز، فَضلت إنى أعيش لوحدى، وبابا تحت ضغط زوجته وافق.

في مصر حسيت بأني غريبة أكتر من إيطاليا، وسلوكي وطريقة لبسى غريب للناس، وده كان باين من البلاهة إلى على الوجوه، سواق التاكسي، الديلفرى، كأن أول مرة يشوفوا بنت، يمكن ملابسي متحررة بالنسبة ليهم، طب ما الرقاصة بتلبس بدله رقص متحررة ما إلى عاوز يشوف جسم واحدة يتفرج على رقاصة! ناس غريبة، والفترة دى بحاول أتأقلم على الوضع هنا، وخصوصا بعد ما بابا مات، وفيه مشاكل كبيرة مع زوجته على الميراث، هخلصها وأرجع ايطاليا أو فرنسا أويمكن أميركا لسه مقررتش وبس...

Batman Gay: أفهم من كلامك أنك أنتِ علاقتك بالرجالة صفر، مفيش خالص؟؟؟؟؟؟؟؟

The Hulk Sea: سؤال جامد...لكن عجبني...بص، بالنسبة للرجالة يعنى حسب الهوى، البيزنس والكيف بيحكموا، الدنيا والمخدرات علمونى إنى اعمل أى حاجة علشان أوصل لهدفي ،ممكن تقول كده مثلاً أنا مش بحب الأرانب، لكن لو موجودة على السفرة ممكن أكل منها عادى، بس ولا أحس ليها بأى طعم

Batman Gay: اوك، فهمت

The Hulk Sea: ها وأنت بقى سالب ولا موجب؟؟؟؟؟

Batman Gay: أنا الاثنين، يعنى حسب الهوى زى ما بتقولي،هاهاها

: واضح إنك **business woman** ليها مستقبل

The Hulk Sea،: وأنت واضح انك ذكى جدا، ها مش هتقولى حكايتك إيه؟؟؟

Batman Gay: أنا باهى، بابا مات وأنا صغير، ماما كانت بتشتغل في منصب حكومي كبير، على طول مشغولة في شغلها،ليا أختين بس، والاتنين أكبر منى، على طول كانوا بيعملونى على إني بنت زيهم، بنلعب بنفس اللعب، البس فستان من فساتينهم، يحطولى أحمر شفايف، لحد ما أتعودت على كده، و بقيت أقلدهم في كل حاجه، لحد ما بقت ميولي انثوية بالذات لما كنت بسمع حد منهم بيتكلم مع شاب في التليفون، أو بيتكلموا عن وصف شاب زميل لحد منهم، وغراميتهم، كنت أنا كمان بتمني يبقى ليا حبيب زيهم مش حبيبة!!! بعد فترة ماما حست بميولي دى، وقررت تسفرني كندا أكمل تعليمي هناك، وفى كندا أنت حسب ميولك، وكل حاجة مباحة ،

دخلت هناك في أكتر من علاقة مع أولاد أو بنات أصدقائي في الدراسة، لكن لقيت نفسي بميل للأولاد اكتر، يعنى بحس معاهم بمتعة وسعادة اكتر، مع أن العلاقة لا تدوم كثيراً، بعد كده خلصت دراسة أدارة أعمال، واشتغلت هناك في شركة عالمية بمرتب كبير، و أحوالي كانت مستقرة، لكن رجعت مصر تانى علشان أنا مدير فرع الشركة هنا، و دلوقت أنا في مصر في نفس مشكلتك، هنا الناس مش واضحة، مع أن هنا الناس ميولها الجنسية واضحة وضوح الشمس، أتفرجي على نظراتهم لو واحدة ملابسها مثيرة ركبت المترو أو أى مواصلة عامة، الكل عايز يفترسها، ويا سلام لو عينيها جت في عينيه، تحسى أنه ركع وسلم وداس على كل مبادئه بالجزمة، مع أنه هو نفس الشخص في بيته ده عيب وده حرام، أمثال والدك، الأغلبية العظمى هنا بينه وبين نفسه عارف أن سلوكه غير سوى لكن بيحلله لنفسه بس!

The Hulk Sea: فعلا، الرجالة هنا صوت عالي، ونظرات كلها رغبة وتحرش وكبت جنسي، وناس بتحب العنف موووووت زى بابا

Batman Gay: علشان كده انتى ميولك سادية

The Hulk Sea: مش بقولك ذكى...واختياري كان في محله

Batman Gay: اختيارك! ...مش فاهم يعنى إيه؟ .... ده واضح إنك أنتِ إللى داهية

The Hulk Sea: يعنى أناوأنت وجهين لعملة واحدة، أحنا الاثنين في الهوا سوا، بقولك إيه أنا عايزه أشوفك

Batman Gay: واو ...كمان نتقابل بالسرعة دى، خلاص نتقابل بكرة الساعة سابعة في كافيه **Gli Amanti** إللى في مول نيو ستار، حاجة كده أستايل ايطالى

The Hulk Sea: اوك، باى

Batman Gay: باااااااااااااااى

مول نيو ستار...

جلس باهي على المقعد، عيناه تجوبان المكان، تتفحصان الوجوه العابرة كأنها تقرأ كتاباً مفتوحاً بلغة غامضة.
انتظر شاهي.
لكن الانتظار في هذا العصر لم يعد مجرد فراغ زمني، بل أصبح مساحة للتأمل في الانحرافات.
راح يحدث نفسه بصوت صامت، أفكاره تتدفق كالسيل:
ترى... مَن من هؤلاء الرجال يخفي ميولاً شاذة؟ **Gay** ومَن منهم يعيش حياة مزدوجة، يظهر في النهار رجلاً سوياً، وينسلخ في الظلام إلى كائن آخر؟
نظر إلى الفتيات اللاتي يمررن أمامه:
ومَن من هؤلاء النساء تحمل في داخلها انحرافاً مماثلاً؟ مَن منهن تبحث عن أنثى مثلها، **Lesbain**؟
الكل يحمل في أعماقه رغبات مكبوتة.
الكل يصارع شهوات محرمة.
الكل غارق في مستنقع...
قاطعته شاهى قائلة:
-هاى باهى، مش باهى برضه
نظر لها باهى ووقف يصافحها قائلا وهو يبتسم
-هاى شاهى عامله ايه
-انا تمام وانت
-**Iam Fine**
جلست شاهي أمامه بحركة باردة، خالية من أي حماس أو ترقب.
لم تبتسم، لم تعتذر عن التأخير، لم تحاول حتى إخفاء لامبالاتها الصارخة.
ألقت بحقيبتها على المقعد المجاور، ثم نظرت إليه بعينين فاترتين وقالت:
- اتكلم عربى... تعرف أحلي حاجة فى البلد دى اللغة سهلة وبسيطة كده، الحاجة الوحيدة اللى فى البلد دى بتحسسك إنك حر، على الرغم من كل القيود والعادات والتقاليد الى خانقة الناس.
-عندك حق تشربى ايه
- انا هاخد اسبريسو كون بانا
-اوكى ....

قالها وأشار إلى الندال، جاء الندال مبتسما
-اى خدمة يافندم
- اه هات لنا اتنين اسبريسو كون بانا
-صولو ولا دوبيو
-لا دوبيو
-حاجه تانى يافندم
-لا شكرا
توجه الندال ثم نظر باهى الى شاهى وقال لها:
- يعنى انت ايه رأيك فى مصر
-مصر ام الدنيا، أحلي شمس وأحلى ميه، بس التقاليد هنا تخنق، فعلا الحلو ما بيكملش
- لاانت فهمتى سؤالى غلط، انا قصدى البيزنس فى مصر ظروفه معاكى ايه
-تقصد ايه بالبيزنس؟ لو البيزنس العادى، ده ما يأكلش عيش، لكن لوتقصد البيزنس جنس مخدرات فالبلد دى سوق جامد تشطيب سوبر لوكس على المفتاح
-مش بقولك انت داهية
- هاهاها ...من بعض ما عندكم يا عم ال **Gay**.....هاهاها
-وطى صوتك الناس
احضر الندال المشروبات ووضعها ثم قال
- أى خدمة تانى يا فندم
بابتسامة رقيقة قال له باهى
-لا شكرا
ابتسمت شاهى وهي تقول بعد أن ذهب الندال
-معلش أصل انا عاملة دماغ كده... حاجة بسيطة بس تشطيب سوبر لوكس
- اممم بقي كده، طب اشربى الاسبريسو ويالا بينا، معاكي عربية ولا لأ
- معايا بس هنروح فين
-خليكى ورايا بعربيتك وهتعرفى لما نوصل
-انا هبتدى اخاف منك، انت مش قولت إنك **Gay**!
-هاهاها تخافى ...هو فيه سادية بتخاف، ده انا الى حقي اخاف منك، هنطلع المقطم، هوريكى أحلي منظر فى الدنيا
-المقطم اوكى يالا بينا

توجه الاثنان في صمت ثقيل كالرصاص، صمت لم يقطعه سوى هدير المحرك وأصوات الشوارع المزدحمة.
وصلا إلى المقطم.
ذلك المكان المرتفع الذي يحبه الهاربون من ضجيج القاهرة، الباحثون عن عزلة مؤقتة، أو ربما عن وهم السيطرة.
أوقف باهي السيارة عند نقطة مطلة، حيث تنبسط القاهرة أسفل أقدامهما كسجادة ممزقة من الخرسانة والأسفلت. منازل صغيرة. مبانٍ متراصة. حياة تعج بالملايين، لكنها تبدو من هنا... صامتة، خاضعة، تحت الأقدام.
هنا، فوق هذا العلو، كانا في خفاء عن أعين المتطفلين. لا أحد يراهما، لا أحد يحكم عليهما، لا أحد يتدخل في عالمهما الصغير.
وقفا جنباً إلى جنب، ينظران إلى المشهد الممتد أمامهما.
نظرة تحمل ما في داخلهما من تطلعات.
نظرة تحمل طموحاً أكبر من واقعهما.
نظرة كأنهما يحكمان الكرة الأرضية من عرشهما الوهمي.
في تلك اللحظة، شعر باهي بأنه ولو مؤقتاً سيد هذا العالم الممتد تحت قدميه.
استدار نحو شاهي، وقال:
- ايه رأيك في المكان ده
لمعت عيناها للحظة - لمعة غريبة، مخيفة، رفعت ذقنها بكبرياء، وقالت:
-منظر تحفة، حرك جوايا غريزة السادية، بص لما ارفع رجلي كده، كل الناس بقت تحت رجلي
ابتسم ابتسامة إعجاب ممزوجة بانتصار خفي، نظرت له نظرة تحمل تواطؤاً صامتاً، وقال بلهجة تحمل موافقة ضمنية على فلسفتها المريضة
-وليه لأ، اللى زى وزيك أتخلقوا علشان يدوسوا على الناس دى، لأ ولسة.
ثم أخرج من منطقة خافية فى السيارة كيس صغير، وأفرغ ما به على كتاب من الواضح أنه يستخدمه لهذا الغرض فقط، رتّب الخطوط بدقة، ثم التفت إلى شاهي بابتسامة شيطانية قائلا:
-شدى السطر ده
لمعت عيناها من فرط الانبهار، بريق غريب مختلط بالجنون والنشوة.
غمرتها السعادة حتى قبل أن تستنشق المادة المخدرة، سعادة مريضة نابعة من مجرد الفكرة ذاتها.

انحنت نحو الكتاب وهي تتأهب للاستنشاق، وقالت بنبرة ممزوجة بالإعجاب والإثارة:
-واو مش بقولك انت محصلتش
تسارعت حبيبات المخدر إلى جهازها التنفسي كالسهام المسمومة، تتسلل عبر الأنف إلى الرئتين، ثم إلى الدم، لتصل أخيراً إلى منطقة الشعور في عقلها.
سيطرت المادة على كل شيء.
ابتسمت ابتسامة بلهاء، ابتسامة يعرفها باهي جيداً، ابتسامة المنتشي الغارق في عالمه الوهمي.
نظر إليها وهو يبتسم ابتسامة الراضي عن صنعته، ثم سألها:
-ايه رأيك بقي فى الدنيا
-الدنيا زى المرجيحة .....هاهاها. وانت ايه رأيك فيها؟
-انا بموت فى المرجيحة، هاهاهاها.
قال ذلك بعد أن استنشق هو الآخر سطره من المادة البيضاء.
دخلت المادة إلى عقله كالعاصفة، فانفجر ضاحكاً.
ظل يقهقهان من فرط الضحك، ضحك هستيري لا يتوقف، حتى اختنقت الضحكات في حلقهما وتحولت إلى سُعال عنيف.
سَعَل الاثنان معاً، كأنهما يتقيآن واقعهما القديم ويستقبلان عالمهما الجديد.
توقف السعال، وعاد الصمت المليء بالنشوة.
نظرت إليه شاهي بعينين زجاجيتين، وقالت:
-مين يصدق اننا نعرف بعض من يومين بس، لأ وايه **Gay**و**Lesbian**
انطفأ بريق الضحك من عينيه، وحلّ محله ظل ثقيل من الحسرة والأسى.
كأن فرط الضحك لمس شجن الحنين الدفين في أعماقه، فأيقظ ذكريات الماضي التي ظن أنه دفنها للأبد.
تغيرت نبرة صوته، وأصبحت محملة بالوجع والتأثر، وقال:
-تعرفى، أن انا كان ليا حبيب فى البلد دى اسمه لؤى، كان أقرب واحد ليا بعد ما رجعت مصر، فضلت علاقتنا مستمرة بشكل ممتاز لحد من حوالي كام شهر، أتقبض عليه وكان معاه كوكايين، دخل السجن واتحكم عليه بالسجن خمستاشر سنة.... ياه تأثرت هي الأخرى، ولكن تأثرها لم يكن بما يقوله، بل بشيء آخر أعمق وأخطر.
كان تضامنه معها في الشعور بالبغض على الدول والأنظمة والناس، يجعله متحالفاً معها في عقيدتها المريضة، شريكاً في ساديتها الدفينة.

وجدت فيه روحاً مماثلة، وبركانا خامدا على وشك الانفجار، يشبه بركانها.
- يا حرام تعرف فعلا بلد عجيبة، وناسها عجيبة، بابا اتجوز ماما وهو عارف انها متحررة، اتجوزها علشان جمالها، يعنى جنس وبس، وبرغم كده كان بيضربها بمنتهى القسوة لمجرد ان حد بيبصلها، وده تحت مسمى أصل أنا بغير عليكى، ورغم كده ماما كانت بتحبه قوى، وماتت بسببه الراجل الشرقى مريض نفسي، عايز الجميلة المثيرة بس عايزها فى قفص محدش حتى يبصلها الا هو، تعرف انا نفسي انتقم لماما من كل راجل شرقى غريزته هى الى بتحكمه، وبيفكر بشهوته بس، شعر بشيء يتغير.
السعادة اللحظية التي كانا يعيشانها بدأت تتلاشى كالدخان.
الحديث عن أمراضهم النفسية، عن بغضهم المشترك على المجتمع، كان يسحب منهما النشوة ويغرقهما في بئر الكآبة من جديد.
أراد أن يكسر هذا الجو الثقيل، أن يعيد الضحك إلى اللحظة قبل أن تموت تماماً.
نظر إليها بابتسامة خفيفة، وقال لها مازحاً:
-ايه حيلك انا مصرى شرقى ولا نسيتى.
ابتسمت هي الأخرى، وقالت ساخرة:
- ياجميلة انت مصرية مش مصري، هاهاها ...
يا خبر يالا بينا بقي علشان النهار قرب يطلع واحنا شعب محافظ، ولا عايز الناس تقول عليا بنت مش كويسة
قالتها بعد أن رأت نور الفجر بدء فى لبزوغ
- اوك، يالا بينا وبكرة نتقابل هنا فى المقطم.
-اوك
بات كلٌّ منهما تلك الليلة يحلم، يتطلع، يتخيل.
كيف ستكون حياته في وجود الآخر؟
أفكار شيطانية تتدفق في عقليهما كالسيل الجارف، أفكار كانت مكبوتة في الظلام، محبوسة في زنزانة الوحدة، مستحيلة التنفيذ بدون شريك.
لكن الآن...وجد كلٌّ منهما نصفه الآخر.
باهي وجد في شاهي القوة التي كان يبحث عنها.
شاهي وجدت في باهي الأداة التي كانت تحتاجها.
معاً، يمكن أن يشكلا كياناً واحداً مرعباً.
مجموعة من الأفكار الشيطانية لا يمكن تنفيذها إلا بمساعدة الآخر، أفكار لو خرجت إلى النور لأحرقت كل شيء في طريقها.

مساء اليوم التالي...

المقطم

جاء الليل وتقابلا الاثنان مرة أخرى
-هاى باهى عامل ايه
-هاى شاهى **and you،I am fine**
استندت شاهي على مقعد السيارة بكسل متعمد، ومدّت ساقيها أمامها في حركة استرخاء مخادعة. أشعلت سيجارة ببطء، وأخذت نفساً عميقاً جعل الجمرة تتوهج في الظلام، ثم نفثت الدخان نحو السقف بحركة مدروسة، وقالت:
-أنا زي الفل والله... وقولتلك نتكلم عربي يا باهي. لغة لذيذة كده، فيها حرية ملهاش حدود.
توقفت لحظة، أدارت وجهها نحو النافذة تنظر إلى المدينة النائمة تحتهما، عيناها تضيقان بسخرية، ثم استدارت نحوه فجأة وهي تشير بالسيجارة في الهواء:
- تعرف إن المصريين دول شعب غريب يا باهي؟ شعب عايش في وهم رهيب... بيعتبرونا إحنا اللي شواذ، مع إن كل واحد منهم، قسماً بالله، جواه شاذ، بس مدفون تحت طبقات من الكدب والنفاق.
بدأ صوتها يعلو تدريجياً، وانحنت للأمام قليلاً كأنها تفرغ كل ما في صدرها من غضب مكبوت منذ سنوات:
- تلاقي الشيخ اللي بيتكلم عن الفضيلة والعفة على المنابر... راجل متجوز تمانية ومطلق عشرة وبيحللها لنفسه براحته! وتلاقي الأب اللي شديد وجَدّ قدام عياله ومحترم في الشغل... في بيته بالليل بيشرب حشيش ويقولك: ده مش كيف يا حبيبي، ده راحة بال.
ضربت بيدها على فخذها في حركة استنكار:
- طب إمال بتشريه ليه يا عم الأمور؟ قول إنه كيف وخلاص! اعترف بحقيقتك بدل ما تعيش في كدبة!
ضحكت ضحكة مُرّة هستيرية، ورمت رأسها للخلف، ثم أكملت وهي تنفث دخان السيجارة بعنف نحو النافذة:
وتلاقي المسؤولين اللي بيطلعوا في التلفزيون بالبدل الغالية ويتكلموا عن محاربة الفساد والشفافية... دول يا حبيبي واخدين دكتوراه في نشر الفساد من جامعة الفاسدون الدولية! اللي فاتح الدرج على البحرى، واللي بيستغل منصبه وبياخد

عمولة على أي مناقصة أو مزايدة... وبعدين يقعد يتفلسف ويقولك: ده حقي، أنا تعبت وشقيت.
اتسعت عيناها بسخرية مختلطة بغضب حقيقي، ورفعت إصبعها في الهواء كأنها تعظ:
- بلد بتنافس على كاس العالم في الفساد يا باهي... مصنفة في الفساد! والكل مبسوط وبيضحك على نفسه، والكل عامل نفسه مش شايف حاجة. الحقيقة واضحة وضوح الشمس، بس الكل بيهرب منها... واحد في سيجارة الحشيش، وواحد في تذكرة البودرة، وواحد في النبيذ، وواحد في القمار، كله هروب!
أطفأت السيجارة بعنف على حافة النافذة، ثم أشعلت أخرى مباشرة بيد مرتعشة قليلاً من فرط الانفعال. نظرت إلى باهي مباشرة في عينيه، عيناها تحترقان:
- تعرف إيه أكتر حاجة مضحكة؟ الحرامي اللي في الأتوبيس... وهو بينشل المحفظة من جيب الراجل اللي جنبه، بيقنع نفسه، وهو قاعد ينشل، إن دي مش سرقة، لا يا سيدي! ده شطارة، ده حقه، ده رزقه، وهو كده بياخد اللي ربنا كاتبهوله.
هزّت رأسها بسخرية مريرة، وأكملت بصوت أخفض لكنه أكثر خطورة:
- وكله بيعدّي يا باهي... كله ماشي. الكل دافن راسه في الرملة زي النعام، وكل واحد عايش في بلونته الصغيرة، ومقتنع إنه أحسن من التاني، ومقتنع إنه صح والتاني غلط.
سكتت لحظة طويلة، نظرت إلى السماء التي بدأت تتلون بخيوط الفجر، ثم تنهدت تنهيدة عميقة:
دي بلد ميتة يا باهي... ميتة إكلينيكياً، بس لسه ماحدش عرفها ده، ويمكن يكون ده من حظنا.
أطفأت السيجارة الثانية بحركة أعنف من الأولى. صمت ثقيل خيّم على المكان. كان كلامها سماً خالصاً. لكنه سمٌّ ممزوج بحقائق لا يجرؤ أحد على الاعتراف بها. كانت الظلمة التي احتمى بها الاثنان طوال الليل تنسحب ببطء، كاشفة كل شيء، فاضحة كل سر.
أثلجت كلماتها صدره. كانت كلماتها تلك تختصر جبالاً من الأفكار كان يريد البوح بها، تختصر سنوات من الغضب والكره المكتوم. وجد فيها مرآته. وجد فيها صوته. لكنه كان أذكى من أن يكشف أوراقه كلها دفعة واحدة. ابتسم ابتسامة خفيفة، وحرّك رأسه موافقاً بحركة بطيئة مدروسة. أشعل هو الآخر سيجارة، وأخذ نفساً عميقاً منها، ثم نفث الدخان ببطء.

تعامل بدهاء مع كلماتها، كالصياد الذي يلقي الطُعم ببراعة. نظر إليها بعينين نصف مغمضتين، وقال متعمداً البلاهة بنبرة هادئة ساذجة:
- فعلاً... الناس في المجتمع الشرقي زي النعام بالظبط.
توقف لحظة، ثم أكمل بنفس النبرة الساذجة المتعمدة:
- بس مش عارف... إنتي عايزة توصلي لإيه بالظبط؟
- ولا حاجه بفضفض، مع انى عمري ما فكرت ان الفضفضة هتكون مع ولد، لا ولد ايه، انتى حبيبتى، انت بتزعل من صيغة التانيث
- لا عادى خدي راحتك على الأخر، أنا مستمتع بكلامك، كل الى بتقوليه ده عبارة عن تأملاتى فى حال البلد دى، البلد دى كنز.
- طب خد سيجارة وقولى تقصد ايه
-لا سيجارة ايه النهاردة معايا حاجة من الاخر صنف هيعجبك قوى شدى وقوليلي رأيك الاول.
ما إن انتهت شاهي من استنشاق جرعتها من المواد المخدرة، حتى اتسعت حدقتا عينيها، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة مليئة بالنشوة.
ألقت برأسها للخلف، وقالت في سعادة بالغة كطفلة وجدت لعبتها المفقودة:
- يااااه! إيه ده؟! ماهي الدنيا حلوة قوي أهيه!
نظر إليها باهي بابتسامة ماكرة، وقرر أن الوقت مناسب للخطوة التالية.
مسح بيده على ذقنه بحركة متأنية، ثم قال بنبرة عفوية:
- إنتي وصلتي... طب بقولك إيه، ماتيجي نكمل السهرة عندي في شقتي؟
انتفضت شاهي فجأة من النشوة، واستدارت نحوه متصنعة الحدة وعيناها تومضان. رفعت إصبعها في وجهه بحركة تحذيرية، وقالت بنبرة ساخرة فيها كبرياء مصطنع:
- شقة إيه؟! إنت فاكرني إيه أنا؟! أنا بنت ناس برضه!
لمعت في عينيها شرارة شيطانية، وأكملت بنبرة أكثر ليونة:
- أنا هاجي معاك... بس تكون مؤدب. أي حاجة كده ولا كده... إنت حر.
ضحك باهي ضحكة خفيفة، وهز كتفيه باستهتار، ثم قال بسخرية:
- لا من الناحية دي متقلقيش... مفيش غير احتمال واحد إنك إنتي اللي تغتصبيني!
انفجرت شاهي في ضحكة هستيرية عالية صاخبة ملأت السيارة:
- ها ها ها ها ها! أغتصبك؟! مجنونة وأعملها!

ثم توقفت فجأة، ونظرت إليه بعينين ضيقتين ملؤهما التحدي، وأضافت بصوت أخفض لكنه مشحون:
- بس إنت تخش دماغي بس...
هز باهي رأسه موافقاً، وأدار مفتاح السيارة بحركة حاسمة:
- إذا كان كده ماشي... طب يالا بينا.
صرخت شاهي بحماس طفولي، ورفعت يديها في الهواء:
- يالا بيناااااااااااااااا!
ثم انقضت عليه فجأة تضربه على كتفه ضربات خفيفة متتالية بقبضتها، وهي تضحك بجنون:
- واستحمل ضربي!
انطلقت السيارة في شوارع الفجر الخالية. كانا يضحكان. كانا منتشيان. كانا يظنان أنهما أحرار.

منزل باهي

الإضاءة الخافتة تنساب من الثريات المعلقة في السقف، ترسم ظلالاً راقصة على جدران الشقة الفخمة. جلست شاهي على كرسي البار الجلدي الأسود، ساقيها متشابكتان بأناقة مدروسة، أصابعها تنقر بإيقاع بطيء على سطح الرخام البارد. عيناها تتنقل بنهم بين التفاصيل، اللوحات المعلقة، التحف الأوروبية، الكتب المصفوفة بعناية على الرفوف. كل زاوية في المكان تهمس بالمال والذوق الرفيع.
خلف البار، كان باهي يتحرك بثقة رجل يعرف تماماً ماذا يفعل. سكب الخمر الأحمر في كأسين كريستاليين، الصوت الناعم للسائل يملأ الصمت المؤقت بينهما.
رفعت شاهي حاجبها وهي تتأمله، ابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها الممتلئتين:
- شقتك جميلة قوي يا باهي... والله حاجة **wonderful**!
صوتها كان يقطر إعجاباً ممزوجاً بفضول، نظرتها لم تفارق ملامحه وهو يقترب منها حاملاً الكأسين.
باهي (بابتسامة جانبية ساخرة):
- **Merci**... قصدي شكراً.
توقف لحظة، وضع أحد الكأسين أمامها برفق، ثم أشار بإصبعه نحوها بحركة مرحة عاتبة:
- شوفتي؟ إنتي اللي بتخليني منتكلمش عربي! كل شوية كلمة انجلش فرانش وكلمة عربي... كاسك؟
قالت وهي تمسك بالكأس، تديره بين أصابعها ببطء:
- مايضرش... بس برضه مقلتليش قصدك إيه من إن البلد دي كنز؟
رفعت عينيها نحوه بتحدٍ ناعم، فضول حقيقي يلمع في نظراتها.
رفع باهي كأسه نحوها، عيناه تلتقيان بعينيها مباشرةً، متجاهلا سؤالها:
- في صحتك.
أخذ رشفة صغيرة، ثم أكمل بنبرة أكثر جدية:
- بس مقلتيليش... إيه رأيك في نوع البودرة؟
استندت شاهي على ظهر الكرسي، جسدها استرخى قليلاً، لكن عينيها ظلتا يقظتين.
أخذت نفساً عميقاً وهي تبتسم:
- لا بجد، فعلاً صنف حلو... آخر حاجة.
توقفت، نظرت إليه بعمق، وأضافت ببطء:
- واضح إنك مش سهل، مش سهل يعنى.

اتكأ باهي على البار، قرّب وجهه منها قليلاً، صوته انخفض إلى همسة واثقة:
- طب لو قلتلك إن الصنف ده كان بيجيلي مخصوص من أوروبا؟
عيناها اتسعتا قليلاً، فاجأها الكلام لكنها أخفت دهشتها بسرعة. وضعت الكأس على البار بحركة بطيئة، انحنت للأمام:
- إزاى؟! ده حتى في إيطاليا مكنش في حاجة بالجودة دي!
توقفت، عقلها بدأ يعمل بسرعة، عيناها ضاقت قليلاً:
- ودي بتيجيلك مخصوص؟ استخدام شخصي يعني ولا...؟
تركت السؤال معلقاً في الهواء، نظرتها ثاقبة تنتظر إجابته.
ابتسم باهي ابتسامة عريضة، رفع سبابته وهزها في الهواء:
- بيعجبني ذكاءك. يعني منها دماغ ومنها بيزنس... بس مش بالطريقة اللي في دماغك.
- ضحكت ضحكة قصيرة، هزت رأسها:
- يا بن اللاعيبة كمان! ده إنت مش عاتق نفسك بقي من كله. مش بقولك مش سهل.
وقف باهي منتصباً، بدأ يمشي ببطء حول البار، يداه في جيبه، كأنه يلقي محاضرة، توقف خلفها، صوته أصبح أكثر انفعالاً:
- مش قلتلك البلد دي كنز؟ مصر سوق مفتوح، عطشان لكل أنواع البيزنس... البيزنس الشمال.
دار حولها، وقف أمامها مباشرة، عيناه تلمعان:
مصر سوق مفتوح وعطشان لكل انواع البزنس الشمال، أصناف مخدرات كويسة، مش جشع التجارة بتوع المخلوط... وكمان بلد بتحب الجنس. بلد فراعنة يا شاهي! شعب كله طاقة... شعب محروم بطبيعته، جواه رغبات مكبوتة، محبوسة جوه العادات والتقاليد، والحرام والحلال.
استدارت شاهي على الكرسي لتواجهه تماماً، وضعت يدها على خصرها:
- لأ كده كتير، وانا اللى كنت فاكرة انى محصلتش، طلعت تلميذة ى مدرستك! أنا شكلي وقعت في رئيس عصابة... وكمان شاذ فول أوتوماتيك!
ضحكت ضحكة قصيرة مندهشة ثم أكملت:
- أوعى! حاجة كده زي الأفلام الأجنبي؟
اقترب منها أكثر، وضع يديه على حافة البار على جانبيها، نظر في عينيها مباشرة:
- لا، بتكلم بجد. تعرفي إن كان لازم نتقابل من زمان؟ إزاي مفكرتش في الموضوع ده قبل كده؟
ابتعدت قليلاً للخلف، رفعت يدها الاحتجاجية:

- موضوع إيه؟! أوعى تكون عايزني أشتغل تاجرة شنطة!
ضحك باهي، ابتعد خطوة، رفع يديه في الهواء:
- لا، سيبك من جو الأفلام العربي القديمة دي... ولا أنا كمان فيلم أجنبي!
بدأ يمشي ذهاباً وإياباً، يشرح بحماس:
- البضاعة بتدخل البلد أبسط مما تتخيلي... بس المشكلة في التسويق.
شعرت انها بلهاء، وبفضول حقيقي:
- يعني إيه؟
توقف فجأة، استدار نحوها:
- يعني... إنتي بتحبي الفلوس ولا لأ؟
وقفت من على الكرسي، اقتربت منه بخطوات واثقة، توقفت أمامه مباشرة، نظرت في عينيه:
- طبعاً! أكتر ما بحب البنات والسادية...البيزنس بالنسبة لي أسلوب حياة.
ابتسم ابتسامة عريضة، مد يده نحوها، تحسس أناملها:
- خلاص! أنا محتاجلك معايا... نعمل **couple**.
سحبت يدها بعيداً، تراجعت خطوة، عيناها اتسعتا، أشارت بإصبعها نحوه:
- تقصد إيه؟! إنت مخدرات ولا شواذ ولا دعارة؟! وضح كلامك! ولا أضربك على حتة تخليك...!
رفع يديه مستسلماً، ضحك:
من غير ولا...
أخذ نفساً عميقاً، بدأ يشرح بهدوء:
- أنا أقصد واحدة زيك... في جمالك وأنوثتك، سكسي ومثقفة...لازم يكون في حياتها راجل...
اقترب منها خطوة:
- واحد زي كده، رجل أعمال ناجح ووسيم، لكن مش متجوز. لازم يكون في حياته ست... لازم نكمل الشكل الاجتماعي بتاعنا.
توقف، ابتسم ابتسامة عريضة:
- إيه رأيك... نتجوز؟
انفتح فمها من الدهشة):
- إيه؟! نتجوز؟!
ضحكت ضحكة عصبية، هزت رأسها:

- إنت مجنون! ما أنا قلتلك إن إحنا الاتنين عكس بعض!
رفعت سبابتها بحدة:
- ده غير إن أنا بميل على السرير إني أبقى الفارس في سباق الخيل!
اقترب منها، صوته أصبح أكثر إقناعاً:
- بس إنتي قولتي إن البيزنس أهم حاجة في حياتك... حتى لو على حساب المتعة.
توقفت، عقلها بدأ يفكر. مشت بضع خطوات، يدها على ذقنها:
- في دي عندك حق...بس ده مايمنعش من متعتي!
بدأت تتحدث بحماس، يداها تتحرك في الهواء معبرة:
- متعتي إني أشوف الرجالة تموت عليا!... إني أخلي الراجل يركع تحت رجلي، بس علشان يبوسها ويلحسها!
أغمضت عينيها لحظة، ابتسامة حالمة على شفتيها:
- يا سلام، إحساس فظيع!
فتحت عينيها، نظرت إليه مباشرة:
ولا إنك تبقى سبب استثارة بنت؟ حاجة تحفة تهبل!
توقفت، خرجت من شرودها، هزت رأسها:
- برضه مش فاهمة.
اقترب منها، وضع يده على كتفها برفق، منبهر، عيناه تلمعان:
- وهو ده اللي أنا عايزه!
نظر في عينيها بجدية:
- يبقى الجواز شكل اجتماعي ليس إلا... وكل واحد على وضعه.
ابتسم ابتسامة شيطانية:
- ويا ستي، لو طلبت معانا السرير... هتبقي إنتي الفارس في سباق الخيل! هاهاهاها!
ضحكت معه، عيناها اتسعتا:
- تصدق؟ فكرة! ولا تخطر على بال الشيطان نفسه! هاهاهاها!
جلسا معاً على الأريكة، باهي انحنى للأمام بحماس، رفع يديه في الهواء كأنه يرسم صورة:
- وساعتها، دماغك على دماغي...هنبقى معانا فلوس نشتري جزر الكاريبي!
عيناها لمعتا، بدأت تفهم الصورة الكاملة:
- فهمتك!
وقفت بحماس، بدأت تمشي وتتحدث:

- بالمخدرات... هنقدر نخلي الناس تهرب من الحقيقة، تنسى إن ملهمش لازمة في الدنيا!
وبالجنس... هنخلي الناس تحس بالمتعة، وإن ليهم لازمة في الدنيا، بس بشكل جديد!
صفقت بيديها:
- والمصالح بتتصالح! يعني... الست اللي عايزة ست؟ أنا موجودة!
والراجل اللي عايز ست؟ أنا برضه موجودة!
وقف باهي بجانبها، أكمل بنفس الحماس:
أما أنا...الراجل اللي عايز راجل؟ أنا موجود!
والست اللي عايزة راجل؟ أنا موجود!
تبادلا النظرات، وعلى وجهيهما ارتسمت ابتسامة ماكرة، فتناولت كأس النبيذ وسقته رشفة منه، دليل على شدة اعجابها بطريقة تفكيره، ولكن هناك جزء بسيط لم يكن واضح لها:
- بس إزاي؟
جلس باهي على حافة الطاولة، لعق بلسانه بقايا النبيذ من على شفاهه، ثم بدأ يشرح لها بثقة:
- حلو! مش إنتي مصممة برامج؟ ... البلد دلوقت فيها مبادرة كمبيوتر لكل بيت، يعنى الانترنت هو اللى هيشكل عقول لسه خضرا، الفكرة هتبقى عبارة عن إننا نعمل موقع جنسي... أول موقع جنسي عربي!
وقف، بدأ يمشي ويشرح:
- الشكل اللي باين إنه موقع جنسي بس... لكن ده هيبقى الغرض منه جذب أكبر عدد من الشباب والبنات والأجيال الجديدة لإدمان الجنس بكل أنواعه وأشكاله! ونغير المفاهيم والعادات عندهم ...وده مايمنعش إننا نشتغل على الرجالة والستات اللي عمرها الافتراضي انتهى...احنا لازم يبقى فيه ناس شبهنا كتير، وكتير قوي كمان!... وطالما فيه جنس...
أكملت شاهي بحماس، عيناها تلمعان:
- هيبقى فيه مخدرات!
صفق باهي بيديه:
- عليكي نور!
احتضنها من كتفيها بحماس:

- وبكده نبقى في الأمان... طريقة جديدة ومبتكرة!
رفع يديه في الهواء:
- الدنيا فردت لينا جناحتها!
جلست شاهي، عقلها بدأ يعمل بسرعة:
- وأنا بصفتي مصممة برامج... هصممّلك موقع جنسي محصلش!
نظرت إليه:
- وإنت بصفتك خبير في الإدارة والتسويق... هيبقى عليك الإدارة وتسويق المتعة والمخدرات عبر الإنترنت!
توقفت فجأة، نظرت إليه بفضول:
- طب هنسمي الموقع إيه يا عبقري التسويق؟
فكر باهي لحظة، وضع يده على ذقنه، عيناه تنظر للأعلى:
- أمممم...إيه رأيك نسميه... **She & He for Sex**؟
قفزت شاهي من مكانها بحماس:
شاهي: **Excellent**!
صفقت بيديها:
She اختصار شاهي، و**he** اختصار باهي! ...اسم عبقري!
أمسك بيديها، نظر في عينيها بحماس:
- آه، ده معناه... لكن هتتكتب كده...
رفع سبابته في الهواء، بدأ يرسم الحروف ببطء:
(She & He. 4. 6)
توقف، أكمل بحماس متزايد، بدأ يعدّ على أصابعه:
- والموقع هيبقى عبارة عن...أفلام بورنو... مقاطع ساخنة... فضائح وصور مشاهير...وكمان التعارف الجنسي... وهو ده اللي يهمنا!
اللي معاه فلوس مش عارف يعمل بيها إيه وبيدور على بنت؟ إنتي موجودة!
واللي بتدور على راجل؟ أنا موجود!
أكملت شاهي بنفس الحماس:
- واللي بتدور على بنت؟ أنا موجودة! ...واللي بيدور على راجل؟ إنت موجود!
قالا معاً، أصواتهما متداخلة ببتسامة عريضة، باهي وشاهي:
- واللي عايز الاتنين؟ موجود!
ضحكا معاً، أمسك يديها، نظر في عينيها بجدية تدل على ثقته في المستقبل:

- باختصار... كله موجود! ...هنبقى **couple** محصلش بجد، ها... نتجوز؟
ابتسمت شاهي، لكن عيناها أصبحتا أكثر جدية:
- ودي محتاجة تفكير، لازم نتجوز حالاً!
هز باهي رأسه بعنف، وبنبرة لا تقبل الجدل قال:
- لا! ده إحنا لازم نعمل فرح في أفخم فندق في البلد! ...ونعزم أكبر شخصيات في المجتمع!
أكملت شاهي بحماس:
- عندك حق! والممثلين ولاعيبة الكورة المشهورين!
وقفا معاً، نظرا لبعضهما، عيونهما تلمع بالطموح والإثارة.
مد يده نحوها:
- مستعدة... يلا نبدأ رحلة **She & He**!
مسكت يده بقوة، ابتسامة واسعة على وجهها:
- يلا بيناااااااا!
صافحا بعضهما بقوة، ثم احتضنا بحماس. أصواتهما المتداخلة بالضحك والتخطيط تملأ الشقة، بينما أضواء القاهرة تلمع من النافذة خلفهما.

السجن

غرفة الزيارات

الجدران الرمادية تحيط بالمكان، رائحة الرطوبة والمطهرات تملأ الأنف. طاولات خشبية متباعدة، كل واحدة محاطة بكرسيين متقابلين. صوت أقدام الحراس يتردد في الخلفية، وهمهمات الزوار تمتزج بنحيب خافت من زاوية بعيدة.
دخل باهي بخطوات واثقة لكن متوترة، عيناه تبحث بين الوجوه حتى وقعتا على لؤي. جلس لؤي على الكرسي، ظهره منحنٍ قليلاً، البدلة الزرقاء للسجن تبدو واسعة على جسده النحيل. شعره أقصرمن المعتاد، غير مهندم، لكن عيناه لا تزال تحمل نفس البريق الذكي.
ما إن رآه لؤي حتى وقف فجأة، ابتسامة لهفة حزينة ارتسمت على وجهه رغم شحوبه. اقترب باهي بسرعة، عيناه بدأت تلمع برطوبة خفيفة. وقفا أمام بعضهما لثوانٍ، نظراتهما تتحدث قبل الكلمات.
باهي (صوته مختنق بالعاطفة)
- لؤي... حبيبي.
توقف، بلع ريقه بصعوبة، يداه تمسكان بحافة الطاولة:
- وحشتني... وحشتني قوي. ووحشني حضنك... عامل إيه؟
مد لؤي يده عبر الطاولة، أمسك بيد باهي بقوة، أصابعهما تشابكت بشدة
لؤي (صوته خشن من قلة الاستخدام):
- إنت كمان واحشني قوي يا باهي...
عصر يده بقوة أكبر، كأنه يخاف أن يفلت منه:
- مين كان يقول إن الأيام هتفرق ما بينا؟
خفض صوته، نظر للأسفل:
- مش قادر أتحمل بُعدك أكتر من كده... بس هانت، فترة وهتعدي.
رفع رأسه فجأة، بريق أمل في عينيه:
- المحامي كان عندي، وقالي إن ممكن أخرج بعد نقض الحكم!
اتسعت عينا باهي، انحنى للأمام وبصوت مليء بالأمل:
- بجد يا لؤي؟!
ابتسم لؤي ابتسامة حزينة ممزوجة بالأمل:
- بجد يا روح قلب لؤي...

توقف، نظر حوله بحذر، ثم خفض صوته:
- ها... جبت الحاجة اللي طلبتها منك في الزيارة اللي فاتت؟
أومأ باهي برأسه، انحنى أكثر، صوته أصبح همساً:
- زى ما طلبت بالظبط... وحطيتهالك في أكياس مسحوق الغسيل.
لمعت عينا لؤي بذكاء، ابتسامة شيطانية ظهرت على وجهه:
- هايل! فكرة حلوة قوي.
توقف، تأكد أن لا أحد يسمعهما، ثم اقترب أكثر:
- بص بقي، اسمعني كويس...دلوقتي بقي فيه حاجات تانية جديدة... مكسبها أكتر بكتير من البودرة، ومفيش فيها مسؤولية جنائية!
رفع باهي حاجبه، فضول حقيقي ارتسم على وجهه:
- حاجات إيه؟
نظر لؤي حوله مرة أخرى، ثم قال بصوت خافت لكن حازم:
- البرشام... المسكنات والمهدئات. الترامادول والابترال وحاجات شبههم.
عيناه اتسعتا وهو يشرح، كأنه وجد كنزاً:
- دول الدهب الأبيض يا باهي، المستقبل!
هز باهي رأسه ببطء، وضع يده على ذقنه:
- آه، علشان كده... ده وأنا في تركيا لقيت مندوب الأخطبوط بيعرض عليّ فتح سوق للبرشام هنا...وفضل يقنعني أكتر من ساعة.
اقترب لؤي أكثر، عيناه تحدقان في عيني باهي مباشرة:
وإنت قلتله إيه؟
- طبعاً رفضت... حسيت إنه بيحاول يبعلي حاجات ملهاش سوق عندهم، وعايز يخلص منها.
ضرب لؤي بيده على الطاولة بقوة مكتومة، عيناه اشتعلتا، خفض صوته مرة أخرى لكن نبرته كانت حادة:
- غلطان! ...السجن ده هو المؤشر... نموذج مصغر لسوق المخدرات في الشارع! ...وهنا سوق مفتوح للبرشام أكتر من البودرة بكتير... إقبال غير عادي! ...سوق عطشان وسهل!
بدأت ملامح باهي تتغير، عيناه تضيقان وهو يستوعب الكلام.
أكمل لؤي بحماس متزايد:
- والموضوع سهل وبسيط... الترامادول ده اسمه البودرة المغلفة!

ابتسم ابتسامة ساخرة:
- لا وايه تجارته قانوني... آخرك مزاولة مهنة بدون تصريح.
هز يده باستهانة:
- محدش واخد باله من البرشام خالص! ...لازم ترجع تركيا تاني... وتطلب من راجل الأخطبوط صفقة برشام.
بس خلّي الترامادول أكتر... يعني حوالي تمانين في المية ترامادول وعشرين في المية ابترال.
حك باهي رأسه، تفكيره بدأ يتسارع:
- طب والبودرة اللي جاية دي كمان كام يوم؟
أجاب لؤي بسرعة، كأنه كان يتوقع السؤال:
- روح لدكتور مينا... وهو يتصرف. لازم تتعاون معاه أكتر من كده... أنا لولا طمعه كنت خليته هو اللي يسافر. هو ماشي كويس في موضوع البرشام... بس إيقاعه بطيء.
اقترب أكثر، صوته أصبح همساً واثقاً:
- أنا عرفت من المحامي إنه فتح سلسلة صيدليات... زي ما الأخطبوط طلب منه بالضبط! علشان تكون هي منافذ التوزيع للبرشام من غير ما حد يشك في حاجة...
ابتسم ابتسامة شيطانية:
- وتكون نقطة انطلاقة لينا... تعوّضنا عن الأيام اللي فاتت.
هز باهي رأسه ببطء، لكن وجهه كان يعكس شكوكاً:
- بيني وبينك... مش متخيل، هيكون إيه يعني تأثير البرشام على شغلنا؟
ابتسم لؤي ابتسامة عريضة، كأن باهي سأل السؤال المنتظر:
- متنساش ان أنا دكتور صيدلى، المسكنات هتكون هي القطر السريع للوصول للمجد! ...واللي أنا مقدرتش أعمله... أنا عارف إنك هتقدر تعمله. البرشام إدمانه سريع جدا... الناس هتدمنه بسرعة! أغلب الناس في السجن بتاخده علشان تعدّي الأيام بسرعة...وطبعاً الأيام هي هي... بس وهم الكيف والهروب من الواقع. البرشام بيخلي الناس تتحمل الحبسة. باهي... دي فرصتنا علشان تنتقم ليّ من الدنيا! الفلوس هتبقى معاك زي الرز... ملهاش حساب!
ظل باهي صامتاً للحظات، عقله يعمل بسرعة. ثم أومأ برأسه ببطء:
- تمام اللى تشوه... أنا على آخر الأسبوع هروح تركيا تاني...وهاطلب مقابلة مندوب الأخطبوط.
ارتاح لؤي قليلاً، استند على ظهر الكرسي. ثم تذكر شيئاً فجأة:

- إيه أخبار الموقع اللي كلمتني عنه الزيارة اللي فاتت؟
ابتسم باهي بفخر:
- خلاص... هانت بعد كام يوم هنشغل!
رفع لؤي يده فجأة، أشار له بالتوقف:
- بص... أنا عندي فكرة هتقوّي الموقع. لازم تعملها الأول... وأجّل الموقع ده شوية.
رفع باهي حاجبه، فضول ارتسم على وجهه:
- إيه هي؟
اقترب لؤي، صوته انخفض لهمس حماسي:
- إنك تعمل جورنال!
توقف، تأكد أن لا أحد يسمع:
- أنا معايا هنا في السجن صحفي محبوس... بس دماغه دماغ أفاعى!
قالي على فكرة جورنال يتكلم عن فضايح الفنانين والمشاهير والشخصيات العامة... وشوية شعبي.
رفع سبابته يرسم:
- جريدة تبقى اسمها الضوء الساطع!
فكر باهي للحظة، هز رأسه ببطء:
- فكرة كويسة... هتبقى المبيعات بأعداد كبيرة.
توقف، وجهه تجهم قليلاً:
- بس دي محتاجة رأس مال... وموافقات وحاجات كتير.
ضحك لؤي ضحكة خافتة، لوّح بيده باستهانة:
- باهي... طول ما فيه الأخطبوط، مفيش مشكلة! ...متشلّش هم حاجة... إنت بس فكر في مواضيع تخطف الناس وتشدهم! ويسلام لوتحرك غريزة الجنس فيهم! ...وكل ما الأخبار هتكون مثيرة للناس... الناس هتدور على النت على الموضوع!
صفق بيديه بهدوء:
- وطبعاً الموضوع كامل عندك على الموقع! ...وساعتها الموقع هيكسر الدنيا كلها!
بدأ باهي يستوعب الخطة، ابتسامة بدأت تتكون على وجهه:
- طب وتمن الجورنال هيبقى كام؟
هز لؤي رأسه بقوة:
- لا... ده لازم يبقى بتمن قليل يكاد يكون سعر التكلفة! ...ولو قدرت في الأول توزعها مجاناً... وزّعها! ...ودي اعتبرها دعاية للموقع!

ومتنساش إن الجريدة هتعملّك شكل اجتماعي في الوسط الفني والإعلامي بشكل مختلف!
أومأ باهي برأسه بقوة، عيناه اشتعلتا بالحماس:
- فهمتك!
وقف قليلاً، وضع يديه على الطاولة:
واللي مقدرتش تعمله دول وكيانات كبيرة في إنها تاخد خير البلد دي...
هنعمله إحنا بشوية ذكاء وتخطيط وتنظيم في تحديد الأولويات اللي تقدر تخلينا نتمكن من التحكم في سوق المخدرات والجنس! ...ونتربع على عرش الساحة كله، بس باستخدام شوية ذكاء وتكنولوجيا!
فجأة، صوت صفير حاد ملأ القاعة. التفت لؤي بسرعة، رأى الشاويش يشير بيده. دليل على أن وقت الزيارة انتهى، وجهه تجهم، استدار نحو باهي بسرعة، أمسك بيديه بقوة:
- الشاويش بيشاور... الزيارة كده انتهت، لازم تكون بالك قوى... واوعى الغضب يسيطر على تصرفاتك في يوم من الأيام!
عصر يديه بشدة:
- ساعتها هتخسر كل حاجة!
ابتسم باهي ابتسامة حزينة، عيناه بدأت تلمع برطوبة:
- متقلقش عليّ...خلي إنت بالك من نفسك.
توقف، صوته اختنق قليلاً:
- يلّا... احضني قوي.
وقفا معاً بسرعة. لؤي فتح ذراعيه بشدة، صوته مختنق:
- حبيبي... تعال في حضني!
احتضنا بعضهما بقوة شديدة، كأن كل واحد يحاول أن يسحب الآخر داخله. أجسادهما ارتجفت قليلاً، أنفاسهما المتقطعة امتزجت.
أغمضا عينيهما بشدة.
استمر الحضن لثوانٍ طويلة، كل واحد يشم رائحة الآخر، يحفظ ملمس جسده. أيديهما تمسكان بقوة، كأنهما يخافان من الانفصال.
الشاويش (بصوت حاد):
- يلا! الوقت خلص!

بدأ باهي ينفصل ببطء، لكن يداه ظلتا ممسكتين بكتفي لؤي. نظرا لبعضهما للحظة أخيرة، عيونهما تتحدث بما لا تستطيع الكلمات قوله.
ثم انفصلا ببطء. استدار باهي بحزن، بدأ يمشي نحو الباب، التفت مرة أخيرة. لؤي لا يزال واقفاً، يده مرفوعة في وداع صامت، ابتسامة حزينة على وجهه.
خرج باهي من الباب، صوته خافت يتردد في القاعة:
باهي (همساً لنفسه):
- مش هسيبك تفضل هنا يا لؤي... مش هسيبك، لازم الكل يدفع تمن بُعدك عنى، الكل هو اللى لازم يكون هنا مش أنت!

(٢)
العشوائية الممنهجة

تركيا

إسطنبول- مطعم فاخر

أضواء المطعم الدافئة تنعكس على الأسطح الرخامية اللامعة. موسيقى تركية هادئة تتسلل من مكبرات الصوت المخفية.
جلست شاهي على الكرسي المخملي الأحمر، عيناها تتجول بإعجاب واضح على التفاصيل، ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها:
- المطعم ده تحفة يا باهي!
صوتها كان مليئاً بالإعجاب الحقيقي، ابتسم باهي ابتسامة غامضة، أخذ رشفة من كأس الماء أمامه:
- مش قولتلك؟ ولسه المفاجأة الأكبر اللي إنتي هتتجنني وتعرفيها.
جذبته نظرتها، اقتربت أكثر، صوتها انخفض لهمس فضولي:
- قول بقي!
وضع الكأس على الطاولة ببطء، نظر حوله بحذر، ثم اقترب منها:
- هنقابل دلوقتي أوغلو ألكان...
توقف، لاحظ عدم فهمها للأهمية، فأكمل:
- حاجة زي فيلم الرجل التاني... لؤي كان كلمني عنه، بس عمره مقابله.
رفعت حاجبها، بدأت تفهم الأهمية. ابتسمت ابتسامة جانبية:
- أنا كنت حاسّة إننا هنا علشان شغل...بس قولت أسيبك لما إنت تقولي.
أمسك بيدها، عصرها برفق، نظر في عينيها بجدية:
- إنتِ عارفة إن المقابلات كانت مع مندوب بس...أوغلو ألكان بنفسه يقابلنا؟ دى حاجة كبيرة قوى، الموضوع مش سهل!
اتسعت عيناها، انفرجت شفتاها قليلاً. انحنت للخلف على الكرسي، ضحكت ضحكة قصيرة متحمسة:
شاهي: واو! حلو قوي جو العصابات والتشويق... شكلنا داخلين على شغل جامد قوي!

فجأة، تجمدت ملامح باهي. عيناه اتسعتا قليلاً، نظر خلفها نحو المدخل. مد يده بسرعة، أمسك بذراعها برفق لكن بحزم همساً:
بس بس... نبقى نكمل بعدين.
انحنى أكثر، صوته أصبح أكثر انخفاضاً:
- واضح إن هو اللي داخل علينا... ده ووراه رجالته.
استدارت شاهي قليلاً بفضول لا إرادي:
- فين؟
أمسك بيدها بقوة أكبر، نظر في عينيها بحدة:
- وراكي... متبصيش!
أخذت شاهي نفساً عميقاً، استدارت ببطء لتواجه الطاولة مرة أخرى. فردت ظهرها، رفعت ذقنها قليلاً، ابتسامة هادئة واثقة ارتسمت على وجهها.
صوت أقدام ثابتة، واثقة، تقترب. ليست سريعة ولا بطيئة - إيقاع رجل يعرف قيمته. توقفت الأقدام بجوار طاولتهما.
ظهر أوغلو ألكان.
رجل في أوائل الستينات، أو ربما أواخر الخمسينات - يصعب تحديد عمره بدقة. وجهه هادئ بشكل مخيف، خطوط عميقة حول عينيه تروي قصصاً لا تُحكى. شعره مزيج أنيق بين الأسود الداكن والفضي اللامع، مُصفّف للخلف بعناية. قصير القامة نوعاً ما، لكن جسده ممتلئ بطريقة توحي بالقوة المكبوتة. يرتدى بدلة سوداء فاخرة، قميص أبيض بلا ربطة عنق، زراره الأول مفتوح بأناقة مدروسة.
عيناه - رمادية باردة - تحركت ببطء من باهي إلى شاهي. توقفت عندها لثوانٍ أطول من اللازم.
ابتسامة ناعمة، مهذبة، لكنها تحمل شيئاً آخر، ظهرت على وجهه:
- أهلاً مستر باهي...
توقف، استدار نحو شاهي بالكامل، انحنى قليلاً باحترام مبالغ فيه:
- أوه... مرحباً مسز شاهندا!
صوته ارتفع قليلاً بحماس مصطنع، أو ربما حقيقي:
- إيه الجمال ده؟!
فتح ذراعيه بحركة درامية:
- ملكة جمال الكون هنا! تركيا كلها منورة! لا بجد... أنا بحسدك على اختيارك، مستر باهي!

ابتسمت شاهي ابتسامة عريضة، لكن عيناها ظلتا يقظتين. مدت يدها برشاقة:
- ميرسي على المجاملة الرقيقة دي، مستر أوغلو...
توقفت، لمست شعرها بحركة أنثوية مدروسة:
- أنا كده هتغر في نفسي!
أمسك أوغلو بيدها، قبّلها بأدب مبالغ فيه، عيناه لم تفارق عينيها:
- مجاملة إيه؟ دي حقيقة...وأقل من الحقيقة، مسز شاهندا!
تدخل باهي بسرعة، صوته كأنه قواد لكن مهذباً:
- أنا ممنون جداً لإعجابك بجمال مراتي، مستر أوغلو.
شدد على كلمة مراتي بنبرة واضحة.
ابتسم أوغلو ابتسامة أوسع، رفع يديه مستسلماً بمرح:
- انت فعلا رجل محظوظ جداً!
جلس معهما بحركة سلسة. استند على ظهر الكرسي، نظر لباهي مباشرة، وجهه أصبح أكثر جدية:
- ها... مستر باهي، طلباتك؟
انحنى باهي للأمام، وضع يديه على الطاولة بثقة:
- انا قولت للمنودب! ...لؤي طلب صفقة برشام... مسكنات. وقال نجرّب.
انفجر أوغلو ضاحكاً، ضحكة عالية، صادقة، ملأت المطعم. ضرب بيده على الطاولة بقوة:
- تجرّب؟! هاهاهاها!
توقف فجأة، نظرته أصبحت حادة كالسكين، ابتسامته اختفت:
- بكرة تعرف المسكنات دي هتوصلك لفين!
رفع يده نحو السماء:
- هتطول النجوم بإيدك، مستر باهي!
نظر نحو شاهي، ابتسامته عادت:
- ده إذا مكنتش لمستها بجوازك من مسز شاهندا!
ابتسمت شاهي ابتسامة مجاملة، لكن باهي لم يُعلق. نظر لأوغلو بجدية:
- واضح إن حضرتك واثق من النتيجة.
استند أوغلو للخلف، شبك أصابعه أمام صدره:
- أكيد... والا مكنتش جيت أقابلك بنفسي. عندك أي أسئلة تانية، مستر باهي؟
أومأ باهي برأسه، أخذ نفساً عميقاً:

- آه... لؤي قالي أعرض على حضرتك فكرة إصدار جريدة... تتكلم عن فضايح الفنانين والمشاهير والشخصيات العامة وكده... حاجة هتخدمنا في شغلنا بشكل كبير.
رفع أوغلو حاجبه، أومأ برأسه ببطء بموافقة:
- فكرة كويسة... والأفكار اللي زي دي، نموّلها واحنا مطمئنين.
تدخلت شاهي فجأة، صوتها كان واثقاً، متحمساً:
- ولسه لما حضرتك تعرف إن أنا صممت أول موقع بورنو عربي!
انحنت للأمام، عيناها تلمعان:
- عبارة عن مقاطع فيديوهات... وأفلام بورنو مترجمة... قصص جنسية... تعارف جنسي! ...والموقع هيبقى مروّج ممتاز للبرشام على إنه منشطات جنسية!
صوتها أصبح أكثر إثارة:
- الناس لما بتشوف الأفلام دي، بتفقد الثقة في رجولتها...
ابتسمت ابتسامة شيطانية:
- وساعتها هتقتنع إن البرشام هو اللي هيرجعلها رجولتها! والرجالة هتجيب ستات وكده.
صمت أوغلو للحظات. عيناه اتسعتا قليلاً، نظر لشاهي بإعجاب حقيقي. ثم صفق بيديه بقوة:
- برافو باهي! برافو!
استدار نحو شاهي، عيناه لمعتا:
- أما إنتي يا مسز شاهندا... أنا كل ما مدى بيزيد إعجابي بجمالك وذكاءك!
انحنى للأمام، صوته أصبح أكثر حميمية:
- أنا بعشق الستات الجميلة... وبيزيد عشقي للستات الجميلة الذكية!
توقف، نظرته أصبحت أكثر كثافة:
- والموضوع بيوصل لمنتهى العشق لما تكون جميلة وذكية وجريئة!
صمت لحظة، ثم استند للخلف:
- أنا بصراحة... كنت جاي علشان أقيّم وجودكم معانا في عالمنا... عالم الأخطبوط. كدراع مهم للاخطبوط في مصر والدول العربية.
نظر لهما بالتناوب:
- والصراحة... شايف سقف طموحكم ملوش حدود في فتح مجالات بيزنس بيخدم مصالحنا بشكل عصري!
وقف فجأة، فرد بدلته بحركة أنيقة:

- وللأسف أنا مرتبط بمواعيد تانية دلوقت... علشان كده، الليلة في حفلة عندي.
نظر لشاهي مباشرة:
- وإنتوا هتكونوا ضيوف الشرف للحفلة!
بدأ يمشي ببطء حول الطاولة، يداه خلف ظهره:
- هيكون موجود شخصيات كتير ممكن تفيدكم في المرحلة الجاية...
توقف خلف كرسي شاهي، وضع يده على ظهر الكرسي:
- وبالمرة نتفق على كل تفاصيل مشاريعكم الهايلة دي.
انحنى قليلاً نحوها، صوته أصبح أكثر نعومة:
- ياريت يا مسز شاهندا... تقبلي دعوتي.
استدارت شاهي على الكرسي، ابتسمت ابتسامة واسعة، عيناها لمعتا:
- ياخبر! ده شرف كبير لينا، مستر أوغلو! ...هتلاقينا أول الموجودين!
ابتسم أوغلو ابتسامة راضية، ابتعد عن الكرسي:
- طب هستأذن أنا علشان أستعد للحفلة...وكمان أعرض على الأخطبوط أفكاركم الجميلة دي... لأن القرار في الحاجات دي مش بإيدي لوحدي.
في عربية هتيجي تاخدكم من قدام الفندق، الساعة تمانية بالدقيقة! أشوفكم في الحفلة! فرصة سعيدة، مسز شاهندا!
ردت شاهي بصوت حلو:
- أنا أسعد، مستر أوغلو!
نظر أوغلو لباهي، أومأ برأسه:
- إلى اللقاء، باهي.
- إلى اللقاء، مستر أوغلو.
ابتعد أوغلو بخطوات ثابتة، رجاله الأربعة الذين كانوا واقفين عند المدخل انضموا إليه. اختفى خلف الباب الزجاجي الضخم.
ظل باهي وشاهي جالسين، ينظران لبعضهما بصمت. ثم ببطء، ابتسامة بدأت تتكون على وجهيهما، ابتسامة ممزوجة بالذهول والنشوة والإثارة.
شاهي كانت أول من تكلم، عيناها لا تزال تلمع:
- لا فعلاً يا باهي... راجل غامض! نبرة صوته بتدل على أنه ذكاءه واو!
ابتسم باهي ابتسامة جانبية خبيثة، نظر في عينيها مباشرة:
- وواضح إنه معجب بيكي قوي!
ضحكت شاهي ضحكة قصيرة، عيناها اتسعتا:

- إنت خدت بالك؟
مدت يدها، لمست ذقنها بإصبعها، كأنها تفكر:
- نقطة إيجابية كبيرة علشان نتقرّب منه...
ثم نظرت له فجأة، ابتسامة شيطانية على شفتيها. مدت سبابتها، بدأت تحركها ببطء فوق شفتيه:
- أوعى تكون بتغيرى يا جميلة؟
صوتها كان مليئاً بالمرح والتحدي.
أمسك باهي بإصبعها برفق، أبعدها عن شفتيه، نظر في عينيها بسخرية:
- أغير؟ طب إزاي...ده إحنا حتى دفنينه سوا!
انفجرت شاهي ضاحكة، ضحكة عالية، صادقة، ملأت المطعم. رأسها انحنى للخلف، يدها غطت فمها. لكن فجأة، توقفت الضحكة. كأن أحداً أطفأ مفتاحاً. وجهها أصبح جدياً، عيناها ضاقت:
- بس... إيه موضوع البرشام ده؟
نظرت له بفضول حقيقي:
- هو مش كان مخدرات بودرة وكده؟
تنهد باهي، فرك وجهه بيده:
- بصّي... أنا مش مقتنع بالبرشام ده، بس ادينا هنجرّب... واضح إنهم شايفين حاجة إحنا مش شايفينها. نجرّب... هنخسر إيه؟
فجأة، ضربت شاهي بيدها على الطاولة، عيناها اتسعتا:
شاهي: آه! افتكرت! تعرف إن ليلى صاحبتي كانت قالتلي إن جوزها بياخد البرشام ده على طول؟ وقعدت تكلمني على تأثيره على علاقتهم الجنسية! بس أنا مكنتش بركّز معاها... لكن ابتديت أربط الكلام مع بعضه!
ثم نظرت له فجأة بشك:
- وإيه موضوع جريدة الفضايح دي كمان؟ بقي كده بتخبّي عليا من أولها؟
ضحك باهي، رفع يديه مستسلماً:
- مش قلتلك؟ عملك مفاجأة! يلا بينا... نرجع الفندق ننام ساعة قبل الحفلة.
علشان الواحد يبقى مركّز في كل كلمة هتتقال...وهشرحلك في الطريق موضوع الجريدة!
وقفت شاهي، لكنها لم تمسك بيده. وضعت يدها على خصرها:
- لا... نام إنت! أما أنا هنزل حمام السباحة... وأفكر في كل الحاجات دى على رواقة!

توقفت، استدارت، ابتسمت له ابتسامة غامضة:
- محتاجة أصفّي دماغي شوية.
ثم استدارت مرة أخرى، ومشت بخطوات واثقة نحو الخروج، شعرها يتمايل خلفها. بقي باهي واقفاً في مكانه، ينظر لها وهي تبتعد. ابتسامة خفيفة على وجهه، لكن عينيه كانتا مليئتين بالتفكير.

حفلة المؤامرة

القصر - ليلاً

الحديقة الخلفية للسرايا تحولت إلى جنة ليلية. مئات الفوانيس الورقية المعلقة بين الأشجار الضخمة ترقص مع النسيم، تُلقي ظلالاً ذهبية راقصة على الوجوه. موسيقى الجاز الحية تنساب من فرقة صغيرة في الزاوية، أصوات الساكسفون والبيانو تمتزج مع همهمات الضيوف وقرقعة الكؤوس الكريستالية.
طاولات مزينة بالورود البيضاء والشموع منتشرة في كل مكان. نادلون يرتدون بدلات سوداء أنيقة يتحركون بسلاسة بين الضيوف، يحملون صواني فضية محملة بالمقبلات الفاخرة والمشروبات. رائحة العطور الباهظة تمتزج مع رائحة الزهور والشواء الفاخر.
شاهي وباهي وقفا عند مدخل الحديقة للحظات، عيونهما تتسع من الإبهار. شاهي ترتدي فستاناً أسود طويلاً بظهر مفتوح، يحتضن جسدها بأناقة مذهلة، شعرها منسدل على كتفيها بتموجات ناعمة. باهي في بدلة ذات لو ازرق داكن مع قميص ابيض بلا ربطة عنق، يبدو كرجل أعمال واثق.
فجأة، من بين الحشد، ظهر أوغلو ألكان. يرتدي بدلة بيضاء كريمية مع قميص حريري أسود، يتحرك بثقة مطلقة. عيناه وقعتا على شاهي أولاً، اتسعتا قليلاً، ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه.
اقترب بخطوات سريعة، ذراعاه مفتوحتان، بصوت مليء بالإعجاب:
أنا مش مصدق نفسي! إيه الجمال ده يا شاهندا هانم؟! بالنهار مشرقة... وبالليل متألقة! فستان في غاية الروعة... اللون الأسود اتخلق علشان يظهر جمالك!
فجأة، كأنه تذكر شيئاً، استدار نحو باهي بسرعة:
- أوه، متأسف مستر باهي!
مد يده، صافحه بقوة:
- أهلاً بيكم في حفلتي!
ثم انحنى، أمسك بيد شاهي برفق، قبّلها بأدب مبالغ فيه. نظرته ظلت مرفوعة نحو عينيها أثناء القبلة.
ابتسم باهي ابتسامة عريضة، لكن عينيه كانتا يقظتين، نظر حوله على الحديقة المزينة، الضيوف الأنيقين، الموسيقى الحية:
- هاي مستر أوغلو...**Nice party**!

صوته كان مليئاً بالإعجاب الحقيقي.
تدخلت شاهي بسرعة، سحبت يدها برفق من يد أوغلو، متصنعة أنها شخصية سوية:
- أنا مش عارفة أقولك إيه يا مستر أوغلو...فعلاً الحفلة روعة!
ابتسمت ابتسامة ساحرة ثم اكملت:
- وإنت أجمل ما في الحفلة... حقيقي!
انفجر أوغلو ضاحكاً، ضحكة عالية، سعيدة:
- هاهاهاها! طب يلا بينا...
وضع يده على ظهر باهي، بدأ يقودهما نحو الحشد:
- نبدأ حفلتنا... وأعرّفكم على الناس اللي ممكن تستفادوا منهم في شغلكم الجاي!
بدأ يمشي معهما، صوته أصبح أكثر حماساً:
- وتحقيق أحلامكم وطموحاتكم بشكل أسرع!
توقف فجأة، استدار نحوهما، نظر في عيونهما مباشرة:
- لأن أنا بصراحة... عجبني ذكاءكم وطموحكم بشكل شخصي!
ثم ابتسم ابتسامة أوسع: وكمان قبل ما أنسى...
اقترب من باهي، خفض صوته قليلاً لكن ظل مسموعاً:
- الأخطبوط معجب جداً بفكرة الجريدة والموقع يا مستر باهي!
وبعتلك مكافأة... أول ما هتوصل مصر هتلاقيها!
اتسعت عينا باهي، ابتسامة مندهشة ارتسمت على وجهه:
- مكافأة؟! إيه هي؟
لوّح أوغلو بيده باستهانة مرحة، ابتسامة غامضة على وجهه:
- متستعجلش يا مستر باهي... كل حاجة في أوانها!
تدخلت شاهي فجأة، وضعت يدها على خصرها بحركة مرحة:
- واضح إن الإعجاب بس بباهي! وأنا طبعاً مش في الحسابات؟
ضحك أوغلو بصوت عالٍ، هز رأسه بقوة:
- ودي تفوتني؟ أو تفوت على الأخطبوط؟ إنتِ نصف المفاجأة هتبانك في الحفلة...والنصف التاني في مصر! يالا نبتدي بالنص الأول... تعالوا معايا!
قادهما أوغلو عبر الحشد، يتوقف كل بضع خطوات ليحيي ضيفاً أو يبتسم لسيدة أنيقة. وصلوا إلى زاوية هادئة نسبياً حيث كانت امرأة واقفة بمفردها، تحمل كأساً من الشمبانيا.

السيدة ديانا بغدادي، امرأة في أوائل الخمسينات، لكن جمالها لا يزال آسراً. فستان فضي قصير يكشف عن ساقين ممشوقتين وظهر مشدود. شعرها البلاتيني القصير مصفف بأناقة عصرية. عيناها الخضراوات حادة، ذكية، تفحص كل شيء حولها. عظام وجهها العالية وشفتاها الممتلئتان تعطيانها مظهراً أرستقراطياً.
اقترب أوغلو منها، أشار بيده نحو شاهي وباهي وبابتسامة واسعة:
- أحب أعرّفكم ببعض...مسز شاهي... مستر باهي...مسز ديانا بغدادي... من أكبر مصممين الأزياء! طبعاً، غنية عن التعريف!
تقدم باهي بسرعة، أمسك بيد ديانا برفق، انحنى وقبّلها بأدب راقٍ:
- ديانا هانم غنية عن التعريف... وأشهر من النار على العلم بنسوار يا هانم!
أكملت شاهي ما بدأه باهي، تقدمت بحماس:
- ديانا هانم مش بس أشهر مصممة أزياء في الوطن العربي... لأ، في العالم كله!
ابتسمت ديانا ابتسامة دافئة، عيناها فحصتهما بسرعة، من رؤوسهما لأقدامهما. أعجبها ما رأت، بصوت ناعم لكن قوي:
هاي شاهندا الجميلة... وباهي الوسيم!
لكنتها مزيجاً عربية بنكهة أوروبية، انحنى باهي مرة أخرى، بابتسامة
- ده شرف كبير، ديانا هانم!
تدخلت شاهي بحماس، عيناها تلمعان:
- دي شهادة أعتز بيها من أروع وأجمل مصممة أزياء في العالم!
اقترب أوغلو من شاهي، وضع يده على كتفها برفق، بابتسامة غامضة:
- ممكن يا شاهندا هانم... آخد منك مستر باهي عشر دقائق؟
وأسيبك إنتي وديانا تتفقوا على تفاصيل الأتيليه اللي مستنيكي في مصر...وحاجات تانية كتير هتعرفيها منها.
وقفت شاهي جامدة للحظة، فمها انفتح قليلاً، نظرت له بعدم تصديق:
- أتيليه... في مصر؟! علشاني أنا؟!
رفع أوغلو يده، أشار لها بالتوقف، ابتسم ابتسامة أعرض:
- قبل ما تقولي أي حاجة وتنبهري...لسه المفاجآت في الطريق! وكله علشان الأخطبوط معجب بذكاءك! هاهاها! في صحتك... في صحة النجاح والطموح! يلا بينا يا مستر باهي... بعد إذنكم!
تقدم باهي خطوة، نظر لأوغلو بامتنان حقيقي:

- كتير جداً علينا كرمك، مستر أوغلو... ياريت تبلغ تحياتنا للأخطبوط... وخالص شكرنا لامتنانه علينا.
أمسك أوغلو بيد باهي بقوة، عصرها بحماس:
- لسه المفاجآت في انتظارك! ...تعال أعرّفك بشخصية هتفيدك جداً في شغلك في مصر!
اخترقا الحشد. شاهي وديانا بقيتا خلفهما، بدأتا حواراً حماسياً عن الموضة والأزياء.
قاد أوغلو باهي نحو الجانب الآخر من الحديقة، حيث كان رجل يقف بمفرده تقريباً، يدخن سيجاراً كوبياً ثميناً.
صبحي البنهاوي - رجل في أوائل الخمسينات، أصلع تماماً، رأسه يلمع تحت الأضواء. متوسط الطول، لكن كرشه البارز يجعله يبدو أقصر. بدلة باهظة، لكنها تبدو ضيقة قليلاً على جسده. ساعة ذهبية ثقيلة على معصمه، خاتم كبير في إصبعه. وجهه مستدير، عيناه صغيرتان لكن حادتان، ذكيتان، تفحصان كل شيء.
بجواره، كانت فتاة شابة، لا تتجاوز العشرينات، ترتدي فستاناً أحمر قصيراً جداً. شعرها الأشقر الطويل، مكياجها الثقيل. كانت تضحك بصوت عالٍ على شيء قاله. ما إن رأت أوغلو يقترب حتى توقفت عن الضحك فجأة. نظرت لصبحي نظرة سريعة، ثم ابتعدت بسرعة، اختفت في الحشد.
ابتسم أوغلو ابتسامة عارفة، اقترب من صبحي:
- أعرّفكم ببعض...مستر صبحي البنهاوي... صاحب أكبر توكيل للتوك توك وأجهزة الريسيفرات وأطباق الدش في مصر والوطن العربي!
وكمان له يد بيضا في مبادرة تقسيط أجهزة الكمبيوتر... علشان الكمبيوتر يكون في كل بيت مصري وعربي! ده غير توصيل شبكة الإنترنت... وفكرة فتح كافيهات الإنترنت اللي بتزيد يوم بعد يوم عندكم في مصر!
نظر لصبحي بإعجاب:
- وعاملة نجاح رهيب! ...مستر صبحي وجوده معانا بيمثل خطوة كبيرة في حملة الانفتاح اللي بنطبقها في مصر والشرق الأوسط!
مد باهي يده بسرعة، صافح صبحي بقوة:
- هاي صبحي بيه... تشرفت بمعرفة حضرتك!
عصر صبحي يده بقوة مماثلة، فحص باهي بسرعة، من رأسه لقدميه، ثم بصوت خشن، صوت رجل أعمال محنّك:
هاي باهي بيه!

اقترب أوغلو بينهما، وضع يداً على كتف كل واحد:
- كل اللي أقدر أقولهولك يا صبحي بيه عن مستر باهي...إنه هيكون الابن المدلل والحصان الأسود في الفترة الجاية للأخطبوط! أسيبكم تتعرفوا على بعض أكتر... وأرحب أنا بالضيوف. وهرجعلكم تاني... بعد إذنكم، خدوا راحتكم!
ظل باهي وصبحي وحدهما. صمت قصير، محمل بالتقييم المتبادل.
أخرج صبحي علبة سجائر فاخرة من جيبه، فتحها، مدها نحو باهي:
- أهلاً بيك يا باهي بيه... سيجارة؟
أخذ باهي واحدة، ابتسم ابتسامة ممتنة:
- أوه، ميرسي لذوقك، صبحي بيه.
أشعل صبحي السيجارة لباهي أولاً، ثم لنفسه. أخذ نفساً عميقاً، نفث الدخان ببطء، عيناه لم تفارق باهي:
- واضح إنك حاجة كبيرة عند الأخطبوط ...إنك تبقى الحصان الأسود... ده كلام كبير قوي! وشرف أكبر! مش أي حد يكون محل ثقة لينال الشرف ده... والأخطبوط لما يقول كده... يبقى نظرته في محلها.
أومأ باهي برأسه باحترام، أخذ نفساً من سيجارته:
- ميرسي يا صبحي بيه... وأتمنى أكون عند حسن ظن الأخطبوط.
توقف، نظر في عيني صبحي مباشرة، ابتسم:
أنا سمعت عن حضرتك كتير... وحجم المبيعات اللي حضرتك محققها...
تقريباً الدش في كل بيت دلوقتي! لؤي كلمني عن حضرتك كتير.
تجمدت ملامح صبحي للحظة عند ذكر اسم لؤي. أطفأ سيجارته في منفضة قريبة، تنهد بعمق:
- لؤي... آه.
هز رأسه بحزن مصطنع - أو ربما حقيقي:
- وقوعه كان صدمة لينا كلنا...بس أنا كنت متوقع ده... بسبب تهوره وفكره العشوائي وطموحه المحدود.
نظر لباهي بعمق:
- أنا عرفت إنك هتكون مكانه... بس بمواصفات الحصان الأسود!
بدأ يمشي ببطء، باهي مشى بجانبه:
- في خطة انفتاح مصر والشرق الأوسط والدول العربية على العالم... وخصوصاً مصر... هي أهم سوق في المنطقة!

أخذ باهي نفساً عميقاً، نظر لصبحي بجدية تامة:
- يمكن أكون مكان لؤي... بس طريقة التفكير، كلياً وجزئياً، هتكون مختلفة. أنا عمري ما هكون مجرد ديلر!
ابتسم صبحي ابتسامة عريضة، عيناه لمعتا بإعجاب:
- واضح ده من هدوءك...وواضح إنك ذكي ومش متهور!
ابتسم باهي، انحنى قليلاً باحترام:
- أشكرك... حضرتك اللي واضح إنك بيزنس مان فوق العادة!
ضحك صبحي ضحكة قصيرة، وضع يده على كتف باهي:
- تعرف إن إنت فيك حاجات كتير مختلفة عن لؤي؟ ...وبتفكرني بأيام شبابي... كنت الحصان الأسود في يوم من الأيام مكانك! ودي حاجة متزعلنيش...
رفع سبابته بحدة:
- علشان تكمل في عالم الأخطبوط... لازم تعرف حدودك إيه، ودورك في كل مرحلة هيكون إزاي! بس لازم بقي إنت تضيف لمستك!
انحنى باهي أكثر، صوته كان مليئاً بالاحترام الحقيقي:
- شرف ليا إن أكون صورة مصغرة من حضرتك.
ضحك صبحي بصوت عالٍ، ضرب على كتف باهي بقوة:
- واضح كمان إنك متواضع ومش مغرور!
اقترب أكثر من باهي، عيناه لمعتا بمكر خفض صوته لهمس:
- وعشان كده... هقولك على الجديد عندي. إحنا هنبتدي ننزل السوق المصري ريسيفرات جديدة... تفتح القنوات الجنسية المشفرة!
انفجر ضاحكاً ثم أكمل:
- هاهاهاها! خلي الناس تنبسط! لأ وإيه، بأسعار بسيطة كمان!
وجهه أصبح أكثر جدية:
- الجنس بيحسس الناس إنها مش مقهورة... نوع من أنواع الهروب من الواقع!
اقترب أكثر، همسه أصبح أكثر انخفاضاً:
- ميعرفوش إن الجنس بداية الطريق للحفرة اللي محفورة ليهم... من مخدرات ومشتقاتها! وهنا يجي دورك!
ضحك مرة أخرى:
يلا نصيّبهم كده... هما اللي اختاروا! ده غير كافيهات النت اللي هتخلي الشباب أسهل إنه يكون فريسة لينا!

ابتسم باهي ابتسامة واسعة، عيناه اشتعلتا بالحماس:
- على رأيك يا صبحي بيه، كل واحد بيختار السكة اللي هو يمشي فيها! ويلقط الطُعم، وندخل أكبر عدد من المستهدفين لعالم الأخطبوط! والشاطر هو اللي يقدر يكون ليه أكبر نسبة من التورتة... بس في مجاله! هاهاهاها!
ضحك صبحي، هز رأسه بإعجاب ضرب على ظهر باهي بقوة:
- إنت دماغ بجد يا باهي بيه! وواضح إنك جاي متأقلم على طول! وهبتدي أخاف من ذكاءك! هاهاهاها! احنا لازم نكون أصحاب... وبينا شغل!
قصدي... جزء أكبر من التورتة! هاهاها!
صافحه باهي بقوة، عيناهما التقتاباه
فجأة، صوت أغلو من خلفهما. يده الدافئة وضعت على كتف باهي بحركة ودية.
- اتأخرت عليكم؟
استدار باهي وصبحي نحوه. ابتسم صبحي ابتسامة عريضة، هز رأسه:
- لا أبداً يا مستر أوغلو... دايماً في الوقت المناسب!
وضع يده على كتف باهي بحماس:
- أنا وباهي بيه خلاص بقينا أصحاب!
ابتسم أوغلو ابتسامة راضية، نظر لباهي بإعجاب ثم التفت نحو صبحي:
- يعني ممكن آخد منك مستر باهي شوية؟ وده بعد إذنك يا صبحي بيه.
رفع صبحي يديه مستسلماً بمرح، ابتسامة عريضة على وجهه:
- مستر أوغلو، حضرتك ماتطلبش... حضرتك تؤمرني!
مد يده نحو باهي، صافحه بقوة مرة أخيرة:
- ولينا لقاء تاني في مصر أكيد... مستر باهي، تشرفت بمعرفتك!
صافحه باهي بقوة مماثلة، انحنى قليلاً باحترام:
- يا صبحي بيه، الشرف لينا!
ابتعد صبحي خطوة، لوّح بيده لهما، ابتسامة شيطانية ظهرت على وجهه:
- أسيبكم على راحتكم...ليلتكم جميلة!
استدار ومشى بخطوات واثقة نحو الفتاة الشقراء التي كانت تقف معه سابقاً. كانت تنتظره عند البار، كأس في يدها، ابتسامة واسعة على وجهها. ما إن وصل إليها حتى وضع يده على خصرها بحركة مألوفة، همس شيئاً في أذنها جعلها تضحك بصوت عالٍ.

ظل أوغلو وباهي وحدهما. استدار أوغلو نحو باهي، فحص وجهه بعناية. رأى البريق في عينيه، الابتسامة التي لم تفارق شفتيه.
ابتسم أوغلو ابتسامة عارفة، راضية وضع يده على كتف باهي، بدأ يقوده عبر الحشد:
أوغلو: واضح إنك مبسوط.... صبحي البنهاوي مش بيعجب بأي حد... ومش بيقول أصحاب بسهولة. أنت كده عديت الاختبار الأول!
تنهد باهي بارتياح لم يكن يعلم أنه يحتاجه. ابتسم ابتسامة ممتنة:
باهي: سعيد برضاك عنى مستر أوغلو... الحفلة فوق الخيال.
ربت أوغلو على كتفه بقوة:
- ولسه! لسه ما شفتش حاجة! تعال يلا... نجيب شاهندا. علشان أعرّفكم بباقي الشخصيات المهمة في مجال شغلكم!
أومأ باهي برأسه بحماس، عيناه تلمعان بالترقب:
- أوكيه... يلا بينا!
مشيا معاً عبر الحشد، أوغلو يشق الطريق بثقة، والضيوف يبتعدون له باحترام واضح. باهي يمشي بجواره بثقة، عيناه تتنقل بين الوجوه الأنيقة، الفساتين الفاخرة، المجوهرات التي تلمع تحت الأضواء.
كان يشعر بشيء يتصاعد في صدره مزيج من الإثارة والطموح والخوف الخفي. كان يدخل عالماً جديداً تماماً، عالم الأخطبوط، عالم لا رجعة منه.
لكنه لم يتردد. خطواته كانت واثقة، ظهره مفروداً، ذقنه مرفوعاً.
توجه أوغلو وباهي عبر الحشد نحو الزاوية حيث كانت شاهي وديانا لا تزالان واقفتين. أصوات ضحكاتهما المرتفعة تصل قبل أن يصلا إليهما ضحكات نسائية متحررة، حميمة، كأنهما صديقتان منذ سنوات وليس دقائق. شاهي تمسك بذراع ديانا، تنحني نحوها وهي تهمس شيئاً يجعل ديانا تضحك بصوت أعلى، تغطي فمها بيدها بأناقة، عيناها تلمعان بالدموع من شدة الضحك. اقترب أوغلو منهما، ابتسامة راضية على وجهه. قاطعهما بأدب:
- ديانا هانم... ممكن أخطف منك برنسس حفلتنا؟
توقف، نظر لشاهي بإعجاب واضح:
- علشان فيه ناس هتتجنن وتتعرف عليها.
استدارت ديانا نحوه، ابتسامة عريضة لا تزال على وجهها. نظرت لشاهي نظرة أخيرة عيناها تحمل شيئاً خفياً، ثم لأوغلو:

- مستر أوغلو... ليك أعيوني لو تطلب! أنا مقدرش أتأخر عن مطلب جماهيري زي ده...مع إن الوقت مع شاهي فات بسرعة.
أمسكت شاهي بيد ديانا بحرارة، عيناها لمعتا بسعادة غامرة:
- بجد... أنا مش عارفة أقول إيه! كلامك كده كتير عليا! فعلاً أنتِ ملكة الحفلة دي!
ابتسم أوغلو ابتسامة عريضة، ابتسامة رجل يرى خطته تسير بالضبط كما أراد. اطمأن قلبه، استرخت عضلات وجهه:
- طب يلا... علشان منتأخرش على ضيوفنا، يا شاهي هانم...
توقف، نظر لها بعمق:
- جميل اسم شاهي.
وقف باهي بجوارهم، لا يزال منبهراً من لقائه مع صبحي. عقله يعمل بسرعة، صبحي البنهاوي، رجل أعمال بهذا الحجم، يعرض عليه الصداقة والشراكة. ديانا بغدادي، أشهر مصممة أزياء في المنطقة، تقدم لشاهي أتيليه كامل في مصر. من سيكون التالي؟ لم يستطع كبح فضوله. استدار نحو أوغلو، عيناه متسعتان:
- هاموت وأعرف إحنا هنقابل مين!
ضحك أوغلو ضحكة قصيرة، شعر بشغف باهي الواضح، حماسه الذي لا يخفى. وضع يده على كتفه:
- دلوقتي هتعرف...وبلاش سيرة الموت! إحنا لسه الحياة قدامنا جميلة! ولازم نعيش كل ثانية من حياتنا... ونستمتع بيها!
استدار فجأة نحو شاهي، ابتسامة واسعة على وجهه:
- ولا إيه يا شاهي هانم... يا برنسس حفلتنا؟
كان لازال عقلها متعلق بحديثها مع ديانا، نظرت له بامتنان حقيقي:
- كلام حضرتك يا مستر أوغلو... مش محتاج تعقيب عليه! كلام حضرتك طريق لازم الكل يمشي عليه.
توقف أوغلو في مكانه، نظر لها بعمق. صمت للحظة، ثم ابتسم ابتسامة
- كل ما مدى... بيزيد إعجابي بذكاءك ده! ده بالإضافة لإعجابي بجمالك طبعاً!
أشار أوغلو بيده نحو الجانب الآخر من الحديقة. هناك، جالساً على أريكة جلدية فاخرة تحت شجرة ضخمة، كان رجل في أوائل السبعينات.
وديع إلياس شعره البني الناعم مصفف بعناية رغم تقدم عمره، لكن الترهلات واضحة حول وجهه وعنقه. وجهه أحمر قانٍ، حمرة الغنى والرفاهية والشراب. طويل القامة، جسده ممتلئ لكن بطريقة توحي بالراحة والنعيم لا الإهمال.

يمسك سيجاراً كوبياً ثميناً بين أصابعه، يستنشق دخانه ببراعة واحترافية حركات رجل تعود على أفضل الأشياء لعقود.
ما إن رأى أوغلو يقترب حتى وقف ببطء، حركة رجل يحمل ثقل السنين لكنه يحافظ على هيبته. ابتسامة دافئة ارتسمت على وجهه المترهل:
اقترب أوغلو بسرعة، ذراعاه مفتوحتان:
- ها هو رجل الميديا الأول في الوطن العربي!
وقف بجوار وديع، وضع يده على كتفه بحميمية:
- أحب أعرّفكم ببعض...مستر وديع إلياس، رئيس مجموعة قنوات ستالايت!
صوته ارتفع بفخر:
- أول مجموعة قنوات عربية مشفّرة... واللي أبهرت الناس لسنين كتير!
طبعاً، غني عن التعريف... وأسطورة نجاح في عالم الميديا!
استدار نحو شاهي وباهي:
- ودول بقي يا مستر وديع... شاهي وباهي اللي كلمتك عنهم!
تقدمت شاهي بسرعة، مدت يدها نحو وديع، ابتسامة ساحرة على وجهها:
- هاي مستر وديع... فرصة اننا نقابل حضرتك!
أمسك وديع بيدها برفق، قبّلها بأدب رجل من الطراز القديم. عيناه فحصتها بإعجاب، ابتسم ابتسامة عريضة، بصوت خشن لكن دافئ:
- هاي مس شاهي... وردة الحفلة الليلة!
استدار نحو باهي، مد يده بحماس:
- هاي مستر باهي!
صافحه بقوة مفاجئة لرجل في عمره:
- أنا سعيد بمعرفتك... ومستعد بعد اللي اتحكالي عنك...إني أراهن إنك مع شاهي، وردة الحفلة، إنكم تكونوا فعلاً الحصان الأسود في السباق! زي ما وصفكم الأخطبوط!
قاطعهم أوغلو فجأة، غير مكترث تماماً بوجود باهي، نظر لوديع مباشرة:
- مش قلتلك؟ أول ما هتشوفها هتتجنن!
توقف، أدرك ما قاله، صحح نفسه بسرعة:
- قصدي... هتتجنن من بُعد نظر الأخطبوط!
ضحك وديع ضحكة قصيرة، أومأ برأسه موافقاً:
- طبعاً... هو حد يقدر يقول حاجة بعد الأخطبوط؟

نظر أوغلو لوديع نظرة طويلة، عميقة، نظرة يفهم معناها الاثنان فقط. رسالة صامتة تمر بينهما. أومأ وديع برأسه بحركة خفية. استدار أوغلو نحو شاهي وباهي:
- طب هسيبكم مع بعض خمس دقايق... وأراجع تاني. خدوا راحتكم!
التفت وديع نحو أوغلو، ابتسامة واسعة على وجهه، ابتسامة رجل فهم المهمة:
- ضيوفك هما ضيوفي، مستر أوغلو!
ابتعد أوغلو، اختفى في الحشد. فقط الثلاثة وحدهم. تقدم باهي بسرعة، قرر كسر الصمت، إظهار امتنانه:
- مجموعة قنواتك مكسرة الدنيا يا مستر وديع! وبالذات قناة الكواكب!
أكملت شاهي ما بدأه باهي بحماس، عيناها تلمعان:
- فعلاً! فكرة إن القناة تعرض الأفلام العربية اللى فيها مشاهد للكبار فقط، **Un-cut**... جريئة! ولقيت إقبال جماهيري كبير جداً!
اتسعت عينا وديع قليلاً، اندهش من جرأتها ومعرفتها التفصيلية:
- واو! شاهي هانم... واضح إنك متابعة قناة الكواكب بشكل كبير!
أومأت شاهي برأسها بحماس:
- طبعاً! العالم كله في عصر انفتاح على عالم الإنترنت والميديا!
ومجموعة قنوات حضرتك... نقلة في عالم الميديا في المنطقة!
فجأة، من خلف وديع، ظهر رجل آخر. في منتصف الأربعينات، وسيم بشكل لافت. عادل غيضان، شعر أسود ناعم يميل للبني الداكن، مصفف بعناية فائقة. شارب ولحية مهذبان بشكل أنيق، كل شعرة في مكانها. طويل، ممشوق القوام، يتحرك برشاقة رجل يعرف جاذبيته. بدلة سوداء فاخرة، قميص رمادي بلا ربطة عنق، ساعة ذهبية على معصمه.
أرسله أوغلو تحسباً لمهاترات وديع التي يخشاها بحكم تقدمه في العمر وتأثير الكحول عليه.
اقترب بخطوات واثقة، اقتحم الحديث بابتسامة ودية:
- مش تعرّفنا بضيوفك يا وديع بيه؟
استدار وديع نحوه، عيناه أضاءت:
- أوه... عادل بيه!
أشار بيده بين الجميع:
- أعرّفكم ببعض... مسز شاهي ومستر باهي اللي الحفلة دي معمولة علشانهم!
استدار نحو عادل:

- عادل بيه غيضان... صاحب مجموعة قنوات **J.B.C** اللي عاملة نسب مشاهدة خيالية للمسلسلات الدرامية التركية!
ابتسم عادل ابتسامة متواضعة، انحنى قليلاً:
- يا وديع بيه... كتير علينا الكلام ده! إحنا تلاميذ حضرتك... وبنتعلم منك!
تقدم باهي بسرعة، إعجابه واضح على وجهه، صافحه بحماس:
-أهلاً مستر عادل! أهنيك على نجاح المجموعة... وعلى اختيارك للمسلسلات! اختيار فعلاً في محله! المسلسلات نقشت مناطق في حياة الناس كان مسكوت عنها... وحركت غرائز جواهم كانت مكبوتة...
نظر نحو شاهي بحركة خفيفة:
- وخصوصاً عند الجنس اللطيف!
تدخلت شاهي بسرعة، عيناها تلمعان:
- هاي مستر عادل! فعلاً، اختيارك للمسلسلات غيّر مسار الدراما في الوطن العربي! وخصوصاً مسلسل أعشقها... ومسلسل العشق المستحيل... ومسلسل ميرفت! لأ ده في كتير! فعلاً كلها أعمال في الصميم... مواضيع جريئة وحساسة!
ابتسم عادل ابتسامة ممتنة، لكن قبل أن يرد، رفع وديع كأسه في الهواء:
-أهلا بيكم ى عالم الأخطبوط
أخذ رشفة طويلة، ثم أكمل بصوت أصبح أكثر جدية نظر لهم جميعاً:
- المواضيع كلها كانت من اختيار الأخطبوط... ومدروسة بشكل كبير!
مفيش نجاح بالصدفة! ...إحنا كلنا ماشيين بتوجيهات الأخطبوط!
في صحة الأخطبوط!
أشار لهم بكأسه. أمسك باهي وشاهي بكأسيهما بسرعة، رفعاهما:
في صحة الأخطبوط!
في صحة الأخطبوط الكبير قوي قوي!
رفع وديع كأسه هو الآخر، جسده بدأ يترنح قليلاً من كثرة تناول الخمور:
- في صحة الأخطبوط... والمستقبل اللي في انتظاركم!
نظر لشاهي وباهي بعمق:
- الإنترنت ودمجه مع الميديا ...زمانكم إنتوا!
فجأة، توقف وديع. عيناه أصبحت ضبابية قليلاً، لكن نظرته كانت حادة، ذكية.
استدار نحو عادل:

- أنا سكرت ولا إيه؟ تعرف يا عادل بيه... إن الدراما التركية تأثيرها على الناس نفس تأثير المخدرات عليهم؟

اقترب من عادل، عيناه اشتعلتا:

- عادات وتقاليد شعوب بتنقلها لشعوب عندها عادات وتقاليد مختلفة خالص! ونرجع نقول للشعب قرر !حياتك الزوجية والأسرية هتمشي إزاي؟ طب يقرر إزاي؟! إذا كان الراجل الشرقي طول النهار في الشغل بيدور على لقمة العيش؟! والست في المجتمع الشرقي دورها كله في البيت ...مقفول عليها صندوق؟! ونقول رومانسية؟!

هز رأسه بعنف:

- بالعكس! اللي بيحصل إن الست بتدور في جوزها على البطل الجان...

اللي جسمه متقسم في الجيم... وشعر ناعم... وكل لبسه كجوال! بتدور على البطل ...لكن بتلاقي فحل بصل! ريحة عرقه وهو راجع من الشغل زى ريحة البصلة المدشوشة زى ما بيقول المصريين

استدار نحو الرجال:

- أما الراجل بيدور على الست الكيوت السكسي ...اللي كل يوم قميص نوم شكل، وبيرفيم رائحته غير اللي قبله! لكن بيلاقي كأن جوز أمه نايم جنبه آخر الليل!

بدأ عادل يشعر بالحرج، يتململ في مكانه. لكن وديع لم يتوقف، الكحول حرر لسانه تماماً عيناه اتسعت:

- ده غير فكرة ترسيخ الحب بين المحارم! الواد يحب خالته ...وبينهم علاقة جنسية! والبنت تحب جوز أمها! وغيرها وغيرها من الأفكار الشيطانية! وده كله بينعكس على الناس بالسلب مش بالإيجاب!

رفع سبابته بحدة:

- يعني لما تجيب ممثل أفلام إباحية ...وتنتج له مسلسل تبيّن فيه مدى رومانسيته وحنيته على حبيبته؟ تلاقي بنات وستات العرب هيموتوا عليه! وواخدينه مثل أعلى للجان اللي بيحلموا بيه!

على الرغم من إنه في الحقيقة إنسان باع نفسه ...ومثّل بورنو علشان الفلوس! يبقى العيب في مين؟! في الدراما التركية هتلاقي ستات أجمل وأشيك ما يكون... ولبس متحرر ...وطريقة كلامهم سكسي! وده اللي الرجالة بتدور عليه! وفي الدراما التركية رجالة رومانسية لأعلى درجة... وده اللي الستات بتدور عليه!

صفق بيديه بقوة:

- هنا تكون بداية المشاكل بين الراجل ومراته!

كل واحد بيشوف إنه مظلوم **...**علشان مستحمل التاني بكل عيوبه... ومش شايف عيوب نفسه**!** وإنه أو إنها لو كان وقع في طريقه بطلة مسلسل تركي... أو إنها وقعت في طريق ممثل مسلسلات تركي**...** كان حالهم اتغير للأحسن**!** هوب **!**بيوت تتخرب**!** تدهور إجتماعى وندخل على المرحلة اللى بعدها، أدمان، قتل، سرقة...
فجأة، توقف. نظر لنفسه كأنه يتذكر شيئاً. صوته أصبح دفاعياً**:**
طب أنا... كان دوري أرفّه عن الناس**!**
يعني فيلم فيه لقطة كده ولا كده... بس في الآخر هو فيلم عربي **Un-cut**!
أنا مجرد عرضته بس**!**، حاجة كده يمكن ستخن الدنيا شوية بين المتجوزين وتحمسهم للسرير.
نظر لهم جميعاً، عيناه تطلب الموافقة**:**
مش صح كلامي **...**ها؟**!**
وقف عادل في مكانه، وجهه محمر من الإحراج والغضب المكبوت. حاول الابتسام لكن ابتسامته كانت متوترة، نظر له بقلق**:**
- طبعاً، طبعاً يا وديع بيه**...** بس واضح إنك فعلاً تقلت في الشرب**!**
شعرت شاهي بالتوتر الواضح، قررت تلطيف الأجواء. ابتسمت ابتسامة عريضة**:**
- بس الواد بجد سكسي قوي**!** والستات والبنات هتموت عليه فعلاً**!**
تدخل باهي بسرعة، بدبلوماسية محكمة، لا يريد إغضاب أي من الرجلين**:**
- شاهي تقصد إنه اختيار في محله **...**في التوقيت المظبوط**!**
نظر لعادل**:**
- طالما عجب الناس وحقق نسب مشاهدة عالية**!**
استدار نحو وديع ابتسم ابتسامة دبلوماسية**:**
- ووديع بيه بيدور على مصلحتك من زاوية هو شايفها... من خلال خبرته الجبارة في مجال الميديا**!** وأكيد بيتمنالك النجاح المستمر**!**
وكل واحد له نجاحه... ونجاح عادل بيه في اختياره لمواضيع المسلسلات **...**نجاح للمجموعة كلها!
أشاح وديع بيده، رافضاً دبلوماسية باهي. انشغل بشرب الخمر، ابتعد عنهم قليلاً، دخل في عالمه الخاص**.**
ابتسم عادل ابتسامة مصطنعة، توضح أنه يشعر بمحاولة شاهي وباهي تلطيف الأجواء لكنه لا يزال محرجاً وغاضباً**:**

- شكراً ليكم على محاولة تحسين الصورة...بس أنا خدت على كده من مستر وديع، أستأذنكم... بعد إذنك مس شاهي، بعد إذنك مستر باهي.
أكيد لينا كلام مع بعض كتير... وأتمنى ليكم النجاح في عالم الأخطبوط!
ونصيحة مني قبل ما أمشي... اللي هينفع يكمل في عالم الأخطبوط... هو اللي عنده جديد على طول الخط!
نظر نحو وديع بطرف عينه:
- مش خلاص خرج بره الحلبة... زي وديع إلياس! ومتزعلوش من كلامه... هو عارف إن دوره خلاص بينتهي... وبقي زي خيل الحكومة ...قرّب يضرب بالنار! هاهاهاها! ليلتكم سعيدة!
استدار عادل وبخطوات سريعة، اختفى في الحشد. وجهه كان محمراً، فكه مشدوداً، توجه وديع نحو البار، يبحث عن المزيد من الخمر، تركهم دون أن يقول أي شيء، كأنه نسي وجودهم تماماً، غارق في عالمه الخاص المرير، بقي شاهي وباهي وحدهما. صمت ثقيل ملأ المكان. نظرا لبعضهما، أخذ باهي نفساً عميقاً، هز رأسه بتعجب بذهول الحقيقي:
- ياه يا شاهي... إيه العالم ده؟!
نظرت له شاهي، عيناها تحمل مزيجاً من التعجب والانبهار والسعادة:
- كل ده بيحصل حوالينا ...وإحنا مش حاسين؟! لأ وإيه... فكرنا نفسنا عباقرة علشان هنعمل موقع إباحي؟!
ضحك باهي ضحكة قصيرة، وضع يديه في جيوبه:
- إحنا فعلاً عباقرة!
نظر حوله على الحفلة، الشخصيات الكبيرة ابتسم ابتسامة مرحة:
- والدليل كل اللي إنتِ شايفاه ده! إنتِ مش شايفاهم منبهرين بينا إزاي؟!
قصدي ...بجمال حضرتك! وبيقولوا علينا الحصان الأسود!
ابتسمت شاهي ابتسامة شيطانية، اقتربت منه، وضعت إصبعها على صدره، ضغطت بإصبعها:
لأ يا حبيبي... أنا بحب أبقى الفارس! إنت بقي حصان ...إنت حر !هاهاهاها!
ضحكا معاً، ضحكة حقيقية، متحررة.
ثم فجأة، توقفت شاهي عن الضحك. وجهها أصبح أكثر جدية، لكن ابتسامة خفيفة لا تزال على شفتيها، عيناها لمعت بمكر، خفضت صوتها لهمس:

- وبمناسبة الانبهار ...ابسط يا عم! ديانا معجبة بيك ...وبعيونك الزرقا، وأناقتك، وشياكتك! وكانت بتهزر معايا... وتقولي :تسلفيني باهي الليلة؟
توقفت، راقبت رد فعله:
- طبعاً أنا أقنعتها إنك هدية منها ليها الليلة! وطبعاً هي مكنتش مصدقة إني ممكن أكون **Open Mind** كده!
اقتربت أكثر، همست في أذنه:
- بس أكدتلها إني متنازلة عنك ليها... بس! وهي مستنياك تروح معاها آخر الحفلة! ماشي يا جميلة؟ إنتِ! ياختي على عيونك الزرقا دي اللي تخدع أي ست... وتخليها تطب ساكتة!
وقف باهي جامداً للحظة، ثم ابتسم ابتسامة واسعة، ابتسامة ممزوجة بالفخر والسخرية من نفسه:
- بقي كده بعتيني ليها كده على طول؟ علشان الأتيليه؟
أومأت شاهي برأسها بثقة:
- إحنا قلنا إيه؟ البيزنس فوق كل شيء!
هز باهي رأسه موافقاً، ابتسامته اتسعت:
- على رأيكِ... البيزنس فوق كل شيء! ويا ترى إنتِ هتروحي مع مين؟
وضعت شاهي يدها على ذقنها، تظاهرت بالتفكير:
- تصدق؟ لسه مقررتش! بس شكلي كده... بنسبة كبيرة أوغلو! ولا إنت شايف إيه؟
لم يرد باهي. عيناه كانت مركزة على شيء آخر، شخص آخر. حدق بعيداً، حاجباه تقاربا:
- أنا شايف واحد واقف هناك ...عمال يبص عليا.
توقف، عيناه ضاقت:
- حاسس إني شوفته قبل كده!
استدارت شاهي بسرعة، نظرت في الاتجاه الذي يشير إليه. عيناها اتسعت فجأة:
- فين ده؟!
توقفت، فمها انفتح قليلاً، صوتها ارتفع بإثارة:
- استنى كده... ده شادي مكين! المخرج المعروف!
فجأة، انفجر وجهه، تذكر! ضرب بيده على جبهته، عيناه لمعتا بالتذكر:
مخرج؟! آه! افتكرته! أنا نمت معاه قبل كده... وإحنا في رحلة في قبرص!
كان زميل لؤي ...عملنا حفلة ثلاثية روعة!

ضحك ضحكة قصيرة:
- تصدقي؟ اسمه شادي فعلاً ...افتكرت!
عقدت شاهي حاجبيها من الدهشة الممزوجة بالإثارة. ابتسامة شيطانية بدأت تتكون على وجهها:
- شادي مكينGay ...؟!
ضحكت ضحكة قصيرة مذهولة، نظرت لباهي بفضول:
- عجبت لك يا زمن! ويا ترى بقي ...سالب ولا موجب؟ هاهاهاها!
أجاب باهي بصراحة تامة، بلا حرج:
- سالب ...وبالثلث كمان!
اتسعت عينا شاهي أكثر، ابتسامتها ابتسامة امرأة وجدت ما تبحث عنه:
- كمان؟! يبقى أنا كده لقيت عجلتى الليلة!
نظر لها باهي باستغراب، لم يفهم:
- يعني إيه؟
لم ترد بالكلام. أمسكت يده بقوة، بدأت تسحبه نحو حيث يقف شادي:
- تعال بس معايا... وإنت تعرف! إنك معاك تعلب مكار ...مش أي كلام!
ابتسمت ابتسامة شيطانية واسعة:
- شادي بتاعي الليلة! منها متعة في الجنس مع سالب... ومنها اختبار لقدراتي كأنثى في نصب فخ!
ضحكت ضحكة عالية، متحررة:
- هاهاهاها! تعال واتعلم!
توجهت شاهي بثقة مطلقة، تسحب باهي خلفها، نحو شادي مكين، باهي تبعها، ابتسامة مسلية على وجهه، يراقب صديقته، شريكته، تعلبته المكارة، وهي تخطط لصيدها التالي. الموسيقى تعلو، الأضواء تخفت قليلاً، والحفلة تستمر. عالم الأخطبوط يفتح ذراعيه لهما، عالم بلا حدود، بلا قواعد، بلا أخلاق. عالم حيث كل شيء مباح. وهما كانا جاهزين تماماً.
شادي مكين. شاب في أوائل الثلاثينات، نحيف، متوسط الطول. شعره بني كبير، خصلاته مجعدة بكثافة، تشبه تسريحات لاعبي كرة القدم في السبعينات، يرتدي قميصاً أبيض مفتوح الأزرار من الأعلى، تتدلى على صدره العاري دلاية ذهبية ضخمة، قطعة ذهبية على شكل حشرة، غريبة، لافتة للنظر. يقف وحيداً، يحمل كأساً، عيناه

تتنقل بين الضيوف بملل واضح. اقتربت شاهي منه بثقة، ابتسامة واسعة على وجهها. وقفت أمامه مباشرة، مدت يدها:
- هاي مستر شادي!
صافحته بحرارة، عيناها لم تفارق عينيه، اقتربت خطوة، صوتها أصبح أكثر حماساً:
- أنا معجبة جداً بأفلامك! وخصوصاً فيلمك الأخير عن تحرر المرأة في المجتمع الشرقي... فيلم شفايف باللون الأحمر!
أشارت بيدها نحو باهي:
- أعرّفك بنفسي... شاهندا فايز، وده باهي العسال.
نظر شادي لباهي مباشرة، نظرة طويلة، عميقة، محملة بالإعجاب والذكريات. لم يكن يتوقع هذا اللقاء، ولم يكن يتوقع أن شاهي تعرف أي شيء عما حدث بينهما.
ابتسم ابتسامة عريضة، عيناه لمعتا:
- هاي! أهلاً بيكي! طبعاً عارف باهي... اتقابلنا قبل كده في قبرص!
ابتسامته اتسعت، نظرته أصبحت أكثر حميمية:
- كانت رحلة جميلة!
صافح باهي بحرارة، يده ظلت ممسكة بيد باهي لثوانٍ أطول من اللازم.
- أهلاً باهي!
وجهه أصبح أكثر جدية فجأة، صوته انخفض:
أنا آسف جداً على اللي حصل للؤي...متعرفش أنا زعلت علشانه قد إيه!
تجهم وجه باهي فوراً عند ذكر اسم لؤي. عضلات فكه شُدت، عيناه أصبحت أكثر برودة بصوت مخنوق:
- هاي شادي...**Never mind**... لؤي هيطلع قريب.
شعر شادي بالضيق الواضح على وجه باهي، حاول تخفيف الأجواء:
- أنا واثق من كده!
توقف، ثم سأل بنبرة أكثر حميمية، بلا تفكير:
- للدرجة دي كنت بتحبه؟
تجمد باهي وشاهي في مكانهما. نظرا لبعضهما البعض باندهاش، السؤال كان جريئاً بشكل صادم، مباشراً، يكشف الكثير. أدرك شادي خطأه فوراً. عيناه اتسعتا، حاول إصلاح الموقف بسرعة:
- قصدي... يعني شكلكم كنتوا أصدقاء قوي!

صوته كان متوتراً، مصطنعاً. تدخلت شاهي بسرعة، ابتسامة عريضة على وجهها، قررت تغيير الموضوع تماماً، اقتربت منه أكثر، عيناها لمعتا:
- طب بما إن في سابق معرفة قبل كده...تعرف يا شادي... أنا عندي فكرة فيلم جامدة جداً ليك!
اتسعت عينا شادي، فضوله أُثير فوراً:
- بجد؟! إيه هي؟
شعر باهي أنه بذلك ربط بين شاهي وشادي بنجاح، حان الوقت لتركهما معاً. تقدم خطوة:
- طب أستأذن أنا... علشان فيه موضوع مهم هكلم فيه مستر أوغلو.
انحنى نحو شاهي، همس في أذنها بصوت لا يكاد يُسمع:
- فهمتك يا متوحشة!
ابتعد، لوّح لهما، اختفى في الحشد. شعر شادي بالضيق لانصراف باهي عنه، كان يأمل في قضاء وقت معه، استعادة بعض الذكريات. لكنه حاول ألا يُظهر ذلك.
استدار نحو شاهي، حاول التركيز:
- ها... مقلتيش فيلم إيه؟
اقتربت شاهي منه أكثر، خفضت صوتها لهمس حميم:
- فيلم بيتكلم عن السادية...
توقفت، راقبت رد فعله:
- محدش اتكلم عن الفكرة دي خالص!
انتبه شادي فوراً لجرأتها. كلمة السادية رنّت في أذنيه، أثارت شيئاً بداخله. نظر لها بإعجاب واضح:
- واو! ...السادية... مش فكرة غريبة وجريئة شوية؟
ابتسمت شاهي ابتسامة شيطانية، عيناها اشتعلتا:
- أصل أنا بحبها موت!
اقتربت أكثر، صوتها أصبح أكثر انخفاضاً:
- وخصوصاً مع الرجالة!
لمست ذراعه برفق، نظرت في عينيه مباشرة:
- حاجة كده ملهاش وصف... لازم تتجرّب علشان تحس بمتعتها!
ولا إنت رأيك إيه؟
تجمد شادي صامتاً للحظة، فمه انفتح قليلاً من الصدمة. ثم ابتسم ابتسامة معجبة:

- تسمحيلي... إنتي جريئة قوي!
نظر لها من رأسها لقدميها:
- مع إنك في نفس الوقت جميلة قوي! والجمال بيزود قوة فوق القوة...وجرأتك بتدل على مدى قوتك دي! باين عليكِ شرسة قوى.
توقف، استنشق بعمق:
- وكمان نوع البيرفيوم اللي إنتِ حطاه... قوي جداً!
ضحكت شاهي ضحكة ناعمة، لمست شعرها بحركة أنثوية مدروسة:
- بس أنا كده هتغر! وأقولك إني كده بقيت بطلة فيلمك الجاي!
ضحك شادي، عيناه لمعتا بالإعجاب:
شادي: وليه لأ؟ ده يتوقف على فكرة إنك تقبلي دعوتي نشرب كاس مع بعض ى أوضتى في الفندق، هناك هدوء...ونناقش بشكل أوسع... إزاي فكرة السادية ممكن تتقدم في السينما!
ابتسمت شاهي ابتسامة عريضة، عيناها تلمعان بالنصر، نظرت له بمعنى:
- أوكيه... وأنا قبلت الدعوة! بس أهم حاجة... نناقش بشكل أوسع! هاهاها!
فجأة، صوت أوغلو من خلفهما:
- مس شاهي... ضحكتك مالية الحفلة سعادة وسرور! يا ريت تفضل ضحكتك كده على طول!
نظر لشادي باعتذار:
- ممكن آخد منك مس شاهي لحظة؟
استدارت نحو شادي:
- معلش يا شادي... بعد إذنك.
انحنى شادي باحترام، ابتسامة مهذبة على وجهه، لكن عيناه كانت محبطة:
- اتفضل معاليك... إحنا كلنا ضيوفك! بعد إذنكم.
نظر لشاهي نظرة أخيرة، استدار، ابتعد نحو البار. ما إن ابتعد شادي حتى ظهر باهي من الجانب الآخر، كأنه كان ينتظر. اقترب من شاهي وأوغلو، هدوءه المعهود على وجهه. نظر أوغلو لهما بجدية تامة، صوته انخفض:
- شاهي هانم... مستر باهي...
توقف، نظر حوله بحذر، تأكد أن ليس هناك أحد قريب:
- من فضلكم... اسمعوني كويس. الأخطبوط عمل شوية تعديلات كده في الخطة...حسب متطلبات المرحلة الجاية... وطفرة عصر الإنترنت.

شعر باهي بالخوف فوراً من مقدمة أوغلو. قاطعه بسرعة، صوته متوتراً:
- أهم حاجة... إحنا لينا دور في الخطة ولا...؟
لم يُكمل جملته. قاطعته شاهي بسرعة، نظرت له نظرة حادة، تنبهه لاضطرابه الواضح:
- أحب أفهم أكتر، مستر أوغلو.
صوتها كان هادئاً، واثقاً. نظر لها أوغلو بإعجاب واضح، ابتسم:
- هو ده الكلام! بصوا بقي... وركّزوا معايا قوي في اللي هقوله! بالنسبة للجريدة... الأخطبوط معجب جدا بالفكرة! اعتبروا إن ترخيص الجريدة موجود معاكم! الأخطبوط قرر إن الترخيص يكون من أوروبا، وده هيخلي للجريدة حصانة بشكل أكبر! وهنمدكم بأخبار وصور لفضايح شخصيات فنية وشخصيات عامة...
صوته أصبح أكثر حدة:
- يهمنا نفضحهم وندمرهم... أو نشهرهم أكتر!
توقف، أخذ نفساً عميقاً:
- وبالنسبة للموقع الإباحي... الفكرة قوية! لكن لازم تتنفذ على مراحل! المرحلة الأولى... هتكون موقع بيمهد للموقع ده!
شعر باهي بالراحة النفسية لكلام أوغلو. ابتسم، انحنى قليلاً:
- طلبات الأخطبوط... أوامر!
قالت شاهي وهي في قمة السعادة، لقد أصبح لها دور مهم حقيقي في الخطة:
- عيوني وحياتي للأخطبوط!
نظرت لأوغلو بامتنان:
- وليك مستر أوغلو!
ابتسم أوغلو ابتسامة راضية، بدأ يشرح:
- الأخطبوط عايز موقع للأفلام الممنوعة من العرض...على شاشة السينما والتليفزيون والفيديو!
نظرت له شاهي باستغراب:
- أفلام... غير أفلام البورنو؟
فهم باهي فوراً، عيناه اتسعتا من الدهشة:
- آه! أفلام من نوعية أفلام قناة الكواكب! على شبكة قنوات ستالايت... مجموعة قنوات مستر وديع!
صفق أوغلو بيديه بقوة، ابتسم ابتسامة عريضة:

- بالظبط كده! هي دي الفكرة! جميع أفلام مجموعة مستر وديع... هتكون عندك أول ما ترجع مصر! عايزينها تنتشر بين الشباب والناس كلها! لازم الكل يعرف فنانينهم الكبار... تاريخهم الفني كان عامل إزاي! وكمان منها برضه ثقافة للشباب أصحاب النفوس الضعيفة!

ابتسم ابتسامة شيطانية:

- وطبعاً فيهم اللي بيدور على قدوة... والفنانين دي ممكن تكون قدوتهم! هما دول اللي عايزين نسحبهم لعالم الجنس والمخدرات! حاجة متخرّش الميه! هاهاهاها!

تذكر باهي فجأة كلام عادل. نظر لأوغلو بفضول:

- يبقى كده يا مستر أوغلو...كلام عادل عن وديع كان مظبوط... لما قال إن البساط ابتدى يتسحب من تحت رجليه؟

هز أوغلو رأسه بقوة، رفع يده رافضاً:

- طبعاً الكلام ده مش صحيح! إحنا بنفكر دايماً بطريقة مختلفة... علشان كده إحنا ناجحين! مفيش حد معانا ملوش دور! طالما دخل عالم الأخطبوط... يبقى شخص مهم ومهم جداً! لكن الموضوع ببساطة... إن كل واحد بياخد دور على قد نجاحه! واللي مخه بيقف في مرحلة من المراحل... إحنا بنفكر له! بس ساعتها بياخد دور على قد تفكيره!

نظر باتجاه حيث اختفى وديع:

- ومستر وديع... خلاص مرحلة القنوات المشفرة دي انتهت! وجابت مكاسب رهيبة غير متوقعة... ووديع خد من المكاسب دي كتير! بس... خلاص! دلوقتي بقي فيه زمن عادل غيضان والدراما التركية الممنهجة...لخلخلة الأسرة العربية... والنتيجة: مدمنين جدد!

بدأ يعدّ على أصابعه:

- وزمن صبحي البنهاوي... وفتح القنوات الإباحية على القمر هوت بيرد والقمر سايرس! لمدة سنة مجاناً على الريسيفرات الجديدة ببلاش!

ضحك ضحكة قصيرة:

- والجنس نهايته... مخدرات! وكمان هيبقى زمن موقع الأفلام العربية الممنوعة من العرض! أفلام للكبار فقط!

ضحك ضحكة ساخرة:

- قال يعني لما يكتب للكبار فقط... الصغار مش هتتفرج! هاهاهاها!

وقف أمامهما، نظر في عيونهما بجدية تامة:
- هو ده عالم الأخطبوط! الثقافة الجنسية والمخدرات... لكل الفئات وكل الأعمار! رجالة وستات! خلي الناس تنبسط شوية... وده هيخليهم يدوروا على الانبساط بشكل أكبر في المخدرات! والأفلام دي... هي اللي هتوجههم ليها ببساطة وشياكة!
صمت للحظة، ثم سأل:
- فهمتوا بقي التعديل في الخطة... ماشي إزاي؟
أومأت شاهي برأسها بقوة، استوعبت كل شيء فى العالم الذي دخلته للتو:
- طبعاً يا مستر أوغلو! واعتبر إن الموقع موجود من بكره!
قال باهي، لا يكترث إلا للمكاسب المادية من دخوله عالم الأخطبوط:
- إحنا بجد مش عارفين نقولك إيه يا مستر أوغلوعلى الثقة اللي حضرتك والأخطبوط وضعتوها فينا!
رفع أوغلو يده، أوقفهما:
- متقولش حاجة... خلي شغلكم هو اللي يتكلم!
ابتسم:
- صحيح... علشان أنا حبيتكم، هطمنكم إننا مبنرميش رجالتنا! وهقولكم دور مستر وديع في الفترة الجاية! طبعاً إحنا كسبنا من مجموعة قنوات وديع كتير...لكن خلاص... الفكرة دي وقتها راح! ومش هتكسب في الفترة الجاية أكتر من اللي كسبناه...وده بعد ظهور الكمبيوتر والإنترنت بكثافة في الوطن العربي! علشان كده دور وديع كان لازم يتغير... بشكل يناسبه... وكمان يخدم أهدافنا وطموحاتنا!
قالت شاهي باستغراب ممزوج بدعابة:
- إيه؟ هيدخل عالم الإنترنت والمواقع هو كمان ولا إيه؟
ضحك أوغلو، هز رأسه:
- لأ! وديع هيكون زي لاعيب الكرة خط الوسط المدافع! يعني هو اللي هيوسعلكم السكة علشان توصلوا لأهدافكم! أوضح أكتر... إحنا هنبتدي نشتري حقوق بث دوريات كرة قدم معينة... ونشفّر الماتشات دي!
نظر لهما بمكر:
- وده هيساعد على تضييق الخناق على الشباب ومشجعين الكرة في إنها تلاقي حاجة تانية تتنفس من خلالها... وتسليهم! زي مسلسلات الدراما التركية اللي إحنا عندنا مؤلفين مخصوص ليها! وكمان بنحط ليها ميزانيات إنتاج ضخمة... علشان ننقل

ثقافة أوروبا للشرق الأوسط! وخصوصاً لمصر... وده بالشكل اللي إحنا شايفين إنه يتماشى مع خطة الأخطبوط!
وكمان بتشفير ماتشات الكورة... هنخلي الناس تنزل تقعد على القهاوي والكافيهات! البيئة الخصبة للمخدرات! واللي مش هينزل... عنده اعلى الريسير لقنوات الجنسية المفتوحة! يدخل يتفرج... ويجي لعالمنا!
توقف، نظر لهما بعمق:
- ولسه فيه حاجات تانية كتير... والخطة الكبرى للأخطبوط! مستنياكم بس قدام!
صفق بيديه:
- يلا... انطلقوا! مستنيين إيه؟
رفع كأسه:
- في صحة عالم الأخطبوط!
رفع باهي وشاهي كأسيهما معاً، قالا في صوت واحد:
- في صحة عالم الأخطبوط!
- في صحة عالم الأخطبوط!
أخذ أوغلو رشفة طويلة من كأسه، ثم وضعه على طاولة قريبة. نظر لباهي بجدية:
- وبالنسبة للبضاعة اللي طلبتها...هتكون في مصر في خلال أسبوع!
يلا يا بطل... ورينا همتك! أنا عارف إن مجالات شغلكم هتكون كتير... بس إنتوا قدها!
ثم اقترب أكثر، صوته أصبح أكثر جدية، نظرته أصبحت حادة كالسكين:
- بس... نصيحة مني...أوعى تفكر بقلبك! العالم ده... اللي يفكر فيه بقلبه يخسر!
استدار نحو شاهي، رفع حاجبه:
- ولا إيه... مسيز شاهي؟
أومأت شاهي برأسها بقوة، عيناها كانت جادة تماماً:
- أكيد طبعاً! كلامك يا أوغلو بيه... كله حكم!
ابتسم أوغلو ابتسامة راضية، ابتعد خطوة:
- طب أسيبكم مع بعض شوية... براحتكم! المكان مكانكم... خدوا راحتكم!
لوّح لهما، استدار، اختفى في الحشد. وقف باهي وشاهي وحدهما. صمت ثقيل ملأ الفضاء بينهما. نظرا لبعضهما البعض، ثم حولهما على الحفلة الفاخرة، الضيوف الأنيقين، الشخصيات الكبيرة التي قابلوها.
صبحي البنهاوي- رجل الريسيفرات والتوك توك وكافيهات الإنترنت.

ديانا بغدادي - أشهر مصممة أزياء في المنطقة.
وديع إلياس - رجل الميديا الأول، صاحب أول قنوات مشفرة.
عادل غيضان - صاحب الدراما التركية المدمرة للأسر.
شادي مكين - المخرج المعروف الشاذ.
أوغلو ألكان - الرجل الظاهر في عالم الأخطبوط.
وخلف كل هؤلاء... الأخطبوط - الكيان الغامض، المجهول، الذي يحرك كل الخيوط.
كانوا منبهرين بالأجواء، بالشخصيات، بالفكر الممنهج المدروس بدقة شيطانية. فكر لا يراه الناس العاديون، يرونه عبثاً، خطوطاً عشوائية لا يمكن ربطها ببعضها.
لكن هما رأوه. رأوا الصورة الكاملة. الشبكة. الأخطبوب.
هز باهي رأسه ببطء، تنهد بعمق:
- أوغلو ده... دماغ كبيرة قوي!
نظر لشاهي:
- فعلا يا شاهي؟
أومأت شاهي برأسها بقوة، عيناها لا تزال متسعة من الذهول:
- دماغ... ومش أي دماغ! إيه الفكر ده؟! ده الشياطين متعرفش تفكر كده زيهم!
توقفت فجأة، نظرت له بفضول عميق:
- بس... تفتكر مين الأخطبوط ده هو كمان؟
بدأت تمشي ذهاباً وإياباً، تفكر بصوت عالٍ:
- تفتكر ده شخص واحد... ولا مجموعة أشخاص؟ ولا مافيا؟ ولا سياسة دولة؟ ولا مجموعة دول؟ صعب إنك تقدر تحدد هو إيه! الظاهر إنه زي الأفلام... هنعرف في الآخر! هاهاها!
هز باهي كتفيه، وضع يديه في جيبه بلا مبالاة:
- أنا مايشغلنيش الموضوع ده!
نظر حوله على الحفلة، الثروة، القوة، عيناه تلمعان:
- أهم حاجة... الطموح، الفلوس، السلطة والنفوذ! كل ده بقي بين إيدينا خلاص! يطلع بقي الأخطبوط زي ما يطلع! إحنا لا جواسيس ولا تجار سلاح...إحنا بنحاول نبسط الناس ونرفّه عنهم... بمقابل مبلغ مادي بسيط! ولا إنت مش معايا؟
ابتسمت شاهي، أومأت برأسها:

- في دي عندك حق...مش هتفرق... ولا يشغلنا! بس تعرف... إن فكرة موقع الأفلام الممنوعة من العرض...وأفلام للكبار فقط... فكرة كويسة فعلاً! بس تفتكر يا خبير التسويق... نسمي الموقع إيه؟

فكر باهي للحظة، وضع يده على ذقنه. ثم فجأة، رفع سبابته، عيناه اتسعتا:

- إيه رأيك في...شبكة أفلام **She & He**...للأفلام العربية الممنوعة من العرض! أفلام للكبار فقط!

صفقت شاهي بيديها بحماس، عيناها لمعتا رددت الاسم ببطء:

- اسم حلو! شبكة أفلام **She & He** للأفلام الممنوعة من العرض...بجد اسم حلو!

ابتسم باهي ابتسامة فخورة، ربت على كتفها:

- طبعاً يا بنتي! أنا مبضيعش وقت! وعلشان كده بفكر في البضاعة اللي جاية مصر كمان أسبوع...ودكتور مينا اللي هيوزع البضاعة... لازم أرتب معاه خطة التوزيع! مش عايزين نغلط! احتمال الغلط مرفوض! احنا عايزين نجاح غير تقليدي! علشان كل نجاح له مقابل! ولا إنتي نسيتي أوغلو قال إيه؟

هزت شاهي رأسها بقوة، أمسكت بيده:

- لأ طبعاً! كل كلمة قالها أوغلو... بقت محفورة هنا في دماغي! متقلقش! نرجع مصر... ونرتب كل حاجة!

فجأة، نظرت بعيداً، رأت شيئاً. أشارت بذقنها:

- بص هناك كده...ديانا... عينها مش عايزة تنزل من عليك!

دفعته برفق نحو الاتجاه:

- يلا... روح لها! نتقابل بكره في الفندق!

ابتسم باهي، أومأ برأسه:

- أوكيه... بكره في الفندق! سهرة سعيدة مع شادي!

وقفت شاهي للحظة، كأنها تذكرت شيئاً. عيناها اتسعتا:

- صحيح! شادي! هو فين؟ تصدق نسيت أنا ناوياله على إيه؟!

ضحكت ضحكة قصيرة، هزت رأسها:

- يلا... باي!

استدارت بسرعة، بدأت تبحث عن شادي في الحشد. وقف باهي مكانه للحظة، ابتسم ابتسامة عارفة، هز رأسه، همساً لنفسه:

- مش عارفة يا سادية؟ أنا عارف! يلا... باي!

استدار كل واحد في اتجاه، كل واحد نحو صيده الخاص. الأضواء خفتت أكثر، الحفلة دخلت مرحلتها الأخيرة - المرحلة التي تسقط فيها الأقنعة، وتتحرر الرغبات.

(٣)
خطة الإنتشار

القاهرة

لقاء مع الحيوانات

عاد باهي وشاهي إلى مصر محملين بالطموح والخطط. لم يتركا شيئاً للصدفة، كل تفصيلة كانت مدروسة، كل خطوة محسوبة.
عملت شاهي على تصميم الموقع بكل تفانٍ، ساعات طويلة أمام الشاشة، أكواب القهوة تتراكم بجانبها، أصابعها تتحرك بسرعة على لوحة المفاتيح. كانت تصمم أفضل موقع رأته في حياتها - واجهة أنيقة، سهلة الاستخدام، آمنة، مغرية.
بينما توجه باهي لمقابلة دكتور مينا - الرجل المسؤول عن التسويق الجزئي للمخدرات، رجل لؤي الذي يدير من خلاله منظومة التوزيع بأكملها.
حديقة حيوان الجيزة مزدحمة بالعائلات، وسط هذا الحشد، اتفقا على اللقاء مكان عام، مزدحم، آمن. وقف باهي بجوار جبلاية القرود، يراقبها وهي تتقافز وتصرخ. كان يرتدي قميصاً أبيض ونظارة شمسية داكنة، يبدو كسائح عادي. من بعيد، رآه قادماً. دكتور مينا
دكتور مينا - رجل في منتصف الأربعينات، قصير القامة بشكل ملفت. جسده عبارة عن كرة كبيرة تحمل كرة أصغر هي رأسه. ليس له رقبة تقريباً، كأن رأسه ملتصق مباشرة بكتفيه. شعر أسود قصير خشن، يرتدي نظارة طبية بإطار ذهبي. يتحرك بصعوبة، يتنفس بثقل، العرق يتصبب من جبينه رغم أنه لم يمشِ كثيراً. اقترب ببطء من باهي، عيناه تفحصانه بحذر. وقف أمامه، ابتسامة مصطنعة على وجهه، مد يده، ابتسم باهى:
- ازيك دكتور مينا... عامل إيه؟
صافحه مينا بيد رطبة من العرق. صوته كان شبه حاد، مليء بالتوتر، كل كلمة تخرج بصعوبة:
- هاي باهي... صديقي! وحبيب صديقي! آه يا لؤي! قد إيه أنا حزين عليه! لكن ده حال الدنيا...
اقترب من باهي خطوة، خفض صوته، نظرته أصبحت أكثر حدة:

- مع إن رأيي الشخصي... لؤي لا يُعوّض! ومخبيش عليك... أنا خايف من اللي جاي! بصراحة مش مطمئن!
ابتعد خطوة، حاول الابتسام لكن ابتسامته كانت متوترة:
- إنت عامل إيه باهي حبيبي؟
نظر له باهي بثبات، لم تتحرك عضلة في وجهه. خلع نظارته الشمسية ببطء، نظر في عيني مينا مباشرة - نظرة باردة، حادة، حاسمة.
صوته كان حاداً كالسكين:
- لأ... أنا كويس! كويس قوي كمان! لكن واضح إنك إنت اللي فيك حاجة غلط يا مينا!
تراجع مينا خطوة لا إرادية. شعر بالقوة في صوت باهي، القوة في نظرته. هذا ليس باهي الذي رآه مع لؤي ويشك في أنه قد يكون شاذ، هذا شخص آخر تماماً. رفع يديه باستسلام سريع، ابتسامة عصبية ظهرت على وجهه بإعجاب ممزوج بخوف ضحك ضحكة قصيرة متوترة مندهشا:
- إيه ده؟! مينا كده... من غير دكتور؟ بداية قوية باهي حبيبي! وده يخلي شكوكي تبتدي تقل...أنا بعد ما جالي خبر إنك هتكمل مكان لؤي...بيني وبينك... أنا قلت النهاية قربت لينا كلنا! متزعلش من صراحتي! أنا حكمت عليك من الكام مرة اللي شوفتك فيها مع لؤي... أو من طريقة كلام لؤي عنك. لكن لما شوفتك المرة دي... حسك مختلف عن اللي فات! عينك فيها إصرار وتصميم وذكاء! ونبرة صوتك بتقول إن جواك قوة كبيرة هتوديك لأبعد الحدود! واضح إن ثقتك بنفسك عالية جداً! كان لازم من الداخلة دي! إنت عارف شغلنا... الغلطة بفورة!
وقف باهي أمامه، وضع يديه في جيبه بثقة مطلقة:
- وأنا كمان هكلمك بصراحة...صحيح أنا مكان لؤي... لكن الأسلوب والفكر هيختلف كلياً وجزئياً! وهنا مربط الفرس! ومكنتش ليها لزوم الداخلة دي... واستفزازي! علاقتي بلؤي... تنساها خالص! أنا في الشغل... حاجة تانية! المفروض إننا هنكمل بعض...سيب الأيام تحكم... وأكيد مش هتندم! ها... نتكلم بقي ى الشغل؟ هتعمل إيه؟
ارتاح مينا قليلاً، ابتسامة حقيقية ظهرت على وجهه. بدأ يمشي ببطء، باهي يمشي بجواره:

- باهي حبيبي... كل كمية البرشام اللي معاك هاخدها! السوق لسه بيقول يا هادي! زي السفنجة الجديدة لما تحطها في الميه... بتسحب أكبر كمية ميه! العجلة لسه بتبتدي تدور!

توقف أمام قفص الفيلة، نظر لها وهي تأكل:

- إحنا كل يوم بنفتح أسواق جديدة في كل مصر! تقريباً دلوقتي بقي لينا صيدلية في كل منطقة في القاهرة والمحافظات المهمة! وباقي المحافظات لينا فيها تلات أو أربع صيدليات! وقريب هيبقى لينا في كل محافظة مش أقل من عشرين، تلاتين صيدلية! قابلة للزيادة حسب العرض والطلب والكميات اللي هتقدر توفرها لينا!

أومأ باهي برأسه بموافقة وبدأ في السير مجددا، ومينا يترقب وهو بجواره:

- هو ده الكلام! لازم تبقى عارف لو إحنا النص الأول من الخطة علينا... إنت لوحدك النص التاني! وإحنا مستعدين لتوفير أي كمية من البرشام! سواء ترامادول أو ابترال ومشتقاتهم! وبكده يبقى النص الأول من الخطة مفيهوش أي مشكلة! وعلشان كده عايز أعرف منك...خطتك إيه لتنفيذ النص التاني من خطة الأخطبوط...في تسويق البرشام وانتشاره بشكل سريع في كل مصر؟

ابتسم مينا ابتسامة غامضة، نظر لباهي بمكر:

- عايز توصل لإيه باهي حبيبي؟

نظر باهي له بحدة، بدأ يشرح خطته:

- أنا مش عارف إنت ناوي تحفز رجالتك لترويج البرشام إزاي...بس أكيد لازم تبيع بأسعار قليلة! إحنا دلوقتي مش هدفنا المكسب خالص! وممكن تعمل مكافآت للصيدليات اللي هتوزع كميات أكبر! لازم تحفزهم بفلوس... أو أجهزة كهربائية...رحلات مصايف خمس نجوم!

انفجر مينا ضاحكاً، ضرب بيده على فخذه:

- آه! إنت بتختبرني! واضح إنك إنت كمان جاي مقلق مني! ماشي باهي حبيبي!

توقف مينا امام قص الاسود، استدار نحو باهي، وجهه أصبح جدياً تماماً:

مينا: بص يا سيدي...خطتي للتحكم في السوق والسيطرة على المجتمع...وتوزيع البرشام بشكل مفيهوش أي شبها... هتكون كالتالي بالنسبة للمسكنات... الترامادول ومشتقاته...هنضخه في الصيدليات بكميات كبيرة! وهنبيع بسعر باكو النعناع والملبس! وأي حد يروح للصيدلية يسأل على حاجة للبرد أو الصداع أو حتى مغص...هياخد البرشام بتاعنا! واللي عايز منشطات جنسية علشان يبقى اسد على السرير... هياخد البرشام بتاعنا! واللي عايز يبقى بطل ويعمل لقطة شقاوة وعايز

حاجة تجمد قلبه... هياخد برضه البرشام بتاعنا! واللي عايز يستحمل ألم تعب معين... برضه...
أكمل باهي الجملة بسخرية، فهم اللعبة تماماً:
- هياخد البرشام! ها... كمل!
ابتسم مينا ابتسامة أعرض، عيناه لمعتا وبدأ الاثنان في السير مجددا:
- ماشي! باختصار... إن في خلال فترة بسيطة هخلي الشباب على كل ناصية شارع...كل واحد جيبه عبارة عن صيدلية متنقلة!
توقف أمام بحيرة التماسيح، نظر لها وهي تاكل:
- آه! وأصحاب الحرف البسيطة... اللي هما بالبلدي الصنايعية! دول ليهم دور كبير معانا في خطتي! إحنا هنوصلهم لمرحلة إن البرشام هو العصاية السحرية اللي هتخلي الصنايعي من دول...يقدر يشتغل فترة طويلة من غير ما يحس بأي تعب! لحد ما البرشام يتمكن منه... ويبقى عامل زي ورقة الشجرة في فصل الخريف! البرشام هيبقى حياته! وساعتها يبقى يقابلني لو عرف يبطله! لأ وإيه... هيزود الجرعة منه لنفسه! اسألني... أنا دكتور وعارف!
نظر له باهي بإعجاب ممزوج بشيء آخر، شيء أقرب لعدم الرضا، لازال هناك شيء ما ناقص في الخطة لكنه لا يعلم ما هو:
- هايل! أنا عايز الجديد منك على طول!
ضحك مينا بصوت عالٍ، ضرب على كتف باهي، بدأ يمشي بسرعة أكبر رغم ثقل جسده، نظر له بفخر:
- باهي... إنت مع مينا! إمال لو عرفت باقي الخطة هتقول إيه؟
توقف عند اقفاص الطيور نظر مينا لها بحب وحنان وبدء يداعبها استدار نحو باهي:
- طلبة الجامعات والمدارس! الطالب من دول... لازم يعرف إن البرشام هيخليه يقدر يسهر ويذاكر أكتر! لحد ما البرشام يبقى بالنسبة ليه زي الميه والهوا! وكده هو كمان هيزود الجرعة... وعمره ما هيقدر يستغنى عنه! تأثير البرشام أقوى بكتير من البودرة في الخروج منه! وبكده نبقى صنعنا أجيال جديدة تحت السيطرة! اللي هيعدي منهم ويكمل تعليم... ينفعنا في المجال اللي هيخدم فيه! الدكتور يجيب مستشفى! والمهندس يجيب شركة!
توقف فجأة، نظر لباهي، عيناه تلمعان بمكر شيطاني:
مينا: يعني... الزبون يجيب زباين أو بمعنى تانى الزبون هو اللى هيسوق شغلنا! هاهاهاها!

انتظر مينا أن يضحك باهي معه، لكن باهي لم يفعل. وقف صامتاً، وجهه جامد، عيناه مركزة بشدة، يستوعب كل كلمة، كل تفصيلة.
توقف مينا عن الضحك ببطء، أدرك أن باهي جاد تماماً. مسح العرق من جبينه، أكمل بصوت أكثر هدوءاً:
- مش مضحكة... صح؟ واللي مش هيكمل تعليم... ده بقي نصيبه كده!
ده حاجة من اتنين...يا إما صايع ويقف على الناصية ويبيع برشام...يا إما هيبقى صنايعي في يوم من الأيام...وينضم للصنايعية والناس المعدومة اللي إحنا هنكون مسيطرين عليهم أصلاً!
نظر بعيداً، كأنه يرى المستقبل أمام عينيه صوته كان مليئاً بالحلم المريض:
- ياه يا باهي! أنا متخيل الأجيال اللي جاية... وهي عايشة على البرشام!
كل فئات المجتمع... طلبة، دكاترة، مهندسين، مدرسين، صنايعية الصيع، وغيرهم!
فعلاً... الأخطبوط ده عبقري! منظومة متخرش الميه!
نظر له باهي بثبات، صوته كان هادئاً لكن حاداً، لعله يجد أكثر مما توقع:
- بس كده؟ هو ده كل اللي عندك؟
هز مينا رأسه بقوة، ابتسم:
- لأ لسه! اصبر على رزقك!
مشيا نحو قفص الدب الاسود. وقف مينا أمام القفص، أشار إليه:
- بالنسبة لأصحاب المزاج...دول تلات أنواع! النوع الأول... اللي الجنس هو مزاجه ومدخله! البرشام هيعمل منه عريس في ليلة الدخلة! كأنه واكل كيلو جمبري واستاكوزة! لحد ما البرشام يتمكن منه! لو فكر ومخدش البرشام في مرة... شكله هيبقى وحش قوي! وهيبقى عامل زى دبة! عصب عنه هيزود الجرعة بعد كده غصب عنه... علشان يعيش في دور الغضنفر!
والنوع التاني... اللي عايز ينسى هموم الحياة! أو ينسى حياته أصلاً! ده أول ما يعرف مدى تأثير البرشام عليه... وإنه هيخليه زي الجبل في وش الريح...مش هيقدر يستغنى عنه! ومش هيفكر يبطله خالص!
ضحك، أخذ نفساً عميقاً، صوته أصبح أكثر جدية:
- نيجي للنوع التالت...مدمن البودرة! وده معانا من زمان! وده عنده استعداد للسكة دي... ومهيئ نفسه للدخول للعالم ده من غير أي تحايل مننا! دول بقي لعبتنا! هنخلط البودرة الخام بتركيبة من أنواع معينة من البرشام! بحيث إن تكون نسبة البودرة فيها لا تتعدى الخمسة في المية! ودي هتبقى تركيبة تمشي مع كل الفئات!

وسعرها هيكون رخيص! يعني حاجة كده في حدود خمسين جنيه! وبكده نبقى عملنا توازن بين الطبقات في المجتمع! إحنا يهمنا كل الشعب يبقى مبسوط! وفي نفس الوقت نفضل محافظين على الأرباح بتاعة البودرة متقلش!
ابتسم ابتسامة شيطانية عريضة:
- ونبقى ضربنا عصفورين بحجر واحد! إن البودرة الجديدة تبقى في إيد كل الناس! وكمان اللي هيدمنها يبقى يقابلني لو عرف يبطلها! بس كده خلصت!
نظر له باهي بعمق، سأله بهدوء:
- طب والابترال ومشتقاته؟
ابتسم مينا ابتسامة أكثر قتامة، عيناه ضاقت:
- قصدك أدوية علاج الصرع؟ المغيبات؟
اقترب من باهي، صوته أصبح أكثر جدية وخطورة:
مينا: دي بقي مش إدمان بس! ...تأثيرها خطير! بتحول الشخص... كل واحد حسب دماغه!
بدأ يعطي أمثلة، صوته كان بارداً، خالياً من العاطفة:
- يعني لو شايف القتل حلال... يقتل! طلبت معاه انتحار ويرمي نفسه في البحر... يرمي!
عاد مرة أخرى لجبلاية القرود، نظر لباهي بجدية تامة:
- علشان كده إحنا بنزلها السوق بمعدلات معقولة! علشان الحكومة متحسش بحاجة! وكمان يبقى فيه في المجتمع حاجة كده زي الشطة في الأكل!
ضحك ضحكة قصيرة:
- مع إنها ملهلبة... لكن متقدرش تستغنى عنها!
اقترب من باهي أكثر، خفض صوته لهمس:
- ومستني الأوكيه! أول ما تقول غرّق السوق منها... نغرقه! وساعتها... معدل الجريمة يزيد بشكل مش طبيعي!، الناس هتبقى مستعدة تاكل الاسفلت وقضبان القطر. وهيبقى الوضع تمام زي جبلاية القرود دي! أول ما تحب يحصل هرج ومرج... أحدفهم موزة قصدى الابترال وهتشوف العجب!
وقف أمام باهي مباشرة، وضع يديه على خصره، نظر في عينيه:
-ها... إيه رأيك في خطتي المتواضعة؟
وقف باهي صامتاً للحظات، ينظر لمينا بعمق. القرود خلفهم تصرخ وتتقافز، الأطفال يضحكون، الشمس تحرق، لكنه لم ينتبه لأي شيء.

كان يستوعب ما سمعه للتو، خطة شيطانية متكاملة، مدروسة بدقة مرعبة، تستهدف كل فئات المجتمع، كل الأعمار، كل الطبقات. خطة لتدمير أمة بأكملها. ببطء، بدأ يصفق. صفقة واحدة، ثم أخرى، ثم أخرى. ابتسامة عريضة ظهرت على وجهه، ابتسامة الإعجاب الحقيقي.

- برافو! برافو! بروفيسور مينا! ليك مني كل تقدير وتحية على خطتك! نجاحك في تنفيذ خطتك يعني نجاحنا كلنا! لأن كل اللي إحنا بنعمله ده... الغرض منه هو الوصول للسيطرة على المجتمع...وبعد كده نجمع المكاسب مش هنلاحق!

وبنجاحك... المنظومة تكون فعلاً كلها نجحت!

الكل هيخدم خطتك... جنس، جريدة، ميديا، مواقع نت، تشفير ماتشات كورة! وساعتها أقدر أقولك إن خطة الأخطبوط نجحت مية في المية!

نظر حوله على الحديقة، الناس، الحيوانات:

- كل حاجة لازم تبقى مدروسة ومحسوبة بدقة رهيبة! وتحت السيطرة علشان نعرف نسيطر على الحيوانات كل نوع في قفصه قصدى الناس وقبل ما أنسى...إديني ميعاد تسلمني البودرة الشعبي!

هز مينا رأسه بقوة، رفع يده:

- لأ، إديني وقتي علشان متشتتش!

نظر له باهي بحدة:

- أوكيه... خد وقتك! بس بأسرع مما أنا أتخيل!

ثم تذكر شيئاً آخر أكثر إلحاحاً أوكيه... وافتكر! البضاعة اللي طلبها لؤي... تروحله السجن! علشان ميعاد الزيارة قرّب! وهو مأكد إن البضاعة لازم تروحله الزيارة دي! هتحلها إزاي؟

ضحك مينا ضحكة واثقة، هز رأسه:

مينا: أنا لو مش عارف إن السجن ده مفتوح ...والكل مصهين على دخول الممنوعات...أنا كنت قلتلك لأ! بس تمام! رجلتنا في السجن بتأكد إن السجن أمان! إديني تلات أيام... وكل حاجة هتكون جاهزة! البضاعة هتتصنع في حاجات...ولا الجن الأزرق هيعرف يطلعها منها البرشام!... وطبعاً هقولك على مكانها! هاهاهاها!

ابتسم باهي ابتسامة ساخرة، هز رأسه:

- إيه الكرم ده؟ كتير عليّ كده!

رد مينا بسخرية مماثلة، رفع يديه:

- يلا... بنحاول نشجع الشباب! وعلشان تعرف إني بحبك قد إيه

توقف فجأة، كأنه تذكر شيئاً. ابتسامة خبيثة ظهرت على وجهه بدهشة:
- بس أنا ليا استفسار...إنت ولؤي هتعملوا سوق في السجن؟ إنت قلبك ميت قوي!
نظر له باهي بثبات، لم تتحرك عضلة في وجهه. صوته كان هادئاً، بارداً كالثلج:
- بص...أنا علشان لؤي أعمل أي حاجة! بس أكيد كل خطوة محسوبة كويس جدا، ده غير إن لازم يكون فعلا قلبك ميت! لازم تكون غير تقليدي! علشان تبقى مميز وناجح على طول الخط! الغير متوقع بيوصلك بشكل أسرع! وده سر المعادلة!
أومأ مينا برأسه ببطء، مقتنعاً تماماً:
- معاك حق!
فجأة، استقام باهي، كأنه تذكر شيئاً مهماً. نظر لمينا بجدية:
- أنا بقي ليا سؤال يا بروف!
ابتسم مينا، فتح ذراعيه بترحاب:
- اسأل حبيبي... أي سؤال على بالك!
نظر له باهي بحدة، صوته كان هادئاً لكن حاسماً:
- البنات والستات... الجنس الناعم...فين؟
رفع مينا حاجبه، لم يفهم السؤال:
- مش فاهمك... مالهم، أوعى تكون عايزني اشتغل في الدعارة؟
اقترب باهي خطوة، عيناه ضاقت:
- أنا مش شايفك اتكلمت عنهم في خطتك! هما في حساباتك... ولا لأ؟
حك مينا رأسه، نظر للأرض للحظة يفكر. ثم رفع نظره:
- الجنس الناعم... الصراحة لأ! يعني خمسة أو ستة في المية بالكتير نقدر نوصلهم! وأغلبهم اللي ماشية مع عيّل مدمن... أو بتاعت الدعارة!
هز باهي رأسه بقوة، صوته ارتفع قليلاً:
- غلط! لازم النسبة تكون أعلى من كده بكتير! لازم يكون فيه اهتمام بيهم في خطتك! خطة الأخطبوب مهتمة بيهم قوي! الدراما التركية عاملة شغل ناجح بشكل رهيب في التأثير على الستات والبنات! لكن ده مايمنعش إننا إحنا كمان نهتم بيهم وبمزاجهم! دول برضه النص الحلو في المجتمع! مش كده... ولا عندك رأي تاني يا بروف؟
اتسعت عينا مينا، كأنه اكتشف شيئاً غاب عنه. ضرب بيده على جبهته:
- في دي عندك حق! إزاي دي تاهت عن بالي؟!
اقترب من باهي، وضع يده على كتفه بحماس، عيناه لمعتا:

- واضح إننا هنوصل مع بعض للسحاب! كنت عايز الدماغ دي من زمان!
فجأة، توقف. نظر لباهي بحيرة:
- مع إني مش فاهم علاقة شغلنا بالدراما وميديا! إنت ناوي تعمل إعلانات عن البرشام ولا إيه؟
انفجر باهي ضاحكاً، ضحكة عالية، حقيقية:
- هاهاهاها! لأ... مش للدرجة دي! بس هنخلي الميديا تسهل علينا المهمة!
أومأ مينا برأسه بحماس:
- خلاص... وأنا هحاول نلاقي أفكار تجذب الجنس الناعم لخطتنا! لتنفيذ خطة عالم الأخطبوب
رفع باهي يده، أوقفه:
- بروف! إحنا لسه كنا بنقول... الغير متوقع! البنات والستات هما الهدف الرئيسي بتاعنا! ومش العكس زي ما الكل متوقع! الجنس الناعم هما حل اللغز في السيطرة على المجتمع! سواء بالمخدرات... أو أي وسيلة تانية!
لازم لازم نوصلهم!
رفع مينا يديه مستسلماً، هز رأسه بقوة، مقتنعاً تماماً:
- خلاص، خلاص! هنوصلهم... هنوصلهم!
ابتسم باهي، ربت على كتف مينا:
- يلا أسيبك، وهستنى منك تليفون تقولي كل حاجة جاهزة وتمام!
أخرج من جيبه ورقة، مدها لمينا:
- خد... خط التليفون ده! وكلمني من عليه! هتلاقي متسجل عليه رقم... ده رقم خاص بمكالماتي بيك بس! ولا الجن الأزرق يعرف رقمك أو رقمي! وفي أسوأ الأحوال... هترد عليك شاهي مراتي حد مضمون كإنك بتكلمني بالظبط! أظن إنت فاهم كلامي!
أومأ مينا برأسه ببطء، فهم الرسالة:
- أوكيه... تمام فهمت!
فجأة، توقف مينا. كأن شيئاً يدور في رأسه. نظر لباهي بفضول:
- بس... سؤال أخير! علشان دماغي هتلف! هو إيه موضوع المسلسلات التركية؟ أصل أنا مراتي بتتفرج عليها! هي المسلسلات دى بقت إدمان ولا إيه؟
هز باهي رأسه، رفع يده بحركة حاسمة:

- لأ... ده موضوع كده! متشغلش دماغك بيه! ركز في شغلك! علشان زي ما قلتلك قبل كده...نجاحك هو نجاح خطة عالم الأخطبوب! أقول تاني؟
رفع مينا يديه مستسلماً، هز رأسه:
مينا: أوكيه، أوكيه! فهمت!
ابتسم باهي ابتسامة راضية، مد يده:
- يلا... سلام يا بروفيسور!
صافحه مينا بقوة، عيناه تحمل احتراماً حقيقياً:
- سلام يا باهي!
استدار باهي، مشى بخطوات واثقة نحو الخروج. اختفى في الحشد. وقف مينا وحيداً، ينظر خلفه. وضع مينا يده على ذقنه، عيناه ضاقت، عقله بدأ يعمل بسرعة، همس لنفسه بصوت خافت:
- مش ممكن يكون ده الشاذ مرجيحة لؤي؟ في حاجة غلط، يا ترى مين فيهم كان المرجيحة؟ الواد ده مش سهل! ده رضع من إبليس! بس... منين بقي من إبليس؟ وأنا مالي؟
ابتسم ابتسامة راضية، ربت على بطنه الضخم:
- أنا كده مطمئن... وفي بطني بطيخة صيفي كمان!
بدأ يمشي ببطء نحو الخروج، جسده الضخم يتمايل، همس لنفسه بمرح:
- أروح ألحق المسلسل التركي مع مراتي...يمكن أفهم حاجة!
اختفى في الحشد، تاركاً وراءه فقط صوت القرود التي لا تتوقف عن الصراخ.

(٤)
تجنيد العلم

القاهرة

صيدلية عاصم عابدين

شرع الدكتور مينا في حياكة خيوط مؤامرته الجهنمية، فانطلق يبسط شبكته العنكبوتية من الصيدليات عبر أرجاء المدينة كالطاعون المتسلل في عروق الجسد النحيل. تحرّك كالمذنّب المشتعل، لا يعرف الكلل ولا يدرك معنى التوقف، يجوب المحافظات بحثًا عن فرائسه: صيدليات ذات مواقع استراتيجية في قلب الأحياء الزاخرة بالبشر، وفي الأحياء الراقية حيث تسكن الطبقة المخملية من المجتمع.
في غضون أيام معدودات، كانت الصيدليات تتساقط في قبضته كأوراق الخريف الذابلة. بعضها انتقلت ملكيته إلى صيادلة جُنّدوا بعناية فائقة، يحملون في صدورهم ولاءً أعمى لمينا ورؤيته المسمومة. وبعضها الآخر، أقنع مالكيها بالانضمام إلى جيشه الصامت، فتحوّلوا من أطباء يقسمون على شفاء الأرواح، إلى تجار يتاجرون في إهلاكها.
لم يكتفِ بذلك، بل مضى يؤسس صيدليات جديدة براقة الواجهات، خاوية الضمائر. واستغل حداثة تخرج بعض الصيادلة ليقنعهم بالشراكة بالاسم فحسب، مقابل حصة من الأرباح المدنسة، بينما يتحملون وحدهم وزر المسؤولية الجنائية أمام القانون، ليظل هو في الظل، يحرّك الخيوط دون أن تمسّه أصابع العدالة.
وفي أحد الأيام، توقفت قدماه أمام صيدلية في حي شبرا، ذلك الحي الشعبي الذي يموج بالبشر كخلية النحل، تعج شوارعه بالشباب العاطل، والأحلام المجهضة، والآمال المسحوقة تحت عجلات الفقر. كانت الصيدلية تحمل لافتة بسيطة: صيدلية الدكتور عاصم عابدين.
عاصم عابدين، ذلك الاسم الذي يحمل في طياته قصة حُلمٍ أبوي مؤجل. كان زميل دراسة لمينا، تخرّجا معًا من كلية الصيدلة في أواخر الثمانينيات، حين كانت البلاد تشهد آخر أنفاس عقد مضطرب.
والد عاصم، ذلك الرجل البسيط صاحب أشهر دكان عطارة في الحي خلال السبعينيات والثمانينيات، لم ينل حظه من التعليم. لكنه منذ أن حملت زوجته

بعاصم، احتضن حلمًا واحدًا: أن يراه يرتدي البالطو الأبيض، ويقف خلف رفوف الأدوية، طبيبًا محترمًا يُشار إليه بالبنان.
لكن القدر كان له تدبير آخر. فقد غرق الأب في مستنقع الأفيون، وانساق وراء فضوله المدمر نحو كل جديد في عالم المخدرات. استنزفت السموم أمواله كما تستنزف الصحراء قطرات الماء. وحين تخرج عاصم أخيرًا، لم يجد في خزانة والده ما يكفي لتحقيق الحلم المنشود: صيدلية تحمل اسمه.
كان عاصم شابًا يخطف الأبصار. عيناه تحملان زرقة السماء في يوم صافٍ، وشعره يميل للون القمح الذهبي، وقامته ممشوقة كسيف مصقول. يرتدي ملابسه بأناقة الشباب الأوروبي، مما جعله حديث فتيات الحي كله. لكن قلبه ظل مغلقًا على مصراعيه أمام الجنس اللطيف، فلم تستطع أي منهن النفاذ إليه، حتى نبيلة السعدني.
نبيلة، تلك الفتاة التي أحبته بجنون صامت. كانت تملك جمالًا ساحرًا، وجسدًا يفيض أنوثة، ووالدًا يملك أشهر محلات الحلويات في المنطقة. لكن عاصم لم يرها أهلاً لقلبه، فقد اكتفت بشهادة الثانوية التجارية، وظل فارق التعليم سدًا منيعًا بينهما.
لكن حين جفّت الآبار، وأطبقت الحاجة أنيابها على عنق طموحه، نظر إلى نبيلة بعينين جديدتين. لم يرَ فيها الحب، بل رأى المخرج السريع من نفق الظلام. تزوجها مقابل أن تفتح له والدها صيدلية. صفقة باردة، زواج بلا روح، ارتباط محسوب بدقة الصيدلي وهو يزن المساحيق على ميزانه الحساس.
لكن عائد الصيدلية لم يحقق طموحه الجامح. ظلت أحلامه أكبر من خزانة الصيدلية الصغيرة، وأوسع من رفوفها المحدودة، إلى أن ظهر مينا في حياته مجددًا، كالشيطان الذي يهمس في الأذن عند لحظة الضعف.
أقنعه مينا بحلم أكبر: ألا يكتفي بصيدلية واحدة تحمل اسم زوجته، بل أن يمتلك سلسلة صيدليات تحمل اسمه هو. صيدليات عاصم عابدين. كان الإغراء أقوى من الضمير، والطمع أعمى من البصيرة.
اقتنع عاصم، وأصبح من أهم جنود مينا في تنفيذ خطة الاخطبوط، يطيعه طاعة عمياء.
دفع مينا باب الصيدلية، فصرّ الباب صريرًا خافتًا وكأنه ينذر بشؤم قادم. تقدّم بخطوات واثقة نحو الشخص الجالس خلف ماكينة الكاشير، حيث كان عاصم

منهمكًا في تسجيل بعض الأرقام. رفع مينا يده محييًا، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة:
- إزيك يا دكتور عاصم؟ إيه رأيك في المفاجأة دي؟
رفع عاصم رأسه، فاتسعت عيناه الزرقاوان للحظة، ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة ترحيبية صادقة. نهض من مكانه بحركة سريعة، ومد يده مصافحًا بسعادة بالغة:
- دكتور مينا! لا، أنا مش مصدق نفسي! إيه المفاجأة الجميلة دي؟
ضغطت كفّا الرجلين على بعضهما بقوة، كفا متآمرين يعرفان سر بعضهما البعض، ابتسم مينا بتواضع مصطنع.
- ده بس من ذوقك. عامل إيه يا صديقي؟
- ماشي الحال. إنت عامل إيه يا صديقي؟ تعال اتفضل جوه في المكتب.
التفت عاصم نحو شاب يافع يقف خلف أحد الأرفف، يرتدي روبًا أبيض، وعلى وجهه ملامح البساطة والطيبة، وبنبرة آمرة لكن لطيفة:
- لو سمحت يا علي، خلّي بالك، واعمل اتنين شاي، واحد فيهم سكر بَرّه.
أومأ على برأسه طاعة، وهو يمسح يديه في الروب:
- حاضر يا دكتور. بس بعد إذنك، لو حد جه بروشتة من اللي خطها عجيب، هدخّلها لحضرتك.
- ماشي يا علي. اتفضل يا دكتور مينا، يا أهلاً يا أهلاً!
عبر الرجلان ممرًا ضيقًا بين الرفوف المحملة بعلب الأدوية الملونة، ودخلا مكتبًا صغيرًا في مؤخرة الصيدلية. أغلق عاصم الباب خلفهما بحركة حذرة، وأدار المفتاح في القفل. التفت نحو مينا وفي عينيه بريق فضول ممزوج بترقب. جلس الرجلان على كرسيين متقابلين، مال مينا إلى الأمام، وخفض صوته إلى همسة بالكاد تُسمع:
- إيه الأخبار؟ السوق عامل إيه؟
انحنى عاصم هو الآخر، وعلى شفتيه ابتسامة رضا عريضة:
- كله تمام، الشغل ماشي زى ما بيقول الكتاب.
ثم توقف فجأة، وحدّق في عيني مينا بنظرة فاحصة، كمن يحاول قراءة ما وراء الكلمات وبنفاد صبر:
- إيه يا سيدي بقي سر الزيارة المفاجئة دي؟ باين في عينك إنك شكلك كده عندك جديد. قول وبلاش تلعب بأعصابي!
ابتسم مينا ابتسامة غامضة، ومال إلى الخلف في كرسيه بحركة مسترخية:
- أبدًا! وحشتني يا جدع، قُلت أجي أشرب معاك كوباية شاي. ولا إنت بقيت بخيل؟

في تلك اللحظة، طُرق الباب طرقات خفيفة. نهض عاصم وفتح الباب بحذر، فمد على يده ممسكًا بصينية تحمل كوبين من الشاي يتصاعد منهما البخار. أخذ عاصم الصينية بحركة سريعة، وأومأ لعلي بالانصراف، ثم أغلق الباب مجددًا وأدار القفل. وضع الصينية على المكتب، ودفع أحد الأكواب نحو مينا، ثم جلس مقابله ناظرًا إليه بعينين ضيقتين بسخرية ممزوجة بالحب:

- بحبك وإنت غامض! يا ريت تدخل في الموضوع على طول

أخذ مينا رشفة من الشاي، ثم وضع الكوب على المكتب ببطء. رفع عينيه نحو عاصم، وفي نظرته بريق خبيث:

- أبدًا! كل ما في الأمر إن البضاعة الجديدة وصلت. وعلشان إنت حبيبي، قُلت أشوفك محتاج حاجة منها ولا لأ قبل ما أروح لباقي الناس. ها، لازمك حاجة منها؟ ولا لسه عندك بضاعة قديمة؟

اتسعت حدقتا عاصم فجأة، وانفرج فمه قليلاً في دهشة ممزوجة بفرح عارم. ضرب بكفه على المكتب بقوة جعلت كوبي الشاي يرتجان، وبصوت مرتفع مليء بالحماس:

- قديمة إيه؟! ده إنت رديت فيا الروح لما قُلت إن البضاعة جت! بيني وبينك، أنا قلبي وقع في رجلي. أنا قُلت إنت جاي تقولي إن مفيش بضاعة تاني! إذا كان كده بقي، أنا محتاج عشرين كرتونة على الأقل!

رفع مينا حاجبيه في دهشة حقيقية هذه المرة. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وفي عينيه بريق انتصار، بنبرة ممزوجة بالدهشة والفرح:

- إنت عايز ميتين ألف حباية برشام؟! لا ده كده الدنيا ماشية معاك تمام!

أنا مش بحسد، وماسك الخشب كمان!

ابتسم عاصم ابتسامة واسعة، وفي نظرته ثقة مغرور بنجاحه:

- ما يحسد المال إلا أصحابه! الطلب على البرشام بيزيد يوم بعد يوم. أفكارك وخطتك للترويج أنا نفّذتها بالحرف الواحد! عمري ما تخيّلت إن الموضوع ده يمشي كده، وبالنجاح ده!

ضاقت عينا مينا فجأة، وأخذت نظرته صبغة جدية، بنبرة عتاب خفيف:

- كده إنت وقعت في غلط! إنت بتشك في قدراتي ولا إيه؟

هزّ عاصم رأسه بسرعة، ورفع يديه أمامه في حركة دفاعية:

- لا طبعًا! هو أنا أقدر؟! إنت مش فاهمني! أنا أقصد إن المادة الفعالة في البرشام فعلاً فعّالة! أنا كنت فاكر إن المادة الفعالة هيكون تأثيرها أقل من كده بكتير! البرشام

بيسكّن الألم لكل اللي بيشتكي من سنانه وضروسه، وآلام العظام، وبيسكّن فعلاً آلام الصداع! والناس بتقول إنه في العلاقة الجنسية كويس!
انحنى مينا إلى الأمام أكثر، حتى كادت جبهتاهما تتلامسان، وفي عينيه بريق شيطاني:
- وإنت إيه رأيك؟ من غير ما تلف وتدور. كزبون، مش صيدلي!
احمر وجه عاصم قليلاً، ونظر جانبًا في حرج، ثم عاد بنظره نحو مينا:
- بيني وبينك، له تأثير في السرير. وتأثير ملحوظ بالنسبة لسعره رخيص!
ارتسمت على وجه مينا ابتسامة رضا، ثم فجأة تجمدت ملامحه كمن تذكر شيئًا مهمًا:
- تمام! أنا هشرحلك، بس قبل ما أشرح، إنت خلّيتني آخد بالي من حاجة مهمة جدًا مكنتش واخد بالي منها قبل كده!
عقد عاصم حاجبيه في حيرة، وأمال رأسه جانبًا:
- حاجة؟ حاجة إيه؟
- تأثير المادة الفعالة في البرشامة! إزاي أنا مخدتش بالي قبل كده من الموضوع ده؟!
زادة حيرة عاصم
- مش فاهم!
لوّح مينا بيده في الهواء بحركة استخفاف:
- متشغلش بالك! خلينا في تأثير البرشامة.
ثم استقام في جلسته، وأخذ نبرة الأستاذ المحاضر:
- بُص يا سيدي، إنت ممكن تحس إن البرشامة ليها تأثير ملحوظ في إطالة فترة الجماع. بسبب أنه مسكن أفيوني، فيه حاجات كتير من تأثير الأفيون، لكن ده على عكس الحقيقة، وعكس طبيعة الجسم البشري!
كده إنت بتُجهد أعضاء جسمك، بتخليها تبذل شغل أكتر من طاقتها!
وطبعًا، مرة في التانية، الجسم هيقولك شكرًا! الخلل اتحكم في كل أعضاء الجسم! ومش هتقدر تدوّر المكنة إلا بالبرشام! وهتزوّد الجرعة كمان! علشان إنت بقي كده عندك مشكلتين... الأولى، إنك تسكّن ألم إجهاد أعضاء جسمك اللي إنت مش هتقدر تتحمله لو مخدتش البرشام، وده بعد ما تتعود على البرشام طبعًا. والحاجة التانية، إنك تقدر تقوم بواجباتك الزوجية بكفاءة من غير ما الطرف التاني ياخد باله إن فيه تقصير منك! هه! تقصير! أظن بقي كده إنت فهمت، مش محتاج أوضّح أكتر ولا إيه؟

أحسّ عاصم بموجة من الحرج الممزوج بالغباء. على الرغم من كونه صيدليًا، لم ينتبه لهذه الحقيقة من قبل. هز رأسه ببطء، وعلى وجهه تعبير من استوعب درسًا مهمًا، بصوت فيه ذهول:

- بقي هي الحكاية كده! طب وليه الحكومة منزلتهوش جدول؟

- هتنزله متقلقش، بس شوية كده لما نتحكم في السوق، ما أحنا لينا رجالتنا في مطبخ صنع القرار برضه. فهمت يا نمس.

ضرب عاصم جبهته بكفه في حركة توبيخ ذاتي:

- إزاي مخدتش بالي من النقطة دي قبل كده؟! أنا أصلاً كده كده باخده تفاريح! صحيح! عمر البرشام ما هيكون منشط جنسي! ولا المنشط الجنسي هيكون برشام! ده غير فرق السعر الكبير قوي ما بين الاتنين.

ابتسم مينا ابتسامة رضا، وأومأ برأسه موافقًا:

- طالما فهمت كده، يبقى خليك على كده! وبعدين، لو عايز منشطات، ما تقوللي أجيبلك حاجة محترمة ملهاش آثار جانبية! أمّال دكتور إيه، وصيدلية إيه؟! مليتوا البلد! هاهاهاها!

رد عليه عاصم بضحكة مماثلة:

- هاهاهاها! على طول دمك خفيف يا مينا! أستاذ في التريقة! هو الواحد هيركز في إيه ولا إيه؟! أنا كل اللي أنا فاهمه ومركز فيه، إن بقي عندي فرخة بتبيض كل يوم بيضة دهب! يبقى ولا أي حاجة تانية تشغلني!

أومأ مينا برأسه بقوة، وفي عينيه بريق مكر:

- عليك نور! يبقى لازم ندارى على فرختنا! عارف ليه؟

- طبعًا! علشان محدش ياخد باله!

ابتسم مينا ابتسامة شيطانية، وقال بنبرة ساخرة:

- لا يا ناصح! علشان تداري على فرختك تبيض! ها هاها!

وانطلق في ضحكة عالية، ومد كفه وصفق بها على كف عاصم بقوة، في حركة توافق وتآمر. رأى عاصم ذلك، فانطلق هو الآخر في الضحك، وقد ارتجّت كتفاه من شدة الضحك:

- والله إنت مسخرة يا مينا!

توقف مينا عن الضحك، واستقام في جلسته، وأخذت ملامحه صبغة جدية:

- مش أحسن ما الواحد يموت من الهم والغم؟ نرجع لموضوعنا. خلي بالك، أهم حاجة عينك في وسط راسك! أوعى تفقد تركيزك!

انتفض عاصم في مقعده، واتخذت ملامحه تعبيرًا جادًا ومسؤولاً:
- عيب عليك! ودي حاجة تفوتني؟! الكمية المثبوتة في الدفاتر ومصرّح بيها رسمي، بصرف منها بالروشتة. لكن البرشام بتاعنا ده بيكون دكاكيني! بطلّع كرتونة كرتونة، وببيع منها على حسب المثبوت في الدفاتر، ومظبط حالي! متقلقش عليا، صاحبك لسه دماغه شغالة! لعيب كبير برضه، بس في ملعبي!
ضحك مينا ضحكة خفيفة، ثم قال بنبرة استفهام:
- لعيب كبير؟ إنت مكان الصيدلية عندك هو اللي وهم! منطقة شعبية فيها سكان مصر كلهم تقريبًا! قولي بقي يا عم اللعيب، هتستلم البضاعة هنا ولا في نفس المكان اللي فات؟
رفع عاصم يديه في الهواء بحركة استسلام ساخرة:
- بُص، أنا بقول إيه وإنت بتقول إيه؟!
ضحك مينا، ثم قال بنبرة طمأنة:
- يا عم أنا بهزر معاك! البضاعة بكرة الفجر هتكون في المخزن عندك!
انفرجت أسارير عاصم، وقال بحماس:
- أيوه بقي! هو ده الكلام!
ثم انحنى وأخرج من تحت المكتب حقيبة جلدية سوداء، ووضعها على المكتب بحركة حذرة:
- خُد بقي ده تمن البضاعة اللي فاتت. حطيتلك الفلوس في شنطة دي، بعيد عن فلوس الصيدلية.
دفع الحقيبة نحو مينا، ثم أخرج ورقة مطوية من جيبه:
- وده كشف بكل حاجة بالتمام، علشان تعرف إن عاصم صاحبك قمة في الالتزام والدفع في الميعاد!
أخذ مينا الحقيبة ووضعها بجانبه، وابتسم ابتسامة دافئة:
- من غير ما تقول يا صديقي! هو إحنا لسه هنعرف بعض النهاردة؟!
ثم نهض من مكانه بحركة سريعة:
- يلا، عايز حاجة مني؟ أسيبك، علشان عندي كام مشوار لسه هروحهم.
- ولما تحتاج شغل تاني في أي وقت، رُن بس عليا من الساعة تسعة للساعة عشرة بالليل. هفهم من عدد الرنات، كل مكالمة لم يتم الرد عليها بكرتونة!
انتفض عاصم من مكانه بحركة متحمسة:

- هو ممكن يتبقى معاك شغل تاني؟! يعني ممكن لو احتجت كمالة كمان كام يوم، تبعتلي تاني؟!
وضع مينا يده على كتف عاصم، وضغط عليها بحنان أخوي:
- عاصم، إنت مش زبون! إحنا أكتر من الأخوات! وقت ما تحتاج، هتلاقي الكمية عندك! لو هتصرفلك فيها من تحت الأرض يا صديقي! هو إنت أي حد؟! إنت حبيبي يا عاصم! يالا، سلام!
خرج مينا من الصيدلية وقد امتلأت حقيبته بالمال الملوث، وامتلأ صدره برضا شيطاني. الشمس كانت تميل نحو الغروب، ترسل أشعتها الذهبية الأخيرة عبر شوارع شبرا المزدحمة.
وخلفه، داخل الصيدلية، وقف عاصم أمام نافذة مكتبه، ينظر إلى ظهر مينا وهو يختفي بين الحشود. في عينيه الزرقاوين بريق الجشع والطمع، وفي قلبه قد مات آخر ما تبقى من ضمير الطبيب الذي أقسم يومًا على حماية الأرواح. وهكذا، في قلب حي شعبي مزدحم، حيث الفقر يطحن الأحلام، والبطالة تقتل الأمل، كانت بذور الدمار تُزرع بأيدٍ ترتدي القفازات البيضاء، وتحمل شهادات الطب، وتنطق باسم الشفاء.

(٥)
تجنيد الجهل

الصيدلي والبلطجي

عاد عاصم للتعامل مع زبائن الصيدلية بشكل عادي جداً، ابتسامة مهنية، صوت هادئ، حركات مدروسة.
على - الشاب النحيف - يساعده بكفاءة، يجلب الأدوية من الأرفف، يغلف، يحاسب. حياة عادية.
صيدلية عادية. لكن تحت السطح... شيء آخر تماماً.
الباب الزجاجي انفتح بقوة. دخل رجل - حضوره يملأ المكان.
إنه نبيل - لكن الجميع يطلق عليه نونِش.
طويل القامة بشكل ملفت - يتجاوز المتر وثمانين بسهولة. بشرته بيضاء، لكنها محروقة قليلاً من الشمس. في أواخر الثلاثينات.
مفتول العضلات - ليس كلاعب كمال أجسام، بل كرجل يعمل بجسده كل يوم. عضلات حقيقية، قوية، مخيفة.
يرتدي تي شيرت نادى برشلونة أحمر ضيق يبرز عضلات صدره وذراعيه. بنطلون جينز كحلي ممزق قليلاً عند الركبتين. كوتشي أديداس رياضي أبيض لامع - جديد، باهظ. شعره مفلفل - كيرلي كثيف، أسود، يصل لكتفيه تقريباً. لحية طويلة نوعاً ما لكنها مهذبة بعناية - ليس مهملاً، بل يهتم بمظهره. وجهه خشن، ملامح حادة، عيناه صغيرتان لكن ذكيتان، أذكى مما يظن الناس. نظر نونِش في جميع أنحاء الصيدلية - عيناه تفحص كل زاوية، كل شخص. عيون رجل اعتاد على الحذر، على البحث عن الخطر. توجه نحو عاصم مباشرة، صوته عالٍ، واثق:
- لو سمحت يا دكتور...أنا عايز حاجة للصداع!
نظر له عاصم - تعرّف عليه فوراً. جسده تيبس قليلاً، لكنه أخفى ذلك بسرعة. نظر نحو على بسرعة:
- لو سمحت يا علي...ممكن تروح البيت عندي... تجيب العشا؟
رفع على نظره باستغراب - لماذا الآن؟ لكنه لم يسأل:
- حاضر يا دكتور...بس من فضلك... كلمهم في التليفون! علشان أنا بفضل أنادي كتير على مدام حضرتك... لحد ما ترد عليا!
أومأ عاصم برأسه بسرعة:

- خلاص... ماشي يا علي! بس يلا بسرعة... ورانا شغل كتير! وأنا هموت من الجوع!
خرج على من الصيدلية، لكنه نظر لنونِش نظرة طويلة - حذرة.
لاحظ نونِش النظرة، لكنه تجاهلها تماماً. وقف ثابتاً، ذراعاه متشابكتان على صدره.
ما إن خرج علي واطمأن عاصم أن لا أحد يسمعهما، حتى نظر لنونِش. صوته كان متوتراً:
- إيه يا نونِش؟ فيه إيه؟
اقترب نونِش من الكاونتر، استند عليه بثقة. صوته كان عالياً
- إزيك يا دكطور؟
كان نونِش بطبيعته ينطق التاء طاءً - عيب نطق واضح، لكنه لم يكن يخجل منه.
نظر له عاصم بتوتر أكبر:
- إزيك يا نبيل... يا نونِش...خير؟ في حاجة حصلت؟
هز نونِش رأسه بهدوء، ابتسم ابتسامة عريضة:
- لأ... أنا كنت عايز برشام!
شعر عاصم بالتوتر يزداد. حاول ألا يُظهر أنه ملهوف على بيع البرشام. تظاهر بالمفاجأة:
- برشام؟ إنت لحقت خلصت اللي خدته؟
ابتسم نونِش ابتسامة أعرض، ضحك ضحكة عالية:
- فيه إيه يا دكطارة؟ الحبايب كتير! أعمل إيه بقي الناس اللي متعشمين فيّا؟
لوّح عاصم بيده بسرعة، نظر نحو الباب بحذر:
- خلاص، خلاص! إنت هتحكيلي حكاية! على قرب يجي! عايز قد إيه؟
ابتسم نونِش ابتسامة عريضة، نظر لعاصم مباشرة:
- عايز بلاستيكة!
تجمد عاصم. حاول ان يخفى سعادته، مؤشرات سرعة الانتشار بدءت تجنى ثمارها، عيناه اتسعتا، تماسك:
- إيه؟! عايز ألف حبة؟! كتير قوي عليك كده يا نونِش!
لوّح نونِش بيده باستهانة:
- كتير إيه يا دكطرة؟ دي يا دوب حبة منها هوديهم للواد طعمية... أخويا في الحجز! أصله اتمسك من كام يوم... والدنيا وحشة قوي عنده في الحجز! نشفة زي المستشفى! خليه... يسترزق! بدل ما هو قاعد كده في الحجز... لا شغلة ولا مشغلة! حتى يجيب أجرة المحامي...ويغطي مصاريفه... ومصاريف البت خطيبته! وباقي

البلاستيكة... همشي بيه نفسي! أجيب مصاريفي أنا كمان! إنت عارف فانلة برشلونة دي بكام؟ دى أصلى! والكوتشي الأديداس ده بكام؟
انفجر عاصم - لكن بصوت منخفض، مكتوم، خطير:
- الله يخرب بيتك! أخوك في الحجز... مقبوض عليه...وعايز توديله برشام جوه القسم؟! إنت كده هتودينا في ستين داهية! إنت إيه... مبتفهمش؟!
انفجر نونِش ضاحكاً - ضحكة عالية، صادقة، كأن عاصم قال نكتة:
- هاهاهاها! داهية إيه يا دكتور؟ ده برشام! يعني مش قضية! العيال بتطحنه وتشده تعمل دماغ تعدى يومها، إمال لو قلتلك بودرة... هتعمل إيه؟
تماسك عاصم، ولكنه لم يظهر ذلك:
- بودرة إيه يا كتلة؟! هو أنا وش كده؟ إنت فاهم إيه؟ البرشام ده بضاعة زيادة عندى! وبنوزعها كده علشان ملهاش ورق! علشان كده بنبيعها بسعر رخيص! قبل تاريخ صلاحيتها ما ينتهي.
رفع نونِش يديه بحركة مطمئنة، ابتسامة واسعة على وجهه:
- ما أنا فاهم! إنت ليه واخد عني فكرة غلط يا دكطور؟ ده أنا أفديك برقبتي! الموضوع وما فيه إننا جايلك سكة! البرشام بقي عليه طلب! بقي ليه زباين يا ما! الناس بتاخد البرشام علشان تبقى سندال قدام مشاكل حياتها! بقي هو السحر اللي بيحل مشاكلهم الصحية! مش إدمان... ولا مخدرات! يعني... مش كيف!
هدأ عاصم قليلاً. أدرك أن نبيل لا يعى انه أدمان، نظر له بفضول:
- إيه سندال دي كمان يا نونِش؟
اتسعت عينا نونِش باستغراب، انفجر ضاحكاً:
- متعرفش سندال؟! هاهاهاها! إمال تعليم إيه وكشاكيل إيه؟ على العموم... هقولك! إنت شوفت دكان حداد قبل كده؟
ابتلع عاصم غضبه، جاهل يسخر من تعليمه! بعد أن سخر منه مينا منذ قليل؟ حاول كتم انفعاله، أجاب بصوت هادئ:
- آه... شوفت! مخدناهاش في المدارس... منك نستفيد!
لم يلتقط نونِش السخرية. أكمل بحماس:
- شوفت الكتلة الحديد الكبيرة اللي عند الحداد؟ اللي بيدق عليها الحديد السخن...بالمطرقة الكبيرة قوي دي؟
تنهد عاصم، أومأ برأسه:
عاصم: آه... شوفتها! لخص!

رفع نونِش سبابته بحماس:
- بس... أقف ننزل هنا! هي الحديدة دي بقي... اسمها سندال!
أومأ عاصم برأسه ببطء - فهم:
- آه... فهمت! بس السندال ده إيه علاقته بيك؟
انفجر نونِش ضاحكاً مرة أخرى، ضرب على الكاونتر:
نونِش: علاقته؟ هاهاهاها! متجوزين عُرفي! هاهاهاها! إيه يا دكتور...
بقولك إن البرشام بيخلي الواحد عامل زي السندال! يتحمل أي حاجة تخطر على بالك ممكن تحصله! وخصوصاً ضرب المباحث! يجعل كلامنا خفيف عليهم!
أومأ عاصم برأسه - فهم الآن:
- فهمتك! طب ما تقول كده من الأول؟ قصدك يعني... بيزود القدرة على التحمل؟
لوّح نونِش بيده ساخراً:
- قدرة ولا بقدونس! هاهاهاها!
رفع عاصم يده بحدة، وجهه أصبح جدياً تماماً:
- بس بقي! ها... عملت إيه في اللي اتفقنا عليه؟
أصبح وجه نونِش جدياً، أومأ برأسه:
- متقلقش! أنا صيتك في المنطقة عندنا كلها! كل اللي عايز برشام من طرفي...هيجي يقولك: عايز كيسين شامبو...وبالباقي... برشام صداع!
ابتسم عاصم ابتسامة راضية:
- تمام... عليك نور! كويس إنك لسه فاكر! وأهم حاجة... يقول كيسين شامبو! وأنا عند وعدي معاك! ليك تخفيض محترم على الكمية اللي هتاخدها! وليك نسبة من أي كمية هيخدها حد من طرفك!
صفق نونِش بيديه بحماس:
- طب فين بقي يا دكطرة؟ ادخل عليا بالشغل!
استدار عاصم بسرعة، نظر حوله بحذر. ثم ذهب للخلف، فتح خزانة:
- الشغل... آه، آه! كمية عمرها ما طلعت لحد غيرك! لكن إنت مش أي حد! إنت نونِش حبيبي!
أخذ نونِش الكيس، رفعه بيد واحدة بسهولة - قوي. فتحه بسرعة، نظر بداخله:
- ودي الكاشات... عدّهم؟
نظر لعاصم بمكر:
- ودي تيجي؟ هو أنا هعد وراك برضه يا نونِش؟ الدار أمان!

أغلق عاصم الكيس، أخفاه تحت تي شيرته الواسع. ابتسم ابتسامة عريضة:
- أتبخر أنا بقي! سلام بريحة معطرة على أحلى دكطرة!
استدار، مشى نحو الباب بخطوات واثقة. لوّح له عاصم، ابتسامة متوترة على وجهه:
- سلّم يا نونِش!
خرج نونِش من الصيدلية، اختفى في حشد الشارع - كأن شيئاً لم يحدث.
بقي عاصم واقفاً خلف الكاونتر، ينظر للباب المغلق. نونِش. جاهل. عنيف. خطير. لكنه أيضاً...أهم شخص لدى عاصم. يستطيع أن يروّج البرشام بشكل سريع. على نطاق أوسع يرضي طموحات عاصم. يحقق له ربحاً مادياً ضخماً. وخصوصاً في مرحلة الانتشار...لا بد أن يكون هناك تنازلات. بعض الثغرات البسيطة. بعض المخاطر.
همس عاصم لنفسه، صوته كان مليئاً بالشك:
- نونِش متخلف لكن نموذج لتنفيذ خطة مينا بكل حزافيرها...
انفتح الباب، دخل علي ممسكاً بأكياس الطعام، رائحة الطعام الطازج تملأ الصيدلية.
لكن عاصم لا يزال شارد تماماً ينظر للباب، عقله يدور:
نونِش سلوكه الهمجي، كلامه العشوائي، عدم اكتراثه. هل من الممكن أن يكون هناك مشاكل من وراء معرفته له؟ أم أن نونِش به من الخبث ما يجعله حريصاً في تعاملاته؟ أن كل ما يظهره من عشوائية هو مجرد قناع؟
لكن رغم كل ذلك وأهم ما يميزه... أنه ليس لديه أي سوابق. هذا ما يطمئن عاصم نوعاً ما. رجل نظيف - قانونياً على الأقل.
وضع على الطعام على الكاونتر. نظر لعاصم الذي لم يشعر بوجوده بجانبه.
- السلام عليكم...
لا رد. رفع صوته قليلاً:
- العشا يا دكتور عاصم!
خرج عاصم من شروده فجأة، كأنه استيقظ من حلم:
- ها؟
نظر لعلي باستغراب. ابتسم على ابتسامة خجولة:
- العشا يا دكتور! أنا جبت الأكل! وبرضه حضرتك يا دكتور... نسيت تتصل بالبيت عندك! وأنا فضلت أنادي كتير قوي... لحد ما المدام بتاعت حضرتك ردت عليا!
ضرب عاصم على جبهته بيده، نظر لعلي باعتذار:

- آه! أنا فعلاً ميت من الجوع! ومعلش يا علي... جه كام زبون... ونسيت خالص أتصل! يلا بينا... ناكل لقمة قبل ما حد من الزباين يدخل علينا!
لكن على لم يتحرك. وقف ثابتاً، ملامح الاستغراب تكسو وجهه:
- هو... نونِش كل ده كان لسه هنا؟
تجمد عاصم للحظة. ابتلع ريقه بصعوبة. ثم أجاب بسرعة، بصوت هادئ:
- لأ... ده خد علاج ومشى! ورجع رجعة... وخد علاج تاني مكانه!
نظر له على بعمق. هز رأسه ببطء:
- مش عارف ليه... مش برتاحله!
لوّح عاصم بيده بسرعة، حاول تغيير الموضوع:
- متشغلش دماغك بيه! آه... قبل ما أنسى! بكرة... معلش هتقف لوحدك في الصيدلية آخر النهار! علشان عندي مشوار مهم! أنا عارف إن بكرة عندك محاضرات كتير...بس معلش... تعال على نفسك بكرة بس!
أومأ على برأسه بسرعة، ابتسامة مطمئنة على وجهه:
- مفيش مشكلة! أول ما أرجع من الكلية... هاجي على الصيدلية على طول! وأبقى أفضل صاحي... لحد ما أرجع من الكلية تاني يوم عادي!
نظر له عاصم بامتنان حقيقي - أو ربما مصطنع. قرر تشتيت تفكيره، جعله لا يفكر في نونِش. اقترب منه، ربت على كتفه بحنان، ابتسم ابتسامة دافئة:
- تعرف يا علي... بيعجبني فيك إنك فيك روح المسؤولية! بتعتمد على نفسك في مصاريف دراستك...غير شباب اليومين دول خالص!
احمر وجه على قليلاً من الخجل. نظر للأرض، ابتسم ابتسامة خجولة:
- الفضل بعد ربنا يرجعلك يا دكتور! إنت واقف جنبي... وخيرك مغرقني!
رفع عاصم يده بسرعة، هز رأسها رافضاً:
- بس... بلاش كلام خايب! إنت بتشتغل... وده مقابل شغلك يا علي!
وبعدين... يلا نكمل أكل قبل الأكل ما يبرد! بقولك جعان!
فتح الأكياس، رائحة الطعام الشهية ملأت المكان:
- طعم الأكل تجنن!
جلسا معاً الصيدلي والمساعد، المعلم والتلميذ، المستغِل والضحية.
بدأا يأكلان بصمت في البداية - جوع حقيقي، طعام ساخن لذيذ. لكن عقل عاصم لم يتوقف عن التفكير - نونِش، ألف حبة، القسم، أخوه. مخاطر. كثيرة جداً.
حياة عادية. لكن تحت السطح... شبكة معقدة من الجريمة والاستغلال والخوف.

(٦)
تجنيد فئات المجتمع

في نفس الليلة

كافية الكابتن

واحد من أكبر الكافيهات في المنطقة، معلم من معالمها.
أمام الكافيه، مساحة واسعة من الأرض - كان أرضاً فارغة، مهملة.
لكن فوزي - مالك الكافيه - استغلها بذكاء:
كراسي بلاستيكية موزعة بعناية - عشرات منها، ربما مئة أو أكثر، أشجار نحيفة مزروعة بين الكراسي - توفر ظلاً خفيفاً، منظراً أجمل شاشات كبيرة معلقة في كل زاوية - لعرض المباريات، المصارعة، أي شيء رياضي
أصبحت تلك المساحة وضع يد - جزء لا يتجزأ من الكافيه.
حوّل الكافيه من مجرد مقهى عادي إلى أشهر كافيه كروي في المنطقة والمناطق المجاورة.
جميع رواد الكافيه يحبون فوزي ولقبه الكابتن - ليس فقط لأنه المالك، بل لما يتمتع به من أسلوب راقٍ في التعامل. لا يصرخ في وجوه الزبائن، لا يحتقر أحداً، يعامل الجميع باحترام - الغني والفقير، المتعلم والجاهل.
في وقت قصير، أصبح الكافيه مركز تجمع جميع الأنشطة الرياضية بالمنطقة.
رجل في أواخر الأربعينات. طويل نحيف، وجه مربع حاد الملامح، عيون ذكية حادة. شعر أسود كثيف بدأ يتخلله الشيب عند الصدغين. شارب كثيف مهذب بعناية. يرتدي قميصاً رياضياً لنادي الأهلي - فريقه المفضل - وبنطلون رياضي أسود، حذاء رياضي مريح.
كان فوزي يلعب في أواخر الثمانينات - في أحد أندية الدوري الممتاز.
موهبة حقيقية. لاعب واعد. مستقبل مشرق. لكنه لم يأخذ فرصة حقيقية للظهور - ظلم، محسوبية، سوء حظ. ثم... الإصابة. إصابة في الركبة - قاسية، مؤلمة، نهائية.
انتهى المشوار الكروي. انتهى الحلم.

لكن فوزي لم يستسلم. قرر تدريب أشبال المنطقة - الأطفال الصغار الذين يحلمون بما حلم به. عمل فرق للمشاركة في البطولات المختلفة والدورات الرمضانية. عرض لاعبين يملكون موهبة حقيقية على الأندية الكبيرة.
أنقذ أحلام الآخرين. قرر فتح هذا الكافيه ليكون- مركزاً للأمسيات الرياضية - بعيداً عن المقاهي التقليدية المملة، مركز تشجيع لفريقه المفضل بالمنطقة، نقطة تجمع لمباريات المنتخب القومي، على الرغم من انشغال فوزي بكرة القدم معظم الوقت، إلا أنه مولع أيضاً بحب السياسة.
خريج كلية الحقوق. لكن بسبب كرة القدم، لم يعمل يوماً في مجال المحاماة.

العائد المادي للكافيه ملائم جداً لطموحاته، وخصوصاً بعد بداية تشفير المباريات وحلقات المصارعة الحرة. التشفير أدى إلى زيادة دخل الكافيه إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف. الناس لا تستطيع مشاهدة المباريات في البيت تأتي للكافيه، تدفع، تشاهد، تشرب، مصائب قوم عند قوم فوائد.
جلس فوزي على كرسيه المخصص له، كرسي خشبي كبير مريح، في أفضل مكان أمام الكافيه، يرى كل شيء، يتحكم في كل شيء. يحمل كوب شاي، يراقب العمل، وجهه متجهم قليلاً. فجأة، أطلق صيحة بصوت عالٍ:
- واد يا مازيوتا!
من داخل الكافيه، صوت شاب يرد بسرعة، شاب متوسط الطول، في منتصف العشرينات. أسمر البشرة بشدة لهذا أُطلق عليه مازيوتا نسبة للمازوت، نحيف، اكتسب مهارة حراسة المرمى منذ الصغر - موهبة حقيقية، ردود فعل سريعة، شجاعة في مواجهة الكرة، لكن والده كان قهوجياً، فاكتسب منه المهنة. ظهر يركض نحو فوزي، عيناه محمرتان دائماً - من قلة النوم أو من التدخين الزائد أو ربما شيء آخر لكن، أدمن التدخين منذ الصغر - سجائر، ثم النرجيلة، ثم أشياء أخرى.
أصبح يجرب أي شيء من المخدرات - حشيش، برشام، أي شيء يصل ليده. في اعتقاد منه أن هذه الأشياء ليس لها تأثير على صحته - جهل، غباء، ضياع. لم يُقبل في أي نادٍ بسبب مشاكل في التنفس - الإدمان دمر رئتيه. يتمسك به فوزي نظراً لموهبته الكبرى في حراسة مرمى فريقه في الدورات. موهبة ضائعة..
- ايوه... جاي! نعمين يا أبو الكباتن!
نظر له فوزي بحدة، عيناه ضيقتا:

- أنا مش عارف ليه حاسس إن خراب الكافيه ده...هيكون على إيدك إنت والواد باجيو!
وقف أمام فوزي، عيناه متسعتان بقلق صوته خشناً من كثرة التدخين:
- ليه بس يا كابتن؟ إيه اللي حصل؟
استند فوزي على ظهر الكرسي، بدأ يعدد الشكاوى:
- كل يوم يطلع عجز في العدة! الكوبيات بتختفى، وباجيو فاتح على الرابع في التموين! كيلو السكر اللي كان بيعمل أربعين، خمسين كوباية شاي... دلوقتي من يوم ما وقف على النصبة...كيلو السكر ما بيعملش غير تلاتين كوباية! وأنا طالما قالفار لعب في عبي، يبقى فيه حاجة غلط! أنا بس اللي مصبرني عليكم... إن هو مهاجم الفريق في الدورات الرمضانية وماتشات التحدي مع فرق المناطق التانية... وإنت الجون! نفسي تشتغلوا بزمة زي ما بتلعبوا كورة! مهاجم بيعرف يجيب جون كده في لمسة...وإنت جون مفيش بعد كده! لكن آخركم في الملعب نص ساعة... وشكراً! لولا السجاير والبلبعة... كان زمنكم بتلعبوا في أحسن أندية! عرفت أنا مستحملكم ليه؟ لكن كده كتير قوي عليا! مش علشان الكورة تخربوا بيتي!
أمسك مازيوتا بقطعة قماش، بدأ يمسح مكتب فوزي بعصبية:
- يا كابتن... إنت فاهم غلط!
-الكوبايات اللي ناقصة من العدة...دي اللي بتتكسر... مش مننا! دي بتتكسر بسبب شلة الهتيفة بتوع ماتشات الكورة! اللي إنت طالع بيهم السما! وعجز السكر ما بيحصلش إلا لما الشلة دي بتكون موجودة! وده علشان الشلة دي على طول بتشرب شاي سكر زيادة... عسل نحل! وإنت يا كابتن اللي قلت: محدش يزعلهم... وكل طلباتهم مُجابة!
نظر له فوزي بحدة تدل على عدم اقتناعه:
- يعني خلاص... بقت المشكلة في الشلة بتوع الماتشات؟ ماشي يا مازيوتا! إما نشوف آخرتها معاك إنت وباجيو!
رفع مازيوتا يديه مستسلماً:
- أوامرك يا كابتن!
فجأة، صوت من داخل الكافيه ينادي:
- يا مازيوتا!
التفت بسرعة:
- ايوه... جاي!

اختفى مازيوتا بسرعة داخل الكافيه، تاركاً فوزي يجلس وحيداً، يهز رأسه بحزن. شباب ضائع. موهبة مهدرة. مستقبل مجهول.
الباب انفتح بقوة. دخل نونِش - جسده الضخم يسد المدخل. توجه مباشرة نحو الكابتن، ابتسامة عريضة على وجهه:
- أحلى مسا على أحلى كابتن في تاريخ مصر... إسكندرية... الصحراوي!
ابتسم فوزي رغم نفسه - نونِش دائماً يضحكه:
- تاريخ مصر إسكندرية الصحراوي؟ مقبولة منك يا نونِش، حلوة القلشة!
جلس نونِش على كرسي بجوار فوزي، استند بثقة:
- تعرف يا كابتن... إن أحلى جون شوفته ليك... اللي جبته في الأرجنتين في كأس العالم ٩٣...اللي كان بيتلعب في الصين!
ابتسم فوزي رغماً عنه - بلاهة كلام نونِش، مدى جهله الفاضح:
- هاهاهاها! إنت مش هتتغير يا نونِش... أبداً! أولاً... أنا عمري ما لعبت في المنتخب! ومليش أجوان متصورة فيديو أصلاً! ولا منتخب مصر الكبير لعب مع الأرجنتين في كأس العالم أصلا! ده غير إن مفيش كأس عالم اتلعب في الصين أساساً!
وقف نونِش، عيناه اتسعتا من الصدمة، حك رأسه بحيرة:
- إيه ده... بجد؟ يبقى ده كان إيه... حلم؟ بس إنت... بالصلاة على النبي... موسوعة كروية! دارس وفاهم! الظاهر الواحد لازم يشرب كوباية شاي تقيلة...يظبط دماغه... علشان كده التوهمات مسكت الواحد!
ضحك فوزي بصوت أعلى:
- توهمات؟! إنت هتنسيني الكلام!
صرخ نحو الكافيه:
- نزّل يا مازيوتا! كوباية شاي تقيل... سكر بره... لنونِش! على حساب الكافيه!
نظر لنونِش بجدية، اقترب منه، بحزم:
- بقولك إيه يا نونِش... أوعى تنسى، اعمل حسابك في ماتش كمان يومين!
وعايز شلة الماتشات تكون مجلجلة في الاستاد! عايز صوتهم يخلع المدرجات! وكله بحسابه... غير حلاوتك بعد المكسب!
صفق نونِش بيديه بحماس، ابتسم ابتسامة عريضة:
- متقلقش يا موسوعة! قبل الحكم ما يصنفر بنص يوم... هتلاقينا في الملعب! مولعين الدنيا تشجيع!
هز فوزي رأسه، وضع يده على جبهته:

- والله دماغك هى اللي عايزة تتصنفر! عايزك قبل الماتش بساعة... مش نص يوم! ثم... إنت عارف يعني إيه نص يوم أصلاً؟
رد نونِش بثقة تامة:
- نص يوم... يعني من أول ما الشمس تقول: أنا جيت!
ضحك فوزي رغم نفسه، هز رأسه:
- ربنا يشفيك! انت هربانة منك خالص كده.
فجأة، تذكر نونِش شيئاً مهماً. رفع إصبعه:
- طب... أهم حاجة! الوجبات... أوعى تكون فول وطعمية! هتلاقي الشلة بتنخ من أول ضربة مرمى!
ابتسم فوزي ابتسامة طمأنينة:
- اطمن! الوجبات فراخ مشوية بالعيش والسلطات! أنا عايز هتافات تحمس اللعيبة! الماتش ده مهم جدا في ترتيب الدوري!
قفز نونِش من مكانه، عيناه اتسعتا:
- فراخ مشوية؟! ده الشلة هتشيل اللعيبة... تلف بيها الملعب لو تحب! ايوه كده يا كابتن... يا عالمي! أنا لو من الفيتا... أديك جايزة الكاوتش الذهبي!
وضع فوزي يده على وجهه، هز رأسه، انفجر ضاحكاً:
- فيتا دي جبنة يا نونِش! اسمها الفيفا! وكاوتش إيه يا راجل يا منفوخ؟ هاهاهاها!
مسح دموع الضحك من عينيه:
- إنت مشكلة يا نونِش! ضحكتني في عز ما الصنايعية معكرين دمي! يلا... ادخل اشرب الشاي! وسيبني أشوف شغلي!
صرخ نحو الكافيه:
- فين يا مازيوتا شاي نونِش؟
وقف نونِش، لوّح بيده ابتسم:
- ماشي يا كابتن! أسيبك... وأروح أجيب جون في حتة تانية! أحلى مسا عليك يا موسوعة!
بدأ يمشي نحو الكافيه، ثم استدار، اختفى داخل الكافيه.
بقي فوزي جالساً وحيداً، ينظر للشارع. شباب ضائع. جيل محطم. أحلام مدفونة. لكن الفقر... والجهل... والمخدرات...
من داخل الكافيه، صوت نونِش يرتفع - صوت غاضب، غير صبور:

- فين الشاي يا مازوتة؟
نظر له مازيوتا، ثم نظر في اتجاه باجيو، شاب آخر يعمل في الكافيه، أطول من مازيوتا، أكثر امتلاءً، وجهه مستدير، عيناه صغيرتان ماكرتان. لقب بباجيو، لانه يشبه في مهارته لاعب منتخب إيطاليا الشهير روبرت باجيو
رفع مازيوتا صوته:
- وعندك واحد شاي وصايا لنونِش!
تحرك باجيو بسرعة، بدأ يحضر كوب الشاي. وضعه فوق صينية، ثم نظر لمازيوتا:
- خد الشاي أهه! وشوف مع نونِش كده... ربع حباية دماغي هتنفجر من المستورد!
لم يكن يعلم انه عقار الترامادول، أو ربما يعلم ولكنه لا يعبء بأى شيء هو أمثاله، سوى أن أي شيء يجعله في عالم السكينة الوهمية لابد أن يكون تداوله خلسة، أخذ مازيوتا الصينية، اقترب من باجيو، خفض صوته:
- ومين سمعك يا باجيو؟ وبالذات بعد ما الكابتن عكر دمي بكلامه السمع! علشان الكوبايات والتموين...الظاهر إنه ابتدى يحس إن إحنا بنعمل مصلحة من وراه في التموين! بس أنا توهته! وقلتله إن الشلة بتاعت الكورة... هما السبب! وخليته بلاعها!
نظر له باجيو بسخرية:
- هي فين المصلحة دي؟ دي كلها ملاليم! وبعدين... أنا مش عارف دماغ نونِش فيها إيه؟ إيه لازمة الكام حباية اللي بيخلينا نحطهم في الشاي للشلة؟ ونفضل نحط في سكر علشان نضيع مرارة الشاي وطعمه مايتغيرش؟ مش أحنا أحق بيهم.
ضحك مازيوتا ضحكة خفيفة، ربت على كتف باجيو:
- على رأيك...ده الشلة أول ما مفعول البرشام بيشتغل...تلاقيهم طول الفرجة على الماتش تنطيط! ولا كإنهم في الاستاد! والكافيه كله يترج! والكابتن بيقى مبسوط... ويقولك: سيبوهم على راحتهم!
رفع مازيوتا الصينية بسرعة، نظر لباجيو:
- هروح لنونِش أجس نبضه! في حبايتين تلاتة... بالطريقة! إيوه... جاي!
مشى بسرعة نحو نونِش، وضع كوب الشاي أمامه:
- أحس كوباية شاي... لأحسن نونِش في القرية الأرضية!
نظر له نونِش بضيق:
- إيه يا مازيوتا؟ كل ده بتجيب كوباية شاي؟
رفع مازيوتا يديه باعتذار:

- معلش يا نونِش...أصل الكابتن لسه ماسح بيا البلاط... أنا وباجيو! علشان الشلة بتاعت الكورة!
ضاقت عينا نونِش، اقترب من مازيوتا:
- ليه؟ أوعى يكون عرف حاجة؟ أسفلتك.
هز مازيوتا رأسه بسرعة:
- لأ... متخافش! بس كان بيتكلم على إننا بنحرق سكر كتير...أكتر من العادي في الأيام اللي فيها شلة الكورة بتتجمع هنا! قبل ما تروح الاستاد... أو علشان تتفرج على ماتش كورة! أصل باجيو بيحطلهم سكر كتير، علشان طعم الشاي مايتغيرش! هو بيظبطه بقي... معرفته! وده كله علشان خاطرك يا نونِش! بس... لو أعرف إنت بتستفاد إيه من كده؟
ابتسم نونِش ابتسامة عريضة، ربت على كتف مازيوتا بقوة:
- عفارم عليك يا عبيط! ياد الشلة دي أنا بجمع فيها بقالي كتير! وكل يوم الشلة بتزيد! والحماسة اللي عندهم... هي اللي بتعمل لهلبة في الماتشات! والبرشام بيخليهم يطلعوا كل الطاقة اللي جواهم! والحماس في التشجيع!
لكن مازيوتا هز رأسه بقلق:
- حماس أيه بس... دول بيكسروا الكوبايات كل مرة يا نونِش! والكابتن يقعد يقطم فينا إحنا!
نظر نونِش حوله بحذر، تأكد أن لا أحد يراقبهم.
أخرج شيئاً من حقيبته الجلدية بسرعة - شريط برشام كامل، لامع تحت الضوء، دس الشريط في يد مازيوتا:
- معلش... أي حاجة فداية! خد ده مسيلي على نفسك وعلى الواد باجيو!
شريط كامل أهه! لو تعرف أنا ببديك إنت وهو على نفسي! حاجة من بلاد الماتشات المشفرة.
ثم أخرج شريطاً آخر:
- وشريط كمان... علشان الشاي بتاع الشلة! بس أوعى تقلل من البرشام في الشاي! بعدين أزعل منك! وهيبان على الشلة على طول! كمان يومين فيه ماتش... والكابتن محتاج العيال للتشجيع في الاستاد! هجمعهم هنا... نشرب الشاي التمام... ونطلع على الاستاد!
اتسعت عينا مازيوتا - شريطان كاملان؟

- شريط كامل؟! عشر حبايات ليا أنا وباجيو! كده زقطتت! ده لسه باجيو كان هيتجنن على ربع حباية! وأنا كمان جبت آخري من كتر طلبات الزباين!
ربت نونِش على كتفه بقوة، ابتسم:
- شوفت؟ علشان تعرف معزتك عندي! لسه وصلني دلوقتي...وأول حد فكرت فيه... إنت وكمان باجيو! ياد... إنت أخويا زي طعمية تمام!
وضع مازيوتا يده على صدره، صوته كان مليئاً بالامتنان:
- تعيش المجدعة! إلا صحيح... هو مفيش أخبار جديدة عن طعمية؟
هز نونِش رأسه:
- أنا رايح كمان شوية أزوره في الحجز! وأشوف الدنيا فيها إيه!
نظر نبيل نحو الباب:
- طب يلا... شد إنت يا مازيوتا! علشان الواد زجزاجي جاي علينا!
رفع مازيوتا صوته بمرح:
- إيوه... جاي! مين قال مازيوتة... ولا الكل جاله زُغطة؟
ترك نبيل، توجه لتلبية طلبات زبائن الكافيه.
حماده، أو كما يطلق عليه زجزاجي.
شاب في منتصف العشرينات، نحيف جداً - كالعصا. طويل، سريع الحركة، عيناه صغيرتان حادتان كالفأر يتيم الأب - نشأ في السوق.
كانت أمه تبيع خضرة وبقدونس. تعلم التجول بطبق به بخور - يبخر دكاناً أو فرشة سيدة تبيع الخضار مقابل نقود بسيطة. سريع - جسمه النحيف يجعله صعب اللحاق. من هنا جاء اللقب زجزاجي.
مشجع كرة، دائماً ما يتم الرهان مع أحد رواد القهوة على فوز فريق على حساب الآخر. مدمن لعب قمار أو الكوتشينة. يعتقد أن الكوتشينة ليست قماراً، وإنما تسلية.
سوابق - مسجل نشل. اتجه لبيع البرشام بعدما أدرك أن مكسبه سريع وسهل... وبعيد عن أي تصادم برجال الشرطة.
ابتسم زجزاجي ابتسامة عريضة، جلس أمام نونِش:
- نونِش كبيري وكبير الكبير!
أومأ نونِش برأسه، أشار للكرسي:
- إزيك يا زجزاجي؟ اقعد! كويس إنك جيت دلوقتي!
وقف زجزاجي بسرعة، رفع يديه:
- باصيلي وأنا شوت يا كبيري!

ابتسم نونِش:
- طب تشرب إيه الأول... علشان تلين السمانة؟
لوّح زجزاجي بيده بسرعة:
- ولا أي حاجة! أنا جايلك في هجمة مرتدة... وأمشي على طول!
أومأ نونِش برأسه:
- طب... شوت قبل ما الحكم يصفر! وصحيح قبل ما أنسى... بعد البلنتات ... عايزك تيجي معايا... نروح نزور طعمية في الحجز!
وضع زجزاجي يده على رقبته، صوته كان مليئاً بالحماس:
- بس كده... رقبتي! ده طعمية زي أخويا! قوللي أرمي نفسك في الأوفسيت... أرمي على طول!
هز نونِش رأسه ساخرا، لوّح بيده ومحذرا:
- لأ... فوء في الأوفسيت! مفيش أجوان! ها قولى بقي... كنت عايز إيه؟
اقترب زجزاجي، خفض صوته:
- أبداً... مزنوق في بطرمان أحمر!
فهم نونِش فوراً. نظر حوله بحذر، أخرج من جيبه ثلاثة شرائط من البرشام. مدها لزجزاجي بسرعة:
- بس كده... أربعة وعشرين حباية! خد أهم... قبل ما حد ياخد باله! دول تلات شرايط... يعني معاك تلاتين حباية! والخمس شرايط دول... هتفوت على سمسم في محل الكشري! تقوله: صنعهم في علبتين كشري! وأديله الحبيتين دول... وقوله: نونِش بيقولك أحلى مسا عليك! هو هيفهم الباقي!
وضع زجزاجي يده على صدره، صوته كان مليئاً بالامتنان المبالغ:
- مش عارف... جدعنتك ضربة حقنة غير مباشرة! عايز كام يا كبيري من زجزاجي المزاجي؟ أخوك الصغير!
ابتسم نونِش ابتسامة ماكرة:
- مش قولت أخويا الصغير؟ يبقى تمنهم وصل!
هز زجزاجي رأسه بسرعة:
- لأ يا كبيري... مش هينفع! علشان يبقى ليا عين أجي أطلب تاني! مش كل مرة! وعلى رأي المثل: إذا كان حبيبك عسل...كله بعيش... بس بيشويش بيشويش!
ضحك نونِش ضحكة قصيرة، أومأ برأسه، بدأ يحسب:

ماشي يا زجزاجي! دول بتسعين جنيه! وعلشان إنت بتاكل فيهم عيش...تمانين جنيه بس!
نظر له زجزاجي بذهول - فمه انفتح، عيناه اتسعتا. بدأ يحسب بسرعة، قال بصوت خافت، محتد، غير راضٍ:
- تسعين جنيه؟! يعني الحباية واقفة بتلاتة جنيه؟! والشريط أصلاً في الصيدلية بتلاتة جنيه! كتير قوي كده يا كبيري!
ابتسم نونِش ابتسامة واثقة - ابتسامة من يعرف أنه يملك السلطة:
- لو تعرف تروح الصيدلية تجيب شريط نس الدماغ دى...هات وأنا آخد منك! ده مستورد مخلوط أفيو، وأكيد أنت فهمان وعارف أننا كده عامل معاك واجب!
ضعفت هذه الجملة ثقة زجزاجي تماماً. أدرك أنه لا يستطيع المساومة أكثر من ذلك.
تنهد بيأس، أخرج المال من جيبه على مضض:
- ماشي يا كبيري...تمانين جنيه... أهم!
مد النقود لنونِش، ثم أضاف بصوت خافت:
- أول ما تيجي تروح لطعمية... هتلاقيني واقف على ناصية الشارع!
أخذ نونِش النقود، عدها بسرعة، وضعها في جيبه.
ثم ابتسم - رجع لروح الدعابة المشهور بها، محاولاً تلطيف الأجواء مرة أخرى:
- من خد وده... صار الخال خاله! يالا... شد ومد! خليك تلحق زباينك!
ابتسم زجزاجي ابتسامة متوترة:
- أحلى حاجة إنك فاهمني! سلام يا كبيري... يا أبو المفهومية!
خرج زجزاجي من الكافيه بسرعة - جسده النحيف يتحرك بزجزاج بين الطاولات، ثم اختفى في الشارع. انزوى نونِش جالساً وحيداً. رفع كوب الشاي، بدأ يشربه ببطء. نظر حوله الكافيه مزدحم، الناس تتحدث، تضحك، تشاهد التلفاز. حياة عادية. لكنه هو...يبيع السم. يوزع الإدمان. يدمر الشباب. لكنه لم يفكر في ذلك. فكر فقط في المال.
جالت عينا نونش في أرجاء المقهى، تنقلت نظراته بين الوجوه المألوفة، ثم استقرت عيناه على هدفه. هناك، في الزاوية البعيدة، جلس الأستاذ صلاح منفردًا. كان يحتسي كوب شايه ببطء، ذراعه الأيمن مطوية على الطاولة، ونظراته شاردة في الفراغ، تحرك نونش بخفة ماكرة، انزلق بين الطاولات حتى وصل إلى طاولة صلاح. جلس أمامه مباشرة دون استئذان، ورسم على شفتيه ابتسامة عريضة من ذلك النوع الذي يثير الأعصاب بمجرد النظر إليه، بصوت مفعم بالحيوية المصطنعة:

- إزيك يا أستاذ صلاح؟
رفع صلاح عينيه ببطء من كوب الشاي، كمن أُزعج من تأملاته. ارتفع حاجبه الأيمن قليلاً، وانشدت ملامحه على بعضها في تعبير واضح عن عدم الترحيب. أخذ نفسًا عميقًا، احتبسه في صدره لحظة، ثم أطلقه في زفير محمل بالضيق، بنبرة جافة:
- إزيك يا نونش... خير؟ عايز إيه؟
كانت كل خلية في جسده تنضح بالانزعاج من هذا الظهور المفاجئ.
لكن نونش - الذي إما لم ينتبه أو تعمّد التجاهل - اتكأ إلى الأمام على الطاولة، وضرب بكفه عليها ضربة خفيفة جعلت كوب الشاي يرتعش قليلاً، وقال بنبرة براءة مفتعلة:
- أبدًا يا أستاذ! أنا لقيتك قاعد لوحدك كده، قُلت أجي أسلّيك...أوعى تكون زعلان عشان غلبناكم في الدوري الماتش اللي فات؟
وهذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. احمر وجه صلاح في غمضة عين، حتى كادت أسنانه تصطك، واتسعت حدقتاه بغضب مكبوت على وشك الانفجار. بصوت يخنقه الغيظ:
- حاجة تحرق الدم! في عز ما إحنا ماسكين كورة وبنلعب أحسن... بردو إنتو تغلبوا؟! حظ إيه ده بس؟!
كان يتكلم وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا في حركات عصبية، عيناه متسعتان، وفي أعماقهما ألم المشجع الوفي الذي يخذله فريقه مرة تلو الأخرى.
نونش - الذي حقق هدفه في الاستفزاز - تراجع قليلاً إلى الخلف، ورفع يديه الاثنتين في حركة تهدئة مبالغ فيها، كفاه مفتوحتان أمام صدره، وابتسامة صغيرة ماكرة لا تزال تلعب على شفتيه:
- ماتزعلش يا أستاذ صلاح... الكورة فاعل ومفعول!
هز صلاح رأسه بيأس عميق، وانطبقت شفتاه تعبير عن الإحباط الشديد:
- شوفت؟! هو ده التخلف الكروي! في منك كتير والاسم مشجعين كورة... بلا خيبة! اسمها غالب ومغلوب! مش فاعل ومفعول!
نونش ساخرا:
- إنت مش مدرس عربي؟! يبقى فاعل ومفعول به كمان! إنت فاكرني جاهل؟ أنا طالع من تانية إعدادي! ولو كنت كملت، كنت بقيت مدرس ألعاب قد الدنيا
ضحك صلاح ضحكة قصيرة ساخرة، صوت خرج من أنفه أكثر منه من فمه. سعل على أثرها، هز رأسه وهو ينظر إلى نونش بنظرة فيها شفقة ممزوجة بسخرية لاذعة، وقال بنبرة استهزاء:

- مدرس ألعاب مرة واحدة؟! كويس إنك ماقُلتش هتدرب المنتخب الوطني!
انفجر نونش في ضحكة مجلجلة، صوتها ملأ أرجاء المقهى، وضرب بكفه على فخذه بقوة جعلت الصوت يتردد صداه:
- هاهاها! حلوة منك يا أستاذ صلاح! أيوه كده يا ضمير المتكلم والغائب!
سكت نونش فجأة، وضاقت عيناه وهو يتفحص وجه صلاح بتمعن. مد رأسه إلى الأمام قليلاً، ونظراته تفحصت ملامح الرجل بدقة:
- بس إنت مالك؟ شكلك مش عاجبني خالص...
ارتخت ملامح صلاح فجأة، كأن قناعًا سقط عن وجهه. تلاشت الصلابة التي كانت تكسو ملامحه، وحل محلها إنكسار واضح. أنزل بصره إلى الأسفل، وسرح في الفراغ لثوانٍ، ثم أخذ نفسًا طويلاً عميقًا واحتبسه في صدره، قبل أن يطلقه في زفير بطيء محمل بالتعب. وضع يديه على ركبتيه، وبدأ يتحسسهما بحنان وحذر، بدأ يتكلم بصوت فيه نبرة تعب وانكسار لم يكن موجودة من قبل:
- آه... أنت خدت بالك؟ الواحد باين عليه كِبر بقي يا نونش... هناخد زماننا وزمن غيرنا...الصحة مبقتش زي الأول خالص... ولولا الالتزامات اللي على الواحد... والبيتين المفتوحين... كنت بطلت الدروس الخصوصية دي خالص. الواحد أصلاً بقي يقف على رجليه بالعافية...
وبينما كان يتحدث، استمرت يده في التحسس على ركبته اليمنى بحركة دائرية بطيئة حنونة، وكأنه يطمئن على صديق عزيز يودعه ببطء.
في الحقيقة، صلاح ليس مدرس لغة عربية كما يظن نونش الجاهل، بل هو مدرس دراسات اجتماعية. رجل داخل في عتبة الخمسين، تجاوزها بقليل، طويل القامة، لا يزال جسده يحتفظ ببنية رياضية نسبيًا رغم مرور السنين وثقل الأعباء. شعره الأسود الخشن بدأ الشيب يغزوه من الجانبين، مُعلنًا انتصار الزمن. متزوج من امرأتين، والاثنتان - بإجماع سكان المنطقة - من أجمل نساء الحي. ليس الجمال في الملامح فحسب، بل في الجسد الممشوق الذي يتحرك برشاقة غزال، وفي طريقة ارتدائهن للعباءات السوداء التي تثير الخيال أكثر مما تستره. اختارهما صلاح بعناية الصائغ وهو ينتقي أثمن الجواهر - كان الهدف الأول والأخير عنده إشباع رغباته الجنسية التي لا تهدأ. على الرغم من شهوته الجامحة للنساء، فهو رجل متدين بطريقته الخاصة المتناقضة. لا يقبل بعلاقات الحرام مهما كانت الإغراءات، ولا حتى يفكر فيها. يكتفي بالتمتع بمشاهدة أجساد النساء في الشارع، عيناه تتجول بنهم

مكبوت، وخياله يشتعل بقوة، وحين تسيطر عليه الشهوة ويغلي دمه، يختار بين زوجتيه لقضاء ليلة مثالية - على حسب ما يرسمه له خياله الملتهب.
الاتفاق بينه وبين زوجتيه واضح وصريح هو يوفر لهما حياة اجتماعية كريمة، لا يتزوج مرة ثالثة، ولا يخونهما مع أخرى... مقابل أن يهتما بأنفسهما ورشاقتهما، ويكونا جاهزتين لإشباع رغباته الجنسية في أي وقت ومكان وتحت أي ظرف. صفقة واضحة، عقد محكم، كل طرف يعرف دوره بدقة. يصلي الفروض الخمسة في المسجد، لا تفوته صلاة. هوايته المفضلة لعب الطاولة ومشاهدة مباريات الكرة. مولع بفريقه الذي لسوء حظه المزمن ينهزم أمام غريمه التقليدي بنسبة كبيرة جدًا في آخر عشر سنوات. ورغم الهزائم المتكررة المؤلمة، يفضل مشاهدة المباريات وسط الزحام والصخب في المقهى. المقهى بالنسبة له أكثر من مكان، إنه ملجأ لتجديد الطاقة، مهرب من ضغوط الحياة ومتطلبات الزوجات والأولاد التي لا تنتهي. لكي يسد احتياجات بيتيه الاثنين، اتجه إلى الدروس الخصوصية منذ أيام شبابه. ذاع صيته حتى أصبح أشهر مدرس دراسات اجتماعية في المنطقة وما جاورها. استطاع ادخار أموال جيدة، لكن المقابل كان قاسيًا ومهينًا: لا يحق له رفض طلب أي من زوجتيه للفراش، مهما كانت الظروف، مهما كان متعبًا أو مريضًا. ظل على هذا الحال سنوات طويلة، حتى جرى به قطار العمر بسرعة مخيفة. بدأت علامات الكِبَر تطرق على باب جسده بقوة، لكنه يرفض الاستسلام بعناد الجبال. لديه نظرية يؤمن بها كإيمانه بالقدرالرجل يموت حين تضعف قدرته الجنسية، مهما بلغ من العمر. طبيبه الخاص عند الشعور بالإرهاق هو أكل الكباب والكفتة، أو الجمبري والأسماك. لا يدخن السجائر، لكن لا يمنع نفسه من تدخين الحشيش بين الحين والآخر لإخراج الطاقة السلبية من الحياة على حد اعتقاده. يحافظ على هيبته كمدرس وسط الناس بشدة، ولذا يكن له جميع رواد المقهى كل التقدير والاحترام.
انتهز نونش قلق صلاح على صحته، فاستدركه بسرعة البرق، قرّب جسده أكثر، ولمعت عيناه بمكر الثعلب:
- ماتقولش كده يا أستاذ صلاح! إنت لسه شباب! دي تلاقيها شوية رطوبة في العضم، وهتروح لحالها...طب إيه رأيك في اللي يدلك على اللي يطلّع الرطوبة دي من العضم؟
رفع صلاح رأسه بسرعة مفاجئة، كأن تيارًا كهربائيًا مر في جسده. اتسعت عيناه، ولمعة أمل ساطعة ظهرت في أعماقهما. بلهفة وصوته امتلأ بحماس اليائس الذي وجد خيطًا من نور:

- بجد؟! إيدي على كتفك! فين؟! قوللي بسرعة!
ابتسم نونش ابتسامة المنتصر، ابتسامة الصياد الذي نصب شبكته ورأى الفريسة تقترب. اتكأ إلى الخلف براحة، وبدأ يحكي بثقة الممثل المحترف:
- إمبارح وأنا بلعب كورة، عملت واحدة دبل كيك... وقعت على كتفي، رحت لدكتور، حبيبي زيك كده يا أستاذ صلاح... أداني برشام خلاني أحسن من الأول! وكتفي اهو قدامك... حديد!
تسمّرت عينا صلاح على كتف نونش المتحرك، فمه انفتح قليلاً من الدهشة والفرحة المختلطة بالترقب. قلبه دق بقوة في صدره... أمل! أمل جديد! علاج محتمل لحالته! أمسك بذراعي نونش بيديه الاثنتين، وهزه بلهفة، وسأله بصوت مليء بالترقب الشديد:
- واسمه إيه الدكتور ده؟! قوللي، وأنا أروحله بكرة الصبح!
وضع السؤال نونش في مأزق حقيقي، في ورطة لم يحسب لها حسابًا. شعر كأن الأرض انشقت تحت قدميه فجأة. عيناه رمشتا بسرعة متتالية، كأنهما تبحثان عن مخرج في الفراغ. ابتلع ريقه بصعوبة، وكأن في حلقه حجرًا خشنًا. بدأ يتكلم بصوت متقطع، حروفه ترقص على لسانه كمن يمسك جمرًا ملتهبًا:
- ها؟ لا... لا ماتتعبش نفسك إنت...أصله... أصله عيادته بالحجز... ومش قبل شهر! مش بقولك دكتور كبير؟
وبسرعة البرق، قبل أن يطرح صلاح أي سؤال آخر، أدخل نونش يده في جيبه بحركة عصبية سريعة، وأخرج شريط برشام صغيرًا. لوّح به في الهواء بحركة مسرحية مبالغ فيها، كالبائع في السوق وهو يعرض بضاعته على الزبائن:
- خُد إنت البرشمتين دول! مش هتلاقيهم في الصيدلية إلا بروشتة وفيلم طويل... ومش أي دكتور هيكتبلك عليه! عشان الأدوية التانية اللي مفعولها تعبان تتباع... إنت معايا؟ عالم عجيبة! حتى المرض بيتاجروا فيه!
- خُد حبايه دلوقتي وحبايه بكرة... ولو حسيت إنك أحسن، تعالالي وأنا في الخدمة! يالا ابلع... وهتبقى بومب!
ظل صلاح جالسًا في مكانه، عيناه نصف مغمضتين، يدرس نونش بدقة المحقق. كان يقرأ كل حركة، لكن الأمل - ذلك الأمل اللعين القاتل كان أقوى من الشك. الأمل الذي جعله يتشبث بقشة في وسط البحر المتلاطم. صوته منخفض، محاولاً أن يبدو صارمًا، لكن كان واضحًا أنه ضعيف أمام الإغراء:
- أوعى يا نونش... أوعى يكون البرشام ده حاجة كده... ولا كده...

لم يقدرعلى إكمال الجملة، الكلمات عالقة في حلقه بين الخوف والرجاء.
نونش - الذي رأى هذا الضعف كما يرى الذئب الشاة الجريحة - استغله على الفور.
رفع يده في الهواء بحركة درامية مبالغ فيها، ووجهه تحول فجأة إلى قناع البراءة المجروحة:
- عيب يا أستاذ صلاح! هو أنا هضرك يعني؟! يالا، خُد الحباية دى على كوباية ميه وادعيلي!
التفت نحو الداخل ونادى بصوت عالٍ يقطع ضجيج المقهى:
- ولا يا مازيوتا! كوباية ميه بسرعة للأستاذ صلاح!
وفي تلك اللحظة، جاء صوت من خارج المقهى، يقطع المشهد كالسيف:
- يا نونش!
التفت بسرعة مذهلة نحو مصدر الصوت، حدد المتكلم... ابتسامة واثقة واسعة:
- أيوه يا أسطى عزت! جايلك اهه!
أدار وجهه بسرعة نحو صلاح، ونظر إليه نظرة وداع سريعة، مبتسما.
- خدها يا أستاذ صلاح! متخفش هتبقى بومب...بس يا خوفي تتجوز التالتة!
وانفجر في ضحكة عالية مجلجلة ملأت أرجاء المقهى:
-هاهاها! أسيبك وأروح أشوف المعلم عزت مقاول البنا عايز إيه... سلام!
رفع صلاح يده بحركة بطيئة متعبة، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ممتنة.
- ماشي يا نونش... سلام لحد ما أشوفك تاني...ومتشكرين على جميلك ده... يالا روحله، يمكن يكون عايزك في مصلحة شغل.
- ماتشكرنيش يا أستاذ صلاح! لا جميل ولا حاجة... أنا بس عايزك تدعيلنا نكسب الماتش الجاي ونحسم الدوري بدري بدري! سلام!
ضحكته ارتفعت مجددًا، تتردد أصداؤها في أرجاء المقهى:
خرج نونش من المقهى كالريح، تاركًا وراءه صلاح جالسًا وحيدًا على الطاولة. عاد صمت الزاوية البعيدة من المقهى، لكنه كان صمتًا مختلفًا هذه المرة.
نظر صلاح إلى القرص الصغير في يده، قلّبه مرات عدة بين أصابعه. قرأ الاسم المكتوب عليه بالإنجليزية مرارًا، كأنه يحاول فك شيفرة سرية. هل يسأل عن دواعى أستعمال هذا العقار الدوائى، أم أنه بذلك يفضح أمره بيده، في قلبه تصارعت مشاعر متناقضة: أمل يائس، وشك حذر، وخوف خفي، ورغبة جامحة في أن يكون الحل بهذه البساطة. ابتلع القرص مع قليل من الماء. وفي أعماق عينيه، رقصت آخر شرارة من شرارات الأمل... أو ربما كانت أول شرارة في طريق الضياع.

توجّه نبيل صوب عزت بخطواتٍ واثقة، تتهادى على وجهه ابتسامةٌ عريضة، مدّ ذراعه في حركةٍ احتفائيةٍ تفيض بالوُدّ المُصطنع:
- إزيك يا معلم عزت!
لكن عزت لم يكن في مِزاجٍ يُطيق المُجاملات. لم يردّ التحية، بل اندفعت يده كسهمٍ مُنطلق، أمسكت بذراع نونش في قبضةٍ حديديةٍ مُفاجئة، جذبته نحوه بحركةٍ عنيفةٍ جعلت المسافة بينهما تتلاشى. صوته انبعث خافتاً لكنه يحمل في طيّاته تهديداً مكتوماً، كجمرةٍ مدفونةٍ تحت الرماد:
- إيه يا نونش؟! إنت فين؟! مش قولتلك تفوت عليا في البيت أول ما تجيب الحاجة؟!
انتفض نونش، سحب ذراعه بعصبيةٍ ظاهرة، تبدّلت ملامح وجهه في لمح البصر من الابتسامة إلى العبوس، وانطلق صوته حاداً كشفرة السكين:
-إيه يا معلم عزت؟! إنت داخل حامي كده ليه؟! أنا لسه راجع بالحاجة وقلت أشرب كوباية شاي وبعدين أفوت عليك الدنيا ما طارتش يعني!
استنشق عزت نفساً عميقاً، ارتفع صدره ثم هبط كمنفاخٍ قديم، أغمض عينيه لحظاتٍ معدودة يُصارع فيها شياطين غضبه الداخلية، يُحاول أن يُلجم جموح انفعاله. ثم فتح عينيه من جديد، جالت نظراته في أرجاء المكان بحذر الثعلب، يتفحّص الوجوه المحيطة، يتحسّس من عيونٍ قد تتنصّت أو آذانٍ قد تُصغي. عاد بناظريه إلى نونش، وقال بصوتٍ تشوبه نبرة إرهاقٍ عميقة، كأنه يحمل فوق كتفيه جبال الدنيا:
- طب... فين الحاجة؟ متزعلش مني يا نونش... بكرة عندنا صبة سقف كبيرة...وإنت عارف الصنايعية دلوقتي... قبل ما حد منهم يغير هدومه والخلاطة تدور... لازم نص حباية 'الاصطباحة' تحت لسانه! ومنهم دلوقتي اللي لازم ياخد حباية كاملة...أعمل إيه؟! هي دي الحاجة الوحيدة اللي بتخليهم يشتغلوا زي البهايم! البرشام عندهم بقي أهم من الأكل والشرب!
ارتسمت على شفتَي نونش ابتسامةٌ ضيقة، ماكرة، محسوبة بدقة، أدخل يده في جيبه ببطءٍ مُتعمَّد، أخرج شريطاً من الحبوب المُخدّرة، لوّح به أمام عيني عزت بحركةٍ بطيئةٍ مُغرية، كأنه صيادٌ يُلوّح بالطُعم أمام السمكة الجائعة:
- متقلقش... الحاجة موجودة... بس الشريط بقي بأربعين جنيه.
كانت هذه الجملة كالصاعقة التي تشقّ سماء صيفٍ هادئ. احمرّ وجه عزت في غمضة عين، كأن الدم اندفع إليه دفعةً واحدة، اتسعت عيناه حتى كادتا تخرجان من

محجريهما، انفتح فمه في ذهولٍ ممزوجٍ بالغضب، تشنّجت عضلات رقبته وبرزت كالحبال المشدودة:
- إيه أربعين جنيه؟! ليه يا نونش؟! إنت بتمسكني من إيدي اللي بتوجعني!
انطلق صوته عالياً قليلاً، كاد يخترق ضجيج المقهى
كان نبيل يتوقّع هذا الانفجار ويستعدّ له، رفع كتفيه بلامبالاةٍ مُستفزة:
- تؤ تؤ... ده بقي الكلام اللي يزعل... هو أنا أقدر؟ دانت حبيبي... لكن الحاجة كل يوم بتغلى عليا وعليك.
عضّ عزت على شفتيه حتى كاد يُدميهما، استنشق نفساً عميقاً:
- بقي كده... أعمل إيه؟ غصب يا رب...طب بقولك إيه... شوف لي شريط كمان.
لمعت عينا نونش ببريقٍ جشع، كعينَي ذئبٍ اشتمّ رائحة فريسة. الصفقة تضخّمت، الربح تضاعف. اتسعت ابتسامته قليلاً، لكن صوته ظلّ محتفظاً ببرودته المُعتادة:
- كده هيبقى الشريط بخمسين جنيه.
- كمان؟!
صرخ بها عزت بصوتٍ مكتوم، محاولاً ألا يجذب الانتباه، وضع يده على رأسه في حركة يأسٍ مسرحية:
- لا... كده استغلال! إنت كده بتبيع بنفس سعر الواد زجزاجي! واقف هناك على الناصية بيبيع الحباية بخمسة جنيه! أروح أشتري منه وخلاص!
تكثّف التوتر في الهواء. بدأت المساومة الحقيقية، ونونش كان لا يزال مُمسكاً بخيوط اللعبة كلها. لكن نونش، الذي لم يتعلّم يوماً الاستسلام بسهولة ابتلع صدمة التهديد بسرعة البرق. استنشق نفساً عميقاً، شدّ ظهره منتصباً، ورسم على وجهه قناعاً من الهدوء والثقة المُصطنعين. نظر إلى عزت بنظرةٍ باردة ثاقبة، صوته انبعث منخفضاً ومُتماسكاً كالصخر:
- زجزاجي بيبيع الحباية بخمسة جنيه؟ طب ما تروح تاخد منه... لكن لو لقيت عنده مرة، مش هتلاقي التانية... وساعتها هترجعلي أقولك 'منين كان فيه وخلص'...أصل أنا اللي ينفضلي قيراط... أنفضله فدان! ده غير إن حباية زجزاجي ممكن تطلع 'فيشنك' مضروبة يعني...لكن أنا بديك حاجة أصلي... الأصلي من بلادها!
انهزم عزت كالعادة أمام هذه الحُجة الدامغة. الحُجة قوية، والحاجة كانت أقوى وأمرّ. مسح على وجهه براحة يده المُتعبة، استنشق نفساً طويلاً محمّلاً بالخيبة، ونظر إلى نونش بنظرةٍ استعطافيةٍ تمتزج فيها الهزيمة بالإرهاق:

- لا لا... وعلى إيه؟
أدخل يده في جيبه بحركةٍ بطيئةٍ ثقيلة، أخرج كومةً من الأوراق النقدية المُكرمشة، البالية، فرزها بسرعةٍ بأصابعه التي تحمل آثار الأسمنت الناشف العالق تحت أظافره، ووضعها في كفّ نونش:
— امسك حسابهم أهه... مظبوط يا بطل... بس اعمل حسابك... كمان أسبوع اعمل حسابي في علبة... عشان أنا الشغل فتح معايا... ومش عايز أخسر زبايني... والصنايعية عايزها تنجز معايا.
عدّ نونش الأوراق النقدية بسرعةٍ وبراعةٍ بين أصابعه، طواها بإتقان، وأودعها في جيبه العميق. عادت ابتسامة النصر تُزيّن وجهه، عيناه لمعتا ببريق الانتصار:
- عايز عشر شرايط مرة واحدة؟! وماله... من عنيا الجوز! إنت بردو يا معلم عزت زبوني... ها؟ زبوني! وأنا مقدرش أتأخر على زبون زيك!
ابتسم عزت ابتسامةً مُتعبة، باهتة، لا تصل إلى عينيه، هزّ رأسه بارتياحٍ ممزوجٍ بالمرارة:
- طب سلام أنا بقي يا نونش... عشان ألحق أنام ساعتين... ليلتك بقمرين.
رفع نونش يده بحركةٍ وديةٍ مُصطنعة:
- سلام... أنا كده كده ماشي معاك لأول الشارع.
كان عزت في مُنتصف الأربعينات من عمره، رجلٌ نحتته السنون بأزميل الكفاح المرير. كان في الماضي البعيد مُجرّد بنّا - عاملَ بناءٍ عادي، لكنه لم يكن من النوع العادي. كان من الصنف الماهر، الشاطر
تزوّج من ابنة خاله - امرأةٌ متواضعة الجمال، لا تُثير في القلب شهوةً ولا في العين نظرة إعجاب. له أختان من زوجة أبيه الثانية، علاقته بهما فاترةٌ.
كافح سنواتٍ طويلةً مريرة، عجافاً، تحت شمس البناء الحارقة، وسط غبار الأسمنت الخانق، حتى استطاع أخيراً أن يجمع قروشاً كافية لشراء عُدّة الواح خشبية وخلّاطة خرسانة صغيرة، وعربيةٌ متهالكة بالكاد تقف على عجلاتها، تسحب الخلّاطة بصعوبة من موقعٍ لآخر.
بعرق جبينه وألم ظهره أصبح مُقاولٍ صغير له عُدّته الخاصة وصنايعيته الذين يعملون تحت إمرته. كان الوقت مُناسباً - انفجر مجال البناء بقوة في المُدن الجديدة التي كانت بالأمس القريب صحراء قاحلة، وتحوّلت الأراضي الزراعية إلى بورٍ جاف، وبدأ الناس يبنون فيها بيوتاً وعماراتٍ كالفطر بعد المطر. أصبح عزت من أرخص

المُقاولين في حساب المصنعيّة في المنطقة والقرى المُجاورة، يُنافس بالسعر ويكسب بالكمّ.
لكن رغم هذا النجاح المادي الظاهر، رغم العُدّة والعمّال والمشاريع، كان عزت يُعاني من فراغٍ داخليٍّ مُدمّر، من تعبٍ نفسيٍّ لا يُشفى. كان كل يومٍ يُعبّر عن عدم رضاه عن زوجته - إما بأفعالٍ غير مُبرّرة في البيت، أو بحديثٍ مع نفسه بصوتٍ منخفضٍ عندما يكون وحيداً، يُناجي شياطينه الداخلية، يلعن حظّه، يتحسّر على شبابه الضائع.
أما هوايته المُفضّلة التي كان يُخفيها عن الجميع هي مُشاهدة أفلام شرائط الفيديو... خصوصاً الأفلام الجنسية التي يستأجرها خِلسةً من محلّ أشرطة الفيديو. تلك الشرائط الذي ادخلها البلاد صبحي البنهاوى، وتم توزيعها على محل نوادى الفيديو توزيعا مدروس بعناية، كان يشاهدها بعد أن ينام كل مَن في البيت، عيناه ملتصقتان بالشاشة الصغيرة، يبحث في تلك الصور المُتحرّكة عن شيءٍ ضائعٍ لا يجده في واقعه، عن رغبةٍ مكبوتة.
ترك نونش عزت مقاول البناء، وانطلق نحو منزله بخطوات سريعة واثقة. وصل إلى بيته، أخفى البضاعة بعناية في مكان آمن لا يعرفه سواه، ثم خرج مجددًا متوجهًا نحو ناصية الشارع.
وقف عند الناصية، ونظر حوله حتى رأى زجزاجي يقف بجوار موتوسيكله القديم المهترئ. نادى عليه بصوت واضح:
- زجزاجي! تعال، عايزك!
رفع زجزاجي رأسه بسرعة، وابتسم ابتسامة عريضة حين رأى نونش. ركض نحوه بحماس:
- أيوه أيوه! جايلك يا كبيري! إيه؟ يالا بينا!
-عملت اللي أنا قُلتلك عليه؟
- كله تمام يا كبيري! الحاجة اهه! أديني بس ثانية إلا ثانية، أدور الماكنة نروح بيها!
-لا! ملوش لزوم! هنروح كعابي... علشان عايزك في كارفه.
-اللي تشوفه يا كبيري! يالا بينا!
بدأ الاثنان المشي جنبًا إلى جنب، متوجهين نحو قسم الشرطة. كانت الشوارع شبه خالية، والليل قد أرخى سدوله على المنطقة. بعد دقائق من الصمت، فتح نونش فمه وسأل بنبرة عابرة:
- بقولك أيه يا زجزاجي... إنت بتبيع الحباية بكام؟

توقف زجزاجي عن المشي لحظة، والتفت نحو نونش بدهشة واضحة. بدأ يهرش في فروة رأسه بحركة عصبية، رد فعل تلقائي ساخر على اندهاشه من السؤال المفاجئ:
- لازمته إيه السؤال ده يا كبير؟ هو بقي فيه ضرايب على البرشام ولا إيه؟ يعني... على حسب الزبون... أنا ورزقي!
انتهز نونش ارتباكه، وقرر أن يطرق الحديد وهو ساخن. قال بنبرة مباشرة حاسمة:
- من غير لف ودوران... أنا سامع إنك بتبيع الحباية بخمسة جنيه!
نزلت كلمة خمسة جنيهات على زجزاجي كالصاعقة. ارتعشت شفتاه، واتسعت عيناه، وتلجلج صوته:
- إيه؟! مين اللي قالك كده؟! بُص... مش لكل الناس! حسب الهوى وحالة الزبون!
لم يعلق نونش، بل سأله سؤالاً آخر بنبرة هادئة:
- طب قوللي... فاضل معاك كام حباية؟
بدأ القلق يتسلل إلى قلب زجزاجي. لماذا كل هذه الأسئلة؟ بنبرة مستنكرة:
- إيه يا كبيري؟ إنت مال أسئلتك كترت ليه؟ هما حبايتين! مفيش غيرهم! لو مزنوق فيهم، أهم!
ابتسم نونش ابتسامة عريضة، وربت على كتف زجزاجي بحنان مصطنع:
- يعني إنت تقريبًا عملت خمسين جنيه في ساعة زمن! تعجبني دماغك!
أخرج من جيبه شريط برشام صغير، ولوّح به في الهواء، وبنبرة أخوية:
- امسك الشريط ده! هدية مني ليك! علشان تعرف إني مش بحسدك... وبتمنالك الخير على طول السطر! إنت جدع ياد، ومعايا من زمان... على المسكرة والمسخة... علشان مكناش بنلاقي حتة المرة! بس أنا عايزك تشغّل دماغك أكتر من كده!
هدأت ملامح زجزاجي، وشعر بالراحة من طريقة كلام نونش. صفق بيديه فرحًا، وقال بحماس:
- أشغل ... بس يعني إيه؟! وأنا أفولهالك بنزين ستة وتسعين!
ابتسم نونش ابتسامة الانتصار، وشعر أنه بدأ يسيطر على عقل زجزاجي. - من غير لماضة! افتح شبابيك مخك على البحرى... وخلي الشمس تدخل جوه النفوخ... وفتح ودانك!
توقف لحظة، ليزيد من التشويق، بدأت عينا زجزاجي تتسعان ببطء، ثم أكمل:
- بُص... أنا شايف إن لازم يكون فيه صبيان تقف على النواصي في المنطقة... وإنت تترق! عايزك إنت اللي تسرح العيال دي! ده يقف فين، وده فين! والمكسب... بدل ما يكون خمسين جنيه... يبقى خمسمية جنيه!

وممكن يوصل لألف جنيه كمان... وإنت وشطرتك! دماغك لو دارت وغيّرتلها الزيت... بدل الماكنة... هيبقى عندك عربية واتنين!
فتح زجزاجي فمه على آخره. فكه السفلي نزل في ذهول تام، عيناه تجمدتا في مكانهما، والكلام خرج منه كهمس مبهور:
- ألف جنيه؟! إزاي؟!
ابتسم نونش ابتسامة الساحر الذي يوشك أن يكشف خدعته الكبرى. مال على زجزاجي، وخفض صوته قليلاً، ليصبح أكثر حميمية وإثارة:
- آه... ألف جنيه! أقولك إزاي؟ إنت هتشوف كام عيل من العيال الصيع بتوع المنطقة... بس العيال الرجالة... الجدعان! ونعمل لكل عيل يومية... غير مزاجه! واليومية هتكون بالإنتاج... ليه على الحباية جنيه! يعني لو كل عيل باع في اليوم عشر شرايط... يعني هيوزع مية حباية... هيعمله مية جنيه! وإنت مية جنيه قصادها! يعني لو شغّلت عشر عيال... هتعملك بالميت ألف جنيه! ده غير شغلك إنت!
شعر زجزاجي أن دماغه سينفجر من كثرة الأحلام. عيناه لمعتا ببريق الطمع الواضح، قلبه دق بسرعة جنونية في صدره، نفسه تقطع من الإثارة:
زجزاجي (بصوت مختنق):
- إيه ده؟! بالسهولة دي؟! بس ده محتاج كشات كتير عشان الكميات و ...
قاطعه نونش بسرعة البرق، كمن كان يتوقع هذا السؤال بالضبط. رفع يده في الهواء بحركة طمأنة:
- متقلقش من الحتة دي! الفلوس بعد التوزيع!
أخذ زجزاجي نفسًا عميقًا، والراحة غمرته كموجة دافئة. هذا يعني أنه لا توجد مخاطرة كبيرة! ابتسم ابتسامة عريضة، زاد حماسه، وبدأ يتكلم بسرعة، والكلمات تتدفق من فمه كالس:
- إذا كان كده... ماشي! لو على العيال... عندي بدل الواحد مية! العيال الضريبة... والحشاشين... واللي معاهم شهادات ومش لاقين شغل... والبؤس حاط عليهم بالكوم! وابن مين يتمنى يلاقي حاجة رايقة كده... يعرف يجيب منها جنيه ويفتح بيت! بدل ما القهاوي وشرايط الفيديو كلت دماغهم!
توقف زجزاجي فجأة، ونظرته تغيرت. عاد القلق يتسلل إلى قلبه:
- بس... البضاعة... فيه يكفي التنفيذ؟ ولا بعد كده بح خالتي وخالتك هناك على القهوة؟
ربت نونش على كتفه بثقة مطلقة:

- متقلقش على البضاعة... البضاعة موجودة! بس عايزة تكتيك مدرب أجنبي في التوزيع! حضّر إنت بس رجالتك... وقوللي!
ضحك زجزاجي ضحكة قصيرة منتصرة، وصدره انتفخ بفخر:
- أحضّر مين؟! الرجالة حضرت خلاص! من بكرة جاهزين... على النواصي... وعلى القهاوي!
هز نونش رأسه بارتياح واضح:
- وأنا مش عايزك تقلق ولا تجيب ورا! البضاعة هتكون عندك بكرة... ونكمل بعدين باقي التكتيك بعد ما نطلع من عند الواد طعمية... عشان إحنا وصلنا خلاص!
سيطرت مشاهد الثراء على عقل زجزاجي المحموم - مشاهد من أفلام الفيديو التي شاهدها آلاف المرات في المقاهي الرخيصة: عربيات فارهة تلمع تحت الشمس، بيوت كبيرة واسعة ذات أثاث فاخر، فلوس كثيرة تملأ الجيوب، نساء جميلات حوله يبتسمن له، حياة الرفاهية والنعيم... كل هذا أصبح قريبًا، في متناول يده، على بُعد خطوات قليلة فقط!
أما نونش الذي كان يمشي بجانبه في صمت، عيناه لمعتا بجشع واضح فقد بدأ يحدث نفسه بصوت منخفض بالكاد يُسمع، شفتاه تتحركان بالحسابات:
-...أنا باخد الشريط من دكتور عاصم بعشرة جنيه... بدل ما هو حقه تلاتة جنيه... يبقى هو بيكسب في الشريط سبعة جنيه...وأنا كده هكسب في الشريط عشرين جنيه... يعني قد عاصم تلات مرات! يبقى لو زجزاجي وزّع بلاستيكه في اليوم... هو يكسب ألف جنيه... وأنا ألفين جنيه صافي... وأنا حاطط رجل على رجل! كده تبقى عنب قوي!
وهكذا، في ظلام ليلة عادية، على رصيف شارع شعبي، نُسجت خيوط مؤامرة شيطانية. اثنان يمشيان جنبًا إلى جنب، كل منهما يحلم بالثراء، وكل منهما يحسب أرباحه في عقله.
لكن لم يدر أي منهما أن ما يزرعانه الآن ليس بذور الثراء، بل بذور الدمار. بذور ستنبت لتصبح أشجارًا سامة تلتف حول أعناق الشباب العاطل، وتخنق أحلامهم، وتسحق أرواحهم.
كانا يظنان أنهما يبنيان إمبراطورية، بينما كانا في الحقيقة يحفران قبورًا... قبورًا لأنفسهما على الأقل لضمائرهم، وقبورًا لكل من سيقع في شباكهما.
انبعث صوتٌ قويٌّ جافٌّ رسمي من أمام باب قسم الشرطة، يقطع أحلام اليقظة كالسيف:

- رايح فين يا نونش؟!
أفاق نونش من شروده فجأة، كمن صُفع على وجهه بماءٍ مُثلج. رمش بسرعةٍ مُتتالية، التفت نحو مصدر الصوت. تذكّر في لمحة بصرٍ أنه يقف أمام قسم الشرطة! أزال الابتسامة من على وجهه في ثانيةٍ واحدة، وارتدى ابتسامةً عريضةً مُصطنعة، وردّ بصوتٍ مليءٍ بالاحترام المُتكلّف:
- باشا! عم عفيفي! أحسن أمين شرطة في القسم... والمديرية كمان!
وقف عفيفي - الشاويش ذو الجسد الممتلئ - عند الباب، ينظر إلى نونش بنظرةٍ فاحصةٍ ثاقبة. عيناه تنظر في شكٍّ وريبة، وجهه لا يُبدي ترحيباً:
- هات من الآخر يا نونش... وسيبك من اللي إنت جاي فيه ده... السكة دي مقفولة!
رفع نونش يديه الاثنتين عالياً في حركة براءةٍ مُبالغ فيها، كالمُتهم الذي يُعلن براءته:
- أبداً يا باشا! جايب لقمة كده... على قد اللحاف للواد طعمية، يصلب بيها طوله! وإنت أبو المفهومية... وحاجة كده بسيطة يقلب بيها عيشه جوه بردو... إنت عارف... مابخبيش عليك حاجة!
عضّ عفيفي على شفتيه، نظر حوله بحذرٍ مَرَضي، صوته نزل إلى همسٍ حادٍّ مُتوتر:
- يعني هو يقلب عيشه... وإحنا نكح تراب؟!
ابتسم نونش ابتسامة المُنتصر الذي عرف أن الباب انفتح. أدرك أن عفيفي دخل اللعبة. قال بصوتٍ يفيض بالتملّق والمكر:
- تراب؟! إزاي؟! أمال مين اللي ياكل قشطة؟! معاش ولا كان يا بشوية!
ده أنا مأخر نفسي مخصوص لحد دلوقتي... لحد ما إنت نوبتشيتك تبدأ!
أدخل يده الأخرى في جيبه، أخرج شريط برشام، لوّح به بسرعةٍ أمام عين عفيفي كالسّاحر:
- امسك كده... ده شريط برشام مقويات جنسية!
التفتت عيناه يميناً وشمالاً بسرعة البرق، يتأكد أن لا أحد يراهم، ثم أكمل بصوتٍ منخفضٍ وهو يغمز بعينه غمزةً فاضحة:
- سيبك من المرهم بتاع العيال السود والرش... ده من الآخر... أقولك إيه؟ هيخليك حديد صلب مسلح!
غمز مرةً أخرى، لكن هذه المرة لزجزاجي - الذي كان واقفاً صامتاً متجمّداً، قلبه يدقّ بقوةٍ مُرعبة، جسده كله مُتوتر من مجرد وجوده أمام قسم الشرطة. أي شيءٍ له رائحة الشرطة كان يُرعبه حتى النخاع.

تناول عفيفي الشريط بسرعةٍ جشعة، أخفاه في جيبه، ونظر إلى نونش بنظرةٍ فيها طمعٌ غير مُستتر:
- بحبك... وإنت فاهمني... بس ده محتاج أكلة كفتة معتبرة معاه!
ضحك نونش ضحكةً قصيرةً سريعة، مدّ يده في جيبه الآخر، أخرج ورقة عشرين جنيهاً، مدّها لعفيفي:
- بس كده؟! يا سلام... إنت جيت في جمل! وأدي كمان حتة بعشرين!
تناول عفيفي الورقة بفرحةٍ واضحة لا يُخفيها، كرمشها بسرعة، ووضعها في جيبه الآخر - الجيب الذي يبدو واضحاً أن فيه أوراقاً نقديةً أخرى مُكرمشة بنفس الطريقة.
ابتسم ابتسامة راضية مُشبعة:
- بتحرجني إنت كده يا نونش! تعال بقي أما آخدك تشوف أخوك... ولو إن الزيارة خلصت من نص ساعة!
التفت نونش إلى زجزاجي، أشار له بيده:
- تعال يالا يا زجزاجي!
نظر عفيفي إلى زجزاجي لأول مرة - نظرةً سريعةً عابرة، غير مُهتم، كل ما يشغل باله حصل عليه بالفعل:
- وده مين ده كمان يا نونش؟
-ده زجزاجي... صاحبي وأخويا... زيه زي طعمية... هيدخل معايا بس يطمن على طعمية!
فتح عفيفي باب الحجز - باباً حديدياً ثقيلاً يُصدر صريراً مُزعجاً يُمزّق الأعصاب - ونادى بصوتٍ جهوري مُدوٍ، مختلفٍ تماماً عن نبرة صوته العادية، صوتٌ رسميٌّ فيه سُلطة وقوة:
- اطلع يا طعمية! زيارة!
خرج طعمية من الحجز ببطء. كان شكله مُدمّراً - وجهه شاحبٌ كالموتى، عيناه مُتعبتان غائرتان، ملابسه مُكرمشة قذرة، وهناك جُرحٌ سطحيٌّ واضحٌ على خدّه الأيمن. أحسّ نونش بألمٍ حادٍّ يطعن صدره كالخنجر. ركض نحوه، ضمّه إلى صدره بقوة، يداه ارتعشتا:
- طعمية... عامل إيه؟! وإيه اللي في وشك ده؟!
وضع طعمية يده على وجهه، لمس موضع الجرح بحذر، حاول أن يبتسم ابتسامةً مُطمئنة:

- أخويا... متقلقش... أنا كويس! ده خربوش بسيط كده... كنت بلعب ماتش مع الواد صابونة... على اللي يمسك نوبتشية الحجز... وظبطه!
احمرّ وجه نونش بشدة، ضاقت عيناه حتى أصبحتا خطّين رفيعين، تشنّج فكّه، خرج صوته مكتوماً مخنوقاً بالغضب المكبوت:
- الواد صابونة؟! إيه؟! هي الفرخة كلت بيضها ولا إيه؟!
وضع طعمية يده على كتف نونش، هزّه بخفّة مُهدّئة:
- فوكك منه! قولّي إيه الأخبار؟
استنشق نونش نفساً عميقاً، حاول أن يُهدّئ نفسه، لكن الغضب ما زال واضحاً في عينيه المُتّقدتين:
- عكر دمي... ابن المتزحلقة على المسا!
مدّ نونش يده، أخرج علبة كشري، مدّها لطعمية بحركةٍ سريعة:
- خد ده... كشري... فيه خمس شرايط... الحباية على خمسة جنيه!
أخرج علبة سجائر، مدّها له أيضاً:
وعلبة السجاير دي... متصنع فيها صباعين حشيش... عايز حاجة تانية؟ تاخد فلوس تخليها معاك؟
هزّ طعمية رأسه، ابتسامته اتسعت قليلاً:
- لا... كده تمام قوي! الحباية هنا ماشية على عشرة جنيه... محدش عارف يدخل حاجة... بس كمان يومين عايز شغل تاني!
رفع نونش إصبعه بحزم:
- لا... مشيها إنت بخمسة! خلّي العجلة تدور! ولو معرفتش أجي... عشان مطلوب مني أحضّر شلة الماتشات... عشان فيه ماتش مهم... هاخدهم وأروح الاستاد... وإنت عارف... دي سبوبة كويسة... مش عايزها تضيع مني! هبعتلك زجزاجي! تعال يا زجزاجي... سلّم على طعمية!
تقدّم زجزاجي بخطواتٍ بطيئةٍ مُترددةٍ مُتوترة، مدّ يده المُرتعشة:
- إزيك يا طعمية؟ أنا قولت اسيبكو براحتكو... شدة وتزول... ربنا يفك ضيقتك!
أمسك طعمية يده، هزّها بحرارةٍ وقوة:
- متقلقش عليا! كلها فترة تحقيقات وهطلع...
ابتسم ابتسامةً فيها ثقةٌ عمياء:
- أصل أنا معايا في الأوضة محامي... جاي في سيجارة مشتعلة... وطمني!

خرج عفيفي - الذي كان واقفاً بعيداً قليلاً - فجأةً من مكانه، كمن لا يريد أن يشهد هذه اللحظة. لم يُحب أن يرى نونش يُعطي طعمية الممنوعات أمام عينيه مباشرة.
وضع يده على كتف طعمية، ابتسم ابتسامةً مُصطنعةً وهو ينظر إلى نونش:
- ها يا نونش؟ اطمنيت على أخوك؟ أنا بقول كفاية كده... متجبليش الكلام!
نظر إليه نونش بابتسامةٍ مُصطنعةٍ هو الآخر:
- ماشي يا عسلية القسم! سلام يا طعمية! وصابونة ده بقي حسابه معايا أنا!
رفع طعمية يده مُطمئناً:
- ولا يشغلك! سلام يا نونش... سلام يا زجزاجي!
خرج نونش، ودخل طعمية مرةً أخرى إلى غرفة الحجز. انغلق الباب الحديدي وراءه بصوتٍ مُدوٍّ يُشبه إغلاق قبر. فتح طعمية علبة الكشري بسرعة، أخرج شرائط البرشام، أخفاها في مكانٍ سرّي، ثم قال بصوتٍ عالٍ - مسموعٍ لكل الموجودين في الغرفة المُكتظّة:
- حد عايز أحمر؟! الحباية بخمسة... مش عشرة... كازيون! وسيجارة الحشيش بعشرة... كازيون! حد عايز ينسى اللي حبسه؟!
نادى على واحدٍ من المساجين بصوتٍ آمر:
- تعال يا ديبو! اطحن لنا حبايتين... نشدهم... عشان أنا ناوي أعمل الصح مع واحد هيعرف نفسه الليلة! وطبعاً... كل اللي في الأوضة عارفين... المرشد بيتعور فين!
توجّه نونش نحو باب القسم بخطوات واثقة، كمن أنهى صفقة رابحة. لكن قبل أن تطأ قدمه عتبة الخروج، توقف لحظة، والتفت نحو عفيفي الأمين الذي كان يقف بجانب الباب، وابتسم ابتسامة المفاوض الماهر:
- صحيح يا عفيفي باشا! هجيبلك تذكرة لابنك للماتش اللى جاى ... المهم... إنت تهتم بأخويا طعمية جوه... ومتسيبش حد يعلم عليه!
اضطرب عفيفي قليلاً، فالصفقة واضحة والثمن مغرٍ. نظر حوله بحذر، ثم قال بسرعة وهو يومئ برأسه:
- ماشي يا نونش... أخوك في عنيا! بس يالا... امشِ دلوقتي... عشان إيهاب باشا أبو المجد...هو الظابط النوبتشي الليلة... وبيشاورلي! شكله كده... قطع عليك... وشافك!
لم تتغير ملامح نونش، بل ربت على كتف عفيفي بثقة مطمئنة، وفي عينيه بريق المحتال المحترف:

- ولا يهمك! إنت تفوت في الحديد! ثبته بأي كلمتين! وأحلى مسا عليك... وعلى إيهاب باشا الظابط العسلية! صحيح... الشرطة في خدمة الشرطة! سلام!
وخرج من القسم كالريح، تاركًا خلفه عفيفي واقفًا في حيرة من أمره.
دخل عفيفي مكتب الضابط إيهاب بخطوات حذرة متباعدة. كان إيهاب جالسًا خلف مكتبه الخشبي القديم، وجهه جامد كالصخر، عيناه حادتان كشفرتي سكين، تخترقان كل من يقف أمامهما.
وقف عفيفي في وضع الاستعداد العسكري، يداه إلى جانبيه، جسده منتصب، وصوته خرج رسميًا متجردًا من أي عاطفة:
- أوامرك يا إيهاب بيه؟
نظر إليه إيهاب بنظرة ثاقبة طويلة، فاحصة، تحاول قراءة ما وراء الكلمات. صوته خرج باردًا كالثلج، حادًا كالنصل:
- اللي اسمه نونش... كان هنا بيزور أخوه... مش كده؟ وطبعاً... فوّت له حاجات شمال!
ابتلع عفيفي ريقه بصعوبة، وشعر بقطرة عرق تتكون على جبينه. حاول الدفاع عن نفسه بصوت فيه ارتباك خفي:
- لا! أنا فتشت الأكل بنفسي و...
قاطعه إيهاب بحدة، وصوته ارتفع أوكتافًا، وفي نبرته تلك النغمة التي يعرفها المخضرمون في عالم الإجرام - صوت فيه تهديد غير مباشر، لكنه واضح كالشمس:
- بقولك إيه؟ متحورش! تقب وتغطس تحت في الحجز... وتجيبلي سيجارتين حشيش من تحت طقطيق الأرض! ماليش فيه! يالا!
حاول عفيفي مرة أخرى، بنبرة استغراب ممزوجة بمحاولة يائسة:
- طب إزاي؟! هو حضرتك ليه مش مصدق إن مفيش...؟
قاطعه إيهاب للمرة الثانية، وهذه المرة كان صوته أكثر حدة وغضبًا:
- يوه! بقولك إيه؟! أنا متخانق مع خطيبتي... والدنيا ضلمة معايا لوحدها... خلص الكلام! انزل هات السيجارتين... ولا أنزل أنا أجيبهم... وساعتها إنت فاهم!
أدرك عفيفي أن الجدال لن يجدي نفعًا. لو نزل إيهاب بنفسه ليفتش الحجز، ستحدث كارثة حقيقية. خفض رأسه في خضوع، وصوته خرج مستسلمًا:
- أوامرك يا إيهاب بيه!
عاد عفيفي إلى الحجز بخطوات ثقيلة، قلبه يدق بقوة في صدره. فتح باب الحجز، فخرج طعمية ينظر إليه باستغراب واضح:

- أوامرك يا باشاوية؟
اقترب عفيفي منه، وخفض صوته إلى همس بالكاد يُسمع:
- بقولك إيه... إيهاب بيه قطع على أخوك وهو خارج من القسم... وراسه وألف سيف... عايز سيجارتين حشيش... بدل ما ينزل يدك الحجز!
شعر طعمية بالقلق يتسلل إلى قلبه. لماذا يريد إيهاب السيجارتين؟ لكنه كان مطمئنًا لعفيفي، يعرف أنه رجل لن يؤذيه. قال بصيغة سؤال، رغم أنه يعرف الحل:
- وإنت شايف إيه؟
نظر إليه عفيفي بجدية تامة:
- هات السيجارتين... وخلاص! وأنا أضمنلك إن كل حاجة تبقى تمام... أنا هتصرف بطريقتي!
هز طعمية رأسه موافقًا، وفي عينيه ثقة في عفيفي:
- وأنا مقدرش أتنيلك كلمة يا باشاوية!
دخل طعمية غرفة الحجز، توجه إلى المخزن السري المخفي تحت إحدى البلاطات، أخرج السيجارتين بعناية، وسلمهما لعفيفي.
أخذهما عفيفي، وشمهما بسعادة عارمة، الأزمة انتهت! الحل في يده! ابتسم ابتسامة عريضة:
- طب... مفيش حاجة لعمك عفيفي؟ ولا عمك عفيفي شفاف... مش متشاف؟
ضحك طعمية ضحكة خفيفة، وأخرج سيجارة ثالثة من مخبئه:
- ودي تيجي... أحلى سيجارة عشانك يا باشاوية!
أخذها عفيفي بفرحة واضحة، وعيناه لمعتا:
وضع السجائر الثلاثة في جيبه بحرص، أعاد طعمية إلى داخل الحجز، أغلق الباب بإحكام، وعاد نحو مكتب إيهاب. دخل المكتب بثقة هذه المرة. نظر إليه إيهاب بقلق واضح، خائفًا أن يكون عفيفي قد فشل في المهمة:
- ها؟! عملت إيه؟
أخرج عفيفي السيجارتين من جيبه ببطء، ووضعهما على المكتب أمام إيهاب بحركة واثقة:
- باشا... السيجارتين أهم! أنا فتشت الواد طعمية... وفتشت فرشته... هما السيجارتين دول اللي كانوا معاه... أول عن آخر!
ابتسم إيهاب ابتسامة رضا، وارتخى جسمه المتوتر، وشعر بالراحة تغمره. نجحت محاولته. قال بسخرية خفيفة:

- عايز تفهمني إنه كان معاه سيجارتين بس؟ ماشي... هعديها! سيبهم بقي على الترابيزة... وخد الباب وراك!

وضع عفيفي السيجارتين، وخرج من المكتب دون أن يعلق بكلمة واحدة. كان يعرف أنه لو تكلم، فقد تتعقد الأمور. وبهذا يكون قد أفاد واستفاد بالسيجارة الثالثة التي لم تكن في حساباته.

قام إيهاب من مكانه، وتوجه نحو الباب بخطوات بطيئة. أغلقه بالمفتاح على نفسه، وأدار المفتاح مرتين للتأكد. عاد إلى المكتب، لكنه لم يجلس خلفه، بل توجه إلى الكنبة الجلدية السوداء القديمة في الزاوية.

جلس عليها بثقل، ورفع رجليه الاثنتين ووضعهما على الكرسي المقابل. أخرج السيجارة الأولى من على الطاولة، وأمسك بها بين أصابعه، وحدق فيها لحظة كأنها تحمل حلاً لكل مشاكله.

أشعلها بالولاعة، وأخذ نفسًا عميقًا... الدخان الكثيف دخل رئتيه بقوة، ملأهما تمامًا، وأطلقه ببطء شديد. شعر بالراحة تتسلل إلى جسده المتوتر... كأن كل زفير يُخرج معه طاقة سلبية متراكمة.

لم ينتظر طويلاً. أشعل السيجارة الثانية مباشرة بعد الأولى... واحدة تلو الأخرى... دون توقف. الدخان ملأ المكتب، وتصاعد في دوائر بطيئة.

وظل هكذا، وحيدًا في مكتبه، يدخن في صمت، حتى بدأ نور يوم جديد يتسلل من النافذة، معلنًا انتهاء ليلة طويلة باهته في قسم الشرطة.

(٧)
استقطاب النساء

صيدلية عاصم عابدين

انبلج عصرُ ذلك اليوم عن يقظة نونش من سُباته، فانتفض من فراشه وقد تشكّلت في ذهنه خريطةٌ محكمةُ النسج لما ينوي فعله. لم يكن استيقاظه عفويًا، بل كان نتاج تفكيرٍ عميق ظلّ يُراوده في أحلامه. كان قد خطّط لكل تفصيلة، لكل ثغرة محتملة، لكل سيناريو قد يُلقي بظلاله على تجارته الوليدة. أراد أن يجعل من توزيع البرشام تجارةً مُربحة، سلسة الانسياب كالماء في مجراه، بعيدة عن أعين القانون وأنيابه الحادّة.

توجّه نونش بخطواتٍ واثقة نحو صيدلية عاصم، وقلبه يخفق بمزيج من الترقّب والثقة. كان قد تحرّى الوقت بدقة، وتأكّد أن عاصم يقف وحيدًا خلف منضدة الصيدلية، بعيدًا عن أعين المساعدين والزبائن الفضوليين. دفع الباب الزجاجي وانساب إلى الداخل كظلٍّ يتسلّل عبر شقّ في الجدار.

رفع حاجبيه في ابتسامة ماكرة، ونظر إلى عاصم مباشرة قائلًا بنبرة فيها من الثقة ما يُخفي وراءها حماسًا مكبوتًا:

- دكتور عاصم، إيه رأيك في المفاجأة دي؟

التفت عاصم نحوه، وارتسمت على محيّاه ملامحُ الدهشة الممزوجة بالقلق. اتّسعت حدقتاه للحظة، ثم ضاقتا سريعًا كمن يحاول استيعاب خطرٍ قادم. صكّ على أسنانه بقوّة، وألقى نظرة حذرة نحو الشارع عبر واجهة الصيدلية الزجاجية، كمن يتفقّد المكان من عيونٍ خفيّة. ثم همس بصوتٍ منخفض تشوبه نبرة تحذير:

- نونش!!! واطّي صوتك ده. إنت فاكر نفسك واقف على الناصية؟ إيه اللي جابك دلوقت؟ فيه إيه؟

كانت ملامح عاصم تنضح بالتوتّر، وعيناه تتنقّلان بين وجه نونش والباب كطائرٍ حذر يترقّب الخطر. هزّ نونش كتفيه باستهتار مُتعمّد، ورفع يديه في حركة طمأنةٍ ساخرة، وقال بصوت أكثر انخفاضًا لكنه لا يخلو من ثقة:

- متخافش، أنا عارف إنك لوحدك في الصيدلية دلوقتي. قلت لنفسي ألحقك قبل ما الواد علي يجي.

تململ عاصم في مكانه، وقال بنبرة فيها استياء مكتوم:

- برضه ماقلتش جاي ليه. إنت مش لسّه كنت هنا امبارح؟
انفرجت أساريرُ نونش في ابتسامة عريضة كشفت عن صفّ أسنانه، ومال برأسه قليلًا إلى الجانب في حركة تُوحي بالطمأنينة والدهاء معًا:
- خير يا دكطور، جايلك في خير. اصبر على رزقك، أصل أنا فكّرت...
لم يُتمّ نونش جملته، إذ قاطعه عاصم بحدّة، ورفع إصبعه السبّابة في حركة تحذيرية، وقال بصوت منخفض لكنه مُفعم بالقلق، بينما ظلّ يصكّ على أسنانه:
- إيه مين اللي فكّر؟ إنت تفكّر؟ كده تبقى خرّبت، وهنلبس في حيطة!
كانت عينا عاصم تقدحان شررًا من القلق، وبدت عروق جبينه بارزة، وكأنه يُصارع عاصفة داخلية من المخاوف. تظاهر نونش بالاستياء، ورفع حاجبيه في تعجّب مُصطنع، وقال بنبرة فيها عتاب ممزوج بالإغراء:
- ليه كده بس يا دكاطرة؟ ده خير كتير، كتير قوي كمان!
زفر عاصم بعمق، وأدار عينيه نحو السقف في حركة استسلام مؤقت، ثم أشار بيده إلى نونش في حركة استعجال قائلًا:
- قول، أنا سامعك. بس انجز قبل ما حد يدخل علينا.
انتعشت روح نونش، وبرقت عيناه بلمعة الانتصار. مال بجسده قليلًا نحو عاصم، وخفض صوته إلى همس واثق:
- أنا فكّرت أعمل مشروع صغيّر كده، أشغّل فيه الشباب.
قطّب عاصم جبينه، وأمال رأسه في حركة استنكار، وقال بسخرية جافة:
- طب وأنا مالي؟ أنا مش صندوق قروض للشباب!
رفع نونش كفّيه في الهواء، وهزّ رأسه نفيًا بعنف، وقال بحماس:
- قروض إيه ومعيز إيه؟ مستورة وبِبوس إيدك بوسة مشبك كمان! المشروع اللي هشغّل فيه الشباب هو توزيع البرشام.
عقد عاصم حاجبيه في تركيز شديد، وتقدّم خطوة نحو نونش، وقال بصوت مُتحفّز:
- مش فاهم... تقصد إيه.
ابتسم نونش، وأشار بإصبعه نحو أذن عاصم في حركة مرحة:
- طب هات قرموشة ودنك واسمع الكلام النوفي. أنا قصدي يعني إني لسّه على اتفاقي معاك، بس فيه كده تعديل صغنّن. الناس البسيطة، المتعلّمين والموظّفين، دول اللي إنت قلقان منّي إني أتعامل معاهم، هبعتهولك على الصيدلية على طول. معاك هيحسّ أي حد منهم بالأمان أكتر في التعامل، لحدّ ما يطب. لكن شلّة الشباب الضايع والصيّع وأشكالهم والصنايعية، دول بتوعي أنا.

ظلّ عاصم صامتًا للحظة، يُعالج المعلومات في ذهنه. حكّ ذقنه بأصابعه، وقال بحذر:
- لسّه مش فاهم، عاوز توصل لإيه. ادخل في التفاصيل أكتر.
انتفض نونش، وضرب كفّيه ببعضهما في حركة حماسية، وقال بصوت خافت لكنه مليء بالطاقة:
- يعني سِكّة وقطر! أنا محتاج كرتونة كل كام يوم، عايزين نكبر بقي ونعيش. وإنت في أمان الأمان، بعيد عن أي شبهة أو مشكلة. وحقّك محفوظ طبعًا، هيجيلك لحدّ عندك وإنت حاطط رجل على رجل. لأ وإيه، كشاتك هتوصلك مقدّم قبل ما آخد البضاعة كمان!
شعر عاصم بنسائم من السعادة تتسلّل إلى صدره كنسيم بارد في يوم صيفي حار. لمعت عيناه للحظة خاطفة، وارتسمت على شفتيه بداية ابتسامة، لكنه سرعان ما قمعها وأخفاها خلف قناع القلق. لم يُرد أن يُظهر لنونش مدى انبهاره بالفكرة، خشية أن يستغلّ ذلك في المساومة. أعاد تشكيل ملامحه لتبدو حذرة قلقة، وقال بنبرة فيها تردّد مُصطنع:
- بس كرتونة كتير قوي يا نونش. إنت بتتكلّم في عشر بلاستيكات، يعني مية علبة، يعني ألف شريط برشام، يعني عشر تلاف حبّاية! إنت فاكرني مصنع؟
كانت نبرة عاصم تحمل قلقًا حقيقيًا، لكن في عمق عينيه كان هناك بريق طمع خفيّ يُحاول إخفاءه. ضحك نونش ضحكة قصيرة واثقة، ولوّح بيده في الهواء كمن يُزيح غبارًا عالقًا:
- مفيش حاجة كتير يا دكتور. أنا عارف إنك قدّها وقدود. ده يمكن تزيد وتبقى كرتونتين أو تلاتة كمان! البحر يحبّ الزيادة، والسادة، والمانو، واللي على الريحة كمان. وغلاوتك، هخلّيلك البرشام زي القهوة بالظبط لقّمني إنت، وأنا هزبط المزاج!
توتّر عاصم، وشبّك أصابعه أمام صدره، وقال بصوت حذر:
- بس إنت عارف إن الألف شريط تمنهم عشر تلاف جنيه؟
أومأ نونش برأسه بثقة، وقال دون تردّد:
- عارف، وحسّابها كويس قبل ما أجي.
أخذ عاصم نفسًا عميقًا، وحاول أن يكسب بعض الوقت للتفكير، فقال:
- طب إدّيني يومين أشوف الدنيا فيها إيه، وأردّ عليك.
هزّ نونش رأسه بعنف، في حركة رفض قاطعة، وقال بنبرة ملحّة:

- لا، أبوس إيدك! القرصة مابتجيش في الفرن غير مرة واحدة، واحنا لازم نستغلّها وهي سخنة. أنا متأكّد إني لمّا أفوت عليك بعد بكرة، هلاقيك محضّرلي الكرتونة.
هزّ عاصم رأسه، وتراجع خطوة للخلف، وقال بحزم أكبر:
- لا، الموضوع أكبر من قرصة. إنت بتتكلّم في شوال دقيق مدعّم! لازم أفكّر بهدوء وأحسبها كويس، علشان نبقى كلنا في أمان.
هنا، أدرك نونش أن الوقت قد حان للضربة الأخيرة، الورقة الرابحة. أدخل يده في جيب بنطاله ببطء مُتعمّد، واستخرج حزمة من الأوراق النقدية، مطويّة بعناية. رفعها أمام عينيّ عاصم كمن يُلوّح براية النصر، وقال بنبرة واثقة فيها نبرة إغراء لا تُقاوم:
- طب إيه رأيك في دول؟
تجمّدت عينا عاصم على الحزمة النقدية. اتّسعت حدقتاه، وكأن قوة مغناطيسية خفيّة تشدّهما نحو الأوراق الخضراء. ابتلع ريقه بصعوبة، وشعر بدقّات قلبه تتسارع. كان هناك صراع داخلي عنيف بين حذره وطمعه، لكن الطمع بدا أقوى. سأل بصوت خافت مُرتجف قليلًا:
- إيه دول؟
ابتسم نونش ومدّ يده بالمال أكثر نحو عاصم، وقال بصوت مُفعم بالثقة:
- دول خمستاشر ألف جنيه، يعني الحبّاية واقفة بجنيه ونص. وزيادة عن ما بشيل، نصّ جنيه قبل ما آخد حبّاية! فيه أمان أكتر من كده؟ وقبل ما أطلب أي مصلحة تانية، تمانها هيكون قدّامك. قولت إيه؟ قبل علَى ما يجي!
حدّق عاصم في المال، وبدت عليه علامات التردّد الأخير. سأل بصوت يحمل آخر محاولة للحذر:
- نونش، الفلوس دي سليمة ولأ؟
انتفض نونش متظاهرًا بالاستياء، ووضع يده على صدره في حركة درامية، وقال بنبرة مُؤنّبة:
- عيب يا دكاطرة! سليمة ومطعّمة ضد الحصبة كمان! حطّها تحت أتخن جهاز أشعة. أنا ماينفعش ألفّ ودور عليك يا دكاطرة، ده إنت طاقة القدر، وتفتّحتلي!
في تلك اللحظة بالذات، في ذروة التوتّر، انفتح باب الصيدلية بحركة ناعمة، ودخلت فتاة متوسطة الطول، ترتدي عباءة سمراء فضفاضة تُخفي معظم ملامح جسدها. كان عمرها يقترب من العشرين عامًا، وفي يدها شنطة بلاستيكية سوداء متواضعة.

توجّهت نحو منضدة الصيدلية بخطوات هادئة واثقة، ونظرت إلى عاصم قائلة بصوت رقيق مهذّب:
- مساء الخير يا دكتور.
لكن قبل أن يستجمع عاصم أنفاسه ليرد، انبثق صوت نونش من خلفه كالصاعقة، فالتفت الرجل نحو الفتاة وعيناه تلمعان بدهاء المحتال الماكر:
- طب مدام الدوا مش موجود دلوقتي، هفوّت آخده بعد بكره. علشان تكون حضرتك براحتك، أصله دوا تركيب يا أختي، وأنا مضمنش أي صيدلية تانية. دكتور عاصم ده مفيش زيّه! السلامو عليكم.
وانسلّ نونش خارجًا بخفة اللص الماهر، تاركًا خلفه صمتًا محرجًا. وقفت الفتاة مشدوهة تحدق في أثره، وفي عينيها نظرة استنكار ممزوجة بالحيرة، كأنها تحاول أن تستوعب هذا الكائن العجيب الذي مرّ كالإعصار.
استغلّ عاصم تلك اللحظة الذهبية التي انصرف فيها بصر الفتاة عنه. انحنى بحركة محمومة تحت المكتب، وأصابعه ترتجف وهي تلتقط حزمة الأوراق النقدية الملطخة بالعار، ودسّها في شنطة جلدية مهترئة كانت مختبئة أسفل الأدراج. ثم استوى في مقعده محاولًا أن يستعيد رباطة جأشه المصطنعة، فرفع بصره نحوها وعلى شفتيه ابتسامة مرتبكة:
- وعليكم السلام. خير يا نجاة؟ فيه حاجة؟ إمال إمُك فين؟
رفعت نجاة رأسها، وفي عينيها بريق الاحترام الممزوج بالحاجة. تقدمت نحو المكتب:
- إمي تعبانة شوية يا دكتور... مفاصل رجليها بتوجعها. قالتلي: خلّصي شغلك في شركة البطاطين وفوتي على الصيدلية نضّفيها وامسحيها، علشان النهاردة ميعاد تنضيف الصيدلية، ودكتور عاصم هيديكي الشهرية... علشان هي محتاجة فلوس ضروري. حضرتك عارف، اللي جاي على قد اللي رايح.
تنهّد عاصم تنهيدة مصطنعة، وهزّ رأسه في حركة تظاهر بالتعاطف:
- لا، ألف سلامة عليها. وإنتِ هتقدري يا نجاة تنضفي الصيدلية؟ إنتِ شكلك راجعة من شغلك تعبانة.
أسقطت نجاة كتفيها في استسلام مرير، وضحكة يائسة ارتسمت على شفتيها:
- وبإيدينا إيه نعمله! أكل العيش مُرّ يا دكتور. متقلقش، أنا واخدة على كده.

ومع هذه الكلمات، ومضت في ذهن عاصم كالشرارة ذكرى كلام مينا الذي ردده بلا هوادة: لازم نستقطب شريحة من الستات... السوق النسائي ذهب يا عاصم، ذهب خالص!

عضّ عاصم على شفته السفلى، ودارت في رأسه عجلة التفكير الشيطاني. نظر إلى نجاة بنظرة فاحصة، كأنه يقيّم فريسة سهلة وقعت في شباكه دون عناء. ثم انفرجت أساريره فجأة، وتوهجت في عينيه شرارة الجشع الممزوجة بالمكر:

- طب خُدي يا نجاة... دي الشهرية.

مدّ يده نحو الدرج وأخرج مظروفًا بنيًّا، ثم تابع وهو يضع فوقه شريط دواء ترامادوا ملفوفًا داخل شنطة سوداء بلاستيكية:

- وخُدي ده كمان، شريط برشام. خلّي إمّك تاخد منه واحدة كل يوم، وهتبقى زي الحصان!

توقف لحظة، ثم أخرج من جيبه ورقة نقدية من فئة الخمسين جنيهًا، مدّها نحوها ببطء مسرحي:

- ودي كمان خمسين جنيه ليكِ... علشان لقمة العيش المُرّة.

ثم أمسك بحبة دواء ترامادول من علبة مخبأة، وضعها في كفّها المفتوحة بذهول:

- ودي حبّاية فيتامين، علشان تقدري تقفي على رجليكِ ومتحسيش بالتعب.

اتسعت عينا نجاة حتى كادتا تخرجان من محجريهما. حدّقت في الأوراق النقدية وفي شريط البرشام وفي الحبة الصغيرة، ثم رفعت بصرها نحو عاصم في دهشة ممزوجة بعدم التصديق:

- ربنا يخلّيك يا دكتور! ويزيدك من نعيمه! خمسين جنيه... ليا أنا؟!

أومأ عاصم برأسه في حركة أبوية مصطنعة، وابتسامته كابتسامة ثعلب:

- إنتِ تستاهلي كل خير. ولازم تخدي الحبّاية دي، أهم من الخمسين جنيه.

رفعت نجاة الحبة الصغيرة أمام عينيها، تفحصها بنظرة بلهاء مرتبكة، ثم التفتت إليه في حذر:

- ماتأخدنيش يا دكتور... البرشام ده بتاع إيه؟

ضحك عاصم ضحكة خفيفة، وأشاح بيده في استخفاف:

- البرشامة دي مقوّيات وفيتامينات. يعني يا نجاة، الحبّاية دي كإنك أكلتِ كيلو لحمة مَحمَّرة!

انفجرت بصرخة مكتومة، ويدها ترتجف وهي تقبض على الحبة:

- كيلو لحمة بحاله؟! بجد يا دكتور؟! مش عارفة أشكر حضرتك إزاي! لو المدام تحب أعملها الشقة، أنا في الخدمة. أنا نضيفة ولهلوبة، ساعة زمن الشقة هتكون بتبرق!

هزّ عاصم رأسه بهدوء، وأشار بيده رافضًا:

- لا، المدام عندها أم فتحي، بتعملها كل حاجة. معاها من زمان ومابتستريحش لحد غيرها. بس أقولك... إنتِ ممكن تيجي تعملي المخزن عندي؟ محتاج شوية تظبيط ونضافة. وهديكي كمان خمسين جنيه.

كادت نجاة أن تقفز من مكانها. اتسعت حدقتاها حتى بدتا كقرصين لامعين، وصوتها ارتفع بنبرة لا تخفي انبهارها:

- خمسين جنيه كمان؟! خلاص! هخلّص الصيدلية وأعمل المخزن بعدها على طول!

نظر إليها بابتسامة ماكرة، وفي عينيه بريق الصياد الذي نصب شباكه:

- للدرجة دي الخمسين جنيه فارقة معاكِ يا نجاة؟

أومأت نجاة برأسها بقوة، وصوتها يرتعش من الانفعال:

- طبعًا يا دكتور! مية جنيه في يوم واحد؟! ده تجيب طقم ملامين في الجهاز بتاعي... زي طقم البت عزيزة!

هنا توقف عاصم، ونظر إليها نظرة طويلة كأنه يزن الموقف. ثم انحنى قليلًا نحوها، وخفض صوته إلى همسة مؤامرة:

- طب إيه رأيك تكسبي خمسين جنيه في اليوم... وإنتِ في الشغل عندك؟

جحظت عينا نجاة، وفمها انفتح في ذهول كامل:

- خمسين جنيه كل يوم؟! موافقة طبعًا! بس... إزاي؟

ابتسم عاصم ابتسامة الشيطان، ومدّ يده نحو شريط البرشام:

- أقولك إزاي. البرشام ده زي ما قولتلك فيتامينات... زي اللحمة والفاكهة بالظبط. والواحدة باتنين جنيه بس. شُفتِ هو رخيص إزاي؟

هزت نجاة رأسها في حيرة، وصوتها يحمل نبرة استنكار ممزوجة بالطمع:

- حبّاية كيلو لحمة بجنيهين؟! يا بلاش!

رفع عاصم يده مطمئنًا، وفي عينيه لمعة الثعلب الماكر:

- أنا هحسبلك البرشامة بجنيه... زي ملبس النعناع بتاع الانتعاش. وإنتِ هتبيعي البرشامة في الشركة للبنات زمايلك بجنيهين، جنيهين ونص... إنتِ وشطارتك بقي. وبكده، لو بِعتِ في اليوم خمسين برشامة فيتامين لحمة... هتكسبي يوميًا خمسين جنيه!

صمتت نجاة لحظة، وفي عينيها صراع بين الطمع والحذر. ثم عقدت حاجبيها:
- كلام حلو، بس فيه مشكلة. البنات هتشتريه ليه؟ ده مش نعناع ولا ملبس؟
انفجر عاصم ضاحكًا، ولوّح بيده:
- مين قال؟! هو كده فعلًا! هيبقى زي النعناع والملبس، بس علشان هو جديد مش معروف قوي. لكن هو بقي أهم من الملبس بكتير! البرشامة دي سحر! مافيش بنت هتاخدها إلا ومتحسش بأي تعب، لا في الشغل ولا البيت. مش بقولك؟ لحمة مَحمَّرة!
توترت نجاة فجأة، وتراجعت خطوة للخلف، ويدها تشد على طرف عباءتها:
- طب ماتأخدنيش يا دكتور... هو له علاقة بالخلفة ومنع الحمل وكده يعني؟
هزّ عاصم رأسه بعنف، ورفع يديه الاثنتين في استنكار مصطنع:
- خلفة إيه يا نجاة؟! بقولك بومبوني! لا، متخافيش، ملوش علاقة بالخلفة من قريب أو بعيد. وده شريط ببلاش، خلّي حد من البنات عندك تجربه. لو عجبهم، تيجي تاخدي من تاني. هتعدّي عليا وإنتِ راجعة من الشركة في نفس الميعاد ده.
ثم خفض صوته، واقترب منها بحركة تآمرية:
- بس أوعى تجيبي سيرة لحد! ولا حتى إمك! ده شغل، وأنا بحاول أساعدك علشان إنتِ بنت كويّسة. لازم يبقى معاكِ يا نجاة الفلوس اللي نفسك فيها. وتشتري أحسن جهاز. إنتِ صعبتِ عليا قوي يا نجاة!
انفجرت نجاة بصرخة منخفضة من الفرح، وعيناها تلمعان بالطمع والأحلام:
- خمسين جنيه في اليوم؟! ده ولا في الحلم! ده أنا بشتغل في الشهر كله بربعمية وتمانين جنيه! من تمانية الصبح لحد الساعة أربعة آخر النهار! ده أنا هخلّي البنات تشتري بالعافية! أنا أصلي البنات كلها والمشرفات بيحبّوني! واطمن يا دكتور، محدش هيعرف حاجة خالص... ولا حتى امي!
ابتسم عاصم ابتسامة رضا، وأومأ برأسه:
- تمام. إنتِ عندك كام بنت في الشركة؟
رفعت نجاة يديها في حركة تعبّر عن الكثرة:
- لا، كتير! واحنا خارجين بنبقى زي يوم القيامة! ماسورة بنات ضربت! ماسورة إيه؟! مواسير! ده غير المشرفات!
أومأ عاصم برأسه في رضا، ونظرة الجشع تتوهج في عينيه:
- جميل. مش محتاجة أقولك: كل ما تبيعي أكتر، هتكسبي أكتر. مية حبّاية تكسبي مية جنيه. لا وإيه؟ مكسب حلال حلال، وجنب شغلك برضه!

راحت نجاة تحلم بصوت عالٍ، وعيناها شاردتان في بحر الأوهام:
- يعني هجهّز نفسي وأجيب مفرش قطيفة شتوي وطقم صيني ونيش و...
قاطعها عاصم بحركة من يده:
- كل اللي نفسك فيه يا نجاة! ويالا، علشان متتأخّريش على إمك. هنروح المخزن نوضّبه، والصيدلية اعتبري نفسك عملتيها خلاص. والخمسين جنيه بتاعت نضافة المخزن آهي!
ثم توقف، ونظر إليها نظرة أخيرة محملة بالمكر والترقب:
- وهستنّاكِ تردّي عليا... بعد ما البنات تجرّب البرشام.
وفي تلك اللحظة، بينما كانت نجاة تلتقط المال والبرشام بيدين مرتعشتين من الفرح، كان عاصم يبتسم ابتسامة الشيطان الذي أوقع فريسة جديدة في شباكه المنسوجة من خيوط الفقر والأحلام الكاذبة.
اندفع الباب الزجاجي للصيدلية، دلف عليّ إلى المكان وقد تصبّب العرق من جبينه وانحدر على صدغيه. التقطَ أنفاسه بصعوبة، ثم ألقى تحيته بصوتٍ متهدّج:
- السلام عليكم.
رفع عاصم رأسه، ونطق بلهجةٍ جافة لا تخلو من اللوم:
- وعليكم السلام... فينك يا علي؟
التفتَ عاصم بحركةٍ مفاجئة نحو الفتاة التي كانت واقفة بجانب المكتب، وأشار إليها:
- خدي إنتِ الشنطة دي يا نجاة، واستنّيني عند العربية. هتلاقيها قدام الصيدلية، عربية لونها أحمر.
خفضت نجاة بصرها على الفور، كأنما تحاول أن تختفي من المشهد برمّته. تسارعت دقات قلبها، وأحنت رأسها حتى كادت ذقنها أن تلامس صدرها. همست بصوتٍ خافت مرتجف:
- حاضر.
تناولت الشنطة الجلدية، وانسحبت نحو الباب بخطواتٍ متثاقلة.
ظلّ عاصم صامتًا حتى سمع صرير الباب وهو يُغلق خلفها. دارت الثواني كأنها دهور، ثم استدار نحو عليّ نظر اليه محاولا تشتيت انتباهه:
- إيه يا علي اللي آخرك كده؟
شعر عليّ بثقل الموقف يضغط على صدره. مسح جبينه بظهر كفّه في حركةٍ عصبية، وأخذ يتلعثم:

- معلش يا دكتور، والله غصب عني... المواصلات زحمة، في عطل في المترو، والدكتور طوّل قوي في آخر محاضرة.
رفع عاصم حاجبه في استنكار:
- وانت بعد كل اللي بتقوله ده، هتقدر تفضل صاحي لحدّ بكره لما تيجي من الكلية؟
أومأ عليّ برأسه بحماسةٍ مفرطة، محاولًا تعويض تقصيره بالحماس:
- آه طبعًا، متقلقش. عادى، أيام الامتحانات على طول بطبّق!
تأمّل عاصم وجهه للحظة، اتجه نحو الدرج خلف الكاشير، وفتحه بحركةٍ سريعة، ثم أخرج شريط من البرشام:
- طب خد الحبّاية، خلّيها معاك. ولو حسيت بأي صداع، أو حسيت إنك عايز تنام، خدها. دي هتخلّيك مصحصح، والصداع يروح في ثواني.
مدّ يده بالحباية نحو عليّ. ثم نظر إلى عاصم، وابتسم ابتسامة خجولة ممزوجة بالامتنان:
- متقلقش يا دكتور، أنا كويس ومش مصدّع ولا حاجة.
ضاقت عينا عاصم قليلًا، وأطلق تنهيدة أخرى فيها نفاد صبر:
- يا بني، خدها وبطّل لماضة!
أمسك عليّ بالحباية بتردّد، وأومأ برأسه. مال عاصم نحوه قليلًا، وخفض صوته بنبرةٍ جدّية:
- ولو جالك حد عايز شامبو وبرشام صداع، إدّيله من البرشام ده. غير كده لأ. علشان ده عرض. هتلاقي فيه شريطين تحت ماكينة الكاشير، اشتغل منهم. خد بالك، دول مش مثبوتين في الدفاتر... يعني علشان الضرايب، وحاجات كتير ملكش فيها.
ارتسمت على وجه عليّ علامات الفهم المختلط بالقلق. أومأ برأسه بحركةٍ سريعة متتالية:
- حاضر يا دكتور، مفهوم.
نظر عاصم إلى ساعته، وتوتّر فجأة. لوى رقبته نحو الباب:
- يلا سلام، علشان عندي مشوار مهم قوي. لازم ألحقه.
التقط مفاتيح السيارة من على المكتب بحركةٍ متسرّعة، واندفع نحو الباب.
- سلام يا دكتور...
لم يكمل عليّ جملته، فقد كان عاصم قد اختفى خلف الباب تاركًا وراءه صدى خطواته السريعة.

تدحرجت عقارب الساعة ببطءٍ ثقيل، حتى مرّت ساعة كاملة على الصيدلية الهادئة. جلس عليّ خلف المكتب، يتصفّح كتابًا جامعيًا بتركيزٍ مشتّت، وعيناه تتنقّلان بين السطور والباب الزجاجي. ثم حدث ما قطع رتابة المكان. انفتح الباب برفقٍ هذه المرّة، ودخلت امرأة في أواخر الثلاثينيات بخطواتٍ واثقة، رشيقة. كانت ترتدي بنطلون جينز كحلي اللون، يحتضن قوامها المتناسق، وبلوزة تركوازية من قماشٍ ناعم الملمس، يعكس الضوء برقّة. شعرها منسدل على كتفيها بعناية، وقد وُضع له تسريحة أنيقة توحي بالاهتمام والترف.

ولكن الأمر الذي ملأ الصيدلية حقًا لم يكن مظهرها، بل عطرها. عطر فرنسي فاخر، ثقيل، يحمل رائحة الياسمين الممزوجة بالمسك والفانيليا. انتشر العطر في أرجاء المكان كموجةٍ غير مرئية، ملأت كل زاوية، وتسلّل إلى أنف عليّ فأثار حواسه. رفع عليّ رأسه من الكتاب، وتجمّدت عيناه عليها. عرفها على الفور. شعر بحرارة تتسلّل إلى وجهه، فخفض بصره بسرعة نحو الأرض كأنما نظر إلى شيءٍ محرّم.

تقدّمت السيدة نحوه بابتسامةٍ عريضة، ونطقت بصوتٍ دافئ، حميمي:

- إزيك يا علي؟

زادت حرارة وجهه، وشعر بنبضات قلبه تتسارع. أبقى عينيه على الأرض، ونطق بصوتٍ خافت:

- مدام نبيلة... الحمد لله.

وقفت أمامه، وأسندت يدها على حافة المكتب في حركةٍ مسترخية، واثقة:

- إمال عاصم فين؟ بطلبه على التليفون، تليفونه مقفول.

رفع عليّ عينيه قليلًا، ولكنه لم يجرؤ على النظر مباشرة إليها:

- الدكتور عاصم خرج من حوالي ساعة.

توقّفت نبيلة عن الحركة. انحنت قليلًا نحوه، وتغيّرت ملامحها. ارتسمت على وجهها علامات استفهام ممزوجة بقلق:

- خرج؟! وكمان من ساعة؟!

صمتت لحظة، ثم تابعت بنبرةٍ تحمل خيبة أمل:

- ده النهاردة عيد جوازنا، وأنا عملت له مفاجأة و ... مقالش رايح فين؟

هزّ عليّ رأسه بالنفي، وشعر بثقل المسؤولية:

- لأ، مقالش. بس هو قال رايح مشوار مهم قوي.

قطّبت نبيلة حاجبيها، وتحرّكت شفتاها بكلماتٍ صامتة. كررت بصوتٍ عالٍ كأنما تحدّث نفسها:

- مشوار مهم؟ غريبة...
ثم استدارت نحو عليّ فجأة، وقد تغيّرت نبرتها. أصبحت أكثر حدّة، أكثر تركيزًا:
- بقولك أيه يا علي، هو كان لوحده؟ ولا كان فيه حد معاه؟
شعر عليّ بتوتّرٍ غريب يتسلّل إليه. لم يكن يعرف لماذا يشعر أن إجابته ستكون مهمّة. أجاب ببراءة:
— كان معاه واحدة ست... أول مرة أشوفها.
لحظة صمت. ثم بدأ الدم يجري في عروق نبيلة بسرعةٍ جنونية. شعرت بموجةٍ ساخنة تصعد من صدرها إلى رقبتها، ثم إلى وجهها. احمرّ وجهها كأنما اشتعل فيه الغضب. اتسعت عيناها، وتوتّرت عضلات فكّها. أمسكت بحافة المكتب بقوة، تقدّمت خطوة نحو عليّ، وصوتها يحمل ضيقًا صريحًا:
- واحدة ست؟! شكلها إيه دي كمان يا علي؟
ارتبك عليّ. أحسّ أنه قال شيئًا خاطئًا، ولكنه لم يعرف ماذا بالضبط. حاول أن يتذكّر:
- أنا مخدتش بالي منها قوي... بس عادية يعني. كانت لابسة عباية سُمْرا... وكانت معاها الشنطة الجلد بتاعت دكتور عاصم. خرجت بيها الأول، وبعدين الدكتور لحقها.
كانت هذه الجملة الأخيرة كالطلقة التي أصابت نبيلة في مقتل. شهقت بصوتٍ خافت، وتراجعت خطوة. تكلّمت بصوتٍ مفعم بالغضب والحسرة:
- عباية سُمْرا... سنّته سودا...
ثم علا صوتها فجأة:
- علشان كده بطلبه، التليفون مقفول! طبعًا مش فاضي!
لم يسمعها عليّ بوضوح. في تلك اللحظة بالذات، دخل رجلان إلى الصيدلية. التفت عليّ إليهما، ممتنًا للمقاطعة:
- استأذنك، أشوف الزباين.
نطقها بسرعة، وانتقل إلى الجانب الآخر من الصيدلية.
مشت نبيلة بخطواتٍ بطيئة، مترنّحة، نحو مكتب عاصم. جلست على الكرسي الجلدي الدوّار، وأسندت ظهرها إليه بثقل. وضعت يديها الاثنتين فوق رأسها، وأغمضت عينيها بقوة. بدأت تحدّث نفسها بصوتٍ خافت، مكتوم، مفعم بالمرارة:
- مشوار مهم مع واحدة ست... والتليفون مقفول... والشنطة الجلد بتاعته معاها...
فتحت عينيها فجأة، وقد امتلأتا بالدموع المحتبسة:
- يبقى بيخونني! مش هيبطل رمْرَمَة! ديله نجس!

تنفّست بصعوبة، وضغطت براحتي يديها على رأسها:
- ومش بعيد يكون متجوّزها عليّا... آه، دماغي! الضغط عالي عليّا...
رفعت رأسها، ونظرت نحو عليّ الذي كان منشغلًا مع الزبائن. نادت بصوتٍ متعب:
- علي... معلش ممكن تعمل لي كوباية شاي؟ عندي صداع رهيب.
نظر إليها عليّ بدهشة. لم يكن يعلم حجم الزلزال الذي أحدثته كلماته في داخلها. رأى وجهها الشاحب، وعينيها المتعبتين، فشعر بالشفقة:
- حاضر يا مدام نبيلة.
أعدّ لها كوب شاي بسرعة، وأحضره إليها:
- اتفضّلي، الشاي.
تناولته بيدٍ مرتعشة، ورشفت منه رشفة صغيرة. وضعت الكوب على المكتب، ثم نظرت إليه بنظرةٍ تحمل يأسًا واستفهامًا:
- على كده يا علي، عاصم متعوّد يروح مشاوير كتير؟
تردّد عليّ قليلًا:
- يعني... الفترة الأخيرة دي بس.
ثم أضاف بقلقٍ حقيقي:
- إيه أخبار الصداع؟ حضرتك عاملة إيه دلوقتي؟
وضعت نبيلة يدها على جبينها، وأغمضت عينيها:
— الصداع هيفرتك دماغي... متشوف لي حاجة تضيّع الصداع الزفت ده.
استدعى عليّ في ذهنه كلام الدكتور عاصم: لو حسيت بصداع، خدها. وفي حسن نية، وبقلبٍ طيب، اتجه إلى الدرج، وأخرج برشامة ترامادول. عاد إليها وهو يبتسم ابتسامة بريئة، ممتدًا يده بالحبّة:
— آه آه، اتفضّلي حضرتك الحبّاية دي.
تناولتها دون تردّد، ابتلعتها مع رشفة من الشاي. ثم نظرت إليه، وقد أظلمت عيناها بعزم، وما أدراك عندما ترى المرأة الدنيا عبارة عن سواد كاحل:
— ودّيني لأوريك يا عاصم... العين بالعين، والبادي أظلم.
صمتت لحظة، ثم أضافت بنبرةٍ أكثر هدوءًا:
— علي، ممكن تقيس لي الضغط؟
— قوي، قوي.
أحضر عليّ جهاز قياس الضغط، ولفّ الحزام حول ذراعها. بدأ يضخ الهواء بحركاتٍ متوتّرة. تصبّب العرق على جبينه، ورطبت راحتا يديه. تسارعت أنفاسه، وأصبحت

غير منتظمة. كان قربه منها، ورائحة عطرها التي تملأ أنفه، وملمس ذراعها الناعم تحت أصابعه، كل ذلك يثير فيه مشاعر غريبة لم يختبرها من قبل.
لاحظت نبيلة ارتباكه الواضح. رأت العرق على جبينه، شعرت بأنفاسه المتسارعة، وابتسمت ابتسامة خافتة، ماكرة. كانت تعرف جيدًا تأثيرها على الرجال، وخاصة الشباب الصغار. قالت له بصوتٍ ناعم، دافئ:
- إيه يا علي؟ إنت أول مرة تقيس لحد الضغط؟
ارتبك عليّ أكثر، وتلعثم:
- لأ... أنا على طول بقيس الضغط... هو عالي شوية.
فكّ الحزام من حول ذراعها، وتراجع خطوة، محاولًا استعادة توازنه.
نظرت إليه نبيلة بعينين نصف مغمضتين، وابتسمت ابتسامة أعمق:
- قول لي يا علي، أنا عارفة إنك بتدرس. في كلية إيه بقي؟
- أنا في كلية آداب.
- يعني هتبقى شاعر؟ ولا بتكتب روايات وقصص؟
هزّ رأسه بالنفي، وابتسم ابتسامة خجولة:
- لأ، مش كده بالظبط. هبقى مدرّس.
أومأت برأسها ببطء، وكأنها تقيّمه. ثم نظرت إليه مباشرة في عينيه، وقالت بصوتٍ ناعم، همس تقريبًا:
- تعرف إن لون عنيك حلو قوي يا علي؟
تجمّد عليّ في مكانه. شعر كأن قلبه توقّف عن الخفقان للحظة، ثم عاد يخفق بسرعةٍ جنونية. احمرّ وجهه تمامًا، ونظر بعيدًا عنها:
- إيه؟ عنيّا أنا؟ لونهم عسلي عادي يعني...
ضحكت نبيلة ضحكة خافتة، موسيقية، مثيرة:
-هاها ها... لأ، لونها عسلي آه، بس غريب...
صمتت لحظة، ثم قالت بجدّية أكبر:
- بقول لك إيه، أنا عايزة منك طلب.
كانت الشباك قد نُصب. والطُّعم قد وُضع. ووقع عليّ في الفخ منذ أول كلمة إعجاب.
قال لها بحماسةٍ صادقة، ساذجة:
- أنا تحت أمر حضرتك.
ابتسمت نبيلة ابتسامة انتصار داخلية. مالت نحوه قليلًا:
- مش عايزاك تجيب سيرة لعاصم إني جيت الصيدلية النهاردة.

أومأ عليّ برأسه بقوة، كأنه يؤدي قسمًا:
- بس كده؟ من عنيّا! ولا يكون عند حضرتك فكرة... حضرتك أصلًا مجتيش الصيدلية.
ابتسمت نبيلة ابتسامة عريضة، راضية:
- تسلم لي عيونك يا علي... شكلنا هنتفق.
عقد عليّ حاجبيه في استغراب بريء:
- نتفق على إيه؟
انحنت نبيلة نحوه أكثر، وخفضت صوتها حتى أصبح همسًا أنثويًا، دافئًا، مغريًا:
- على كل خير يا علي... أوعدك مش هتندم، ومش هنختلف.
صمتت لحظة، ثم أضافت:
- أنا عاصم قال لي إنك بتتضايق إنك بتنادي كتير لما تيجي تاخد الأكل.
فوجئ عليّ. لم يكن يتوقع أن عاصم قد تحدّث عنه:
- لأ... بس الناس بتتفرّج عليّا وأنا بنادي، وأنا مش بحب أعلّي صوتي.
أخرجت نبيلة من حقيبتها ورقة صغيرة وقلمًا، وكتبت رقمها بخطٍ أنيق. مدّت الورقة نحوه:
- طب ده رقمي، خلّيه معاك، وأبقى اطلبني قبل ما توصل للبيت... بس طبعًا عاصم ميعرفش إني أديتك الرقم.
أمسك عليّ بالورقة، ونظر إليها بحيرة:
- بس أنا مش معايا تليفون أصلًا.
ابتسمت نبيلة ابتسامة واسعة من الدهشة، كأنها كانت لابد أن تتوقع ذلك:
- خالص! مشكلة دي يا علي؟ بس سهلة...
تابعت بنبرةٍ حاسمة:
- بكرة لما تيجي تاخد الأكل، هديلك تليفون هدية مني ليك. علشان الناس كلها بقي معها تليفونات يا علي... وده برضه عاصم مش هيعرف عنه حاجة خالص.
فُتح فم عليّ من الدهشة. لم يصدّق ما يسمعه:
- تليفون؟ هدية ليّا أنا؟ علشان إيه؟
اقتربت منه نبيلة أكثر، حتى كاد أن يشم رائحة أنفاسها:
- علشان أي حاجة... كفاية إنك ساعدتني... تعرف إن البرشامة ضيّعت الصداع؟ وكمان قِست لي الضغط... إنت طيب قوي يا علي.

شعر عليّ بموجة من السعادة تغمره. لم يكن معتادًا على الإطراء، وخاصة من امرأة بهذا الجمال والأناقة:
- بجد؟ الصداع راح؟
- آه، راح. والبركة فيك...
وقفت نبيلة، واستعدّت للمغادرة:
- هستنّاك بكرة، والتليفون هتاخده. اتفقنا؟
أومأ عليّ برأسه، مغمورًا بمشاعر لم يعرف كيف يفسّرها:
- اللي حضرتك شايفاه...
تذكّر فجأة، وأسرع نحو الدرج:
- طب دي كمان برشامة، لو الصداع رجع تاني.
تناولتها نبيلة، ووضعتها في حقيبتها. نظرت إليه نظرة دافئة، حانية:
- ماشي، مقبولة منك يا علي... مش بقول لك إنت طيب قوي؟
تحرّكت نحو الباب بخطواتٍ بطيئة، ثم استدارت لتلقي نظرة أخيرة عليه:
- يلا، سلام.
ردّ عليّ بصوتٍ خافت، مرتبك:
- وعليكم السلام.
ما إن أغلق الباب خلف نبيلة، حتى وقف عليّ صامتًا للحظات طويلة. كان يشعر كأن إعصارًا قد مرّ به. تنفّس بعمق، ثم نظر حوله. رائحة عطرها لا تزال تملأ المكان، عالقة في الهواء كشبح جميل يرفض الرحيل.
اتجه بسرعة نحو الرفّ الخلفي، وأمسك بعبوة المعطّر الخاصة بالصيدلية. بدأ يرشّ في كل زاوية، وفوق المكتب، وحول الكراسي، حتى اختلطت الرائحتان وتداخلتا. رشّ بكثافة حتى أصبح الجو مشبعًا برائحة اللافندر الصناعي، مخفيًا آثار زيارتها.
وقف وسط الصيدلية، وأغلق عينيه. تنفّس الهواء المشبع بالروائح، وكأنه يحاول أن يحتفظ بشيءٍ من وجودها.
جلس على الكرسي خلف المكتب، ووضع رأسه بين يديه. أخذ يفكّر.
ويفكّر.
ويفكّر.
مرّت الساعات، ودخل بضعة زبائن، وخرجوا، ولكنه كان يتعامل معهم بحركاتٍ آلية. كان عقله في مكانٍ آخر تماماً.

كان يفكّر في كل كلمة قالتها نبيلة. كل نظرة. كل ابتسامة. كل لمسة عابرة عندما أخذت البرشامة من يده.
أغمض عينيه، واستدعى صورتها في ذهنه: البلوزة التركوازية التي تحتضن جسدها. الجينز الكحلي الذي يبرز قوامها. الشعر المنسدل بأناقة. العطر... آه، ذلك العطر الذي ما زال يدور في رأسه.
وصوتها... ذلك الصوت الناعم، الأنثوي، الذي همس في أذنه:
تعرف إن لون عنيك حلو قوي يا علي؟
شعر بقشعريرة تسري في جسده. كرّر الجملة في رأسه مرة، ومرتين، وعشر مرات.
إنت طيب قوي يا علي...
تسلم لي عيونك...
هديلك تليفون هدية منّي ليك...
ابتسم ابتسامة عريضة، سعيدة، ساذجة. لم يكن معتادًا على أن تمدحه امرأة بهذا الشكل. لم تكن أي فتاة في الجامعة قد نظرت إليه بهذه الطريقة. كان دائمًا الشاب الخجول، المنطوي، الذي يجلس في الصفوف الخلفية.
ولكن نبيلة... نبيلة رأته.
رأت عينيه. رأت طيبته. رأت... رجولته؟
شعر بإحساسٍ غريب يتحرّك في داخله. إحساس لم يختبره من قبل. كان كخليطٍ من الفخر، والإثارة، والترقّب.
إنها غريزة النشوة بالرجولة.
للمرة الأولى في حياته، شعر أن امرأة راشدة، جميلة، أنيقة، ثرية، قد انتبهت له. ليس كموظف، ولا كطالب، بل كرجل.
جلس هكذا طوال الليل، في حالة ذهول تام. كان الزبائن يأتون ويذهبون، وهو يخدمهم دون أن يدري حقًا ما يفعل. كان عقله معلّقًا بين جدران بيت نبيلة، يتخيّل اللقاء القادم، ويتساءل عن الهدية التي وعدته بها.
ومع مرور الساعات، بدأ النعاس يتسلّل إليه. أصبحت جفونه ثقيلة، ورأسه يميل على كتفه. كاد أن يستسلم للنوم، ولكنه تذكّر فجأة.
البرشام!
قال له الدكتور عاصم: لو حسيت إنك عايز تنام، خدها. دي هتخلّيك مصحصح.
أخرج شريط، وتأمّله للحظة. ثم أخرج حبّة واحدة، وابتلعها بجرعة من الماء.

خلال دقائق، شعر بطاقة غريبة تسري في جسده. اتّسعت عيناه، واستقام ظهره. اختفى النعاس تمامًا، وحلّ محلّه يقظة غير عادية.
استمرّ هكذا طوال الليل. مستيقظًا. متنبّهًا. يفكّر في نبيلة.
وعندما أشرقت الشمس، وحان وقت إغلاق الصيدلية، توجّه إلى الجامعة
عليّ فتّوح، شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره، يدرس في السنة الأخيرة بكلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية. هو الابن الثالث لفتوح عبد الباسط، بعد بنتين أكبر منه سنًّا. والده، فتوح، صاحب محلّ صغير لتصليح أجهزة التلفزيون والإلكترونيات في حيّ شعبي بالقاهرة. كان في شبابه حِرَفيًّا ماهرًا، تعلّم المهنة من والده، وورثها كما تُورث الأسماء.
ومع تقدّم العمر، تراجع دخل الأسرة. أصبح مرزوق يعتمد بشكلٍ متزايد على عليّ، ابنه الأصغر، الذي اضطرّ منذ سنته الجامعية الثانية إلى العملِ لتأمين مصاريفه الدراسية..
تعلّم عليّ من أبيه حبّ الإلكترونيات. طوال سنوات الإجازات الصيفية، كان يجلس بجوار والده في المحلّ الضيّق، يراقبه وهو يفكّ الأجهزة، ويفحص الدوائر، ويُصلح الأعطال. تعلّم كيف يُمسك بمفكّ البراغي، وكيف يميّز بين المكثّفات والمقاومات، وكيف يقرأ الرموز الإلكترونية.
هذا جعله منطويًا نوعًا ما. لم يكن يلعب في الشارع مع الأطفال الآخرين. لم يكن له أصدقاء كثيرون. كان عالمه محصورًا بين الكتب والأجهزة الإلكترونية.
ولكن إتقانه للّغة الإنجليزية فتح له بابًا. عندما بحث عن عمل، وجد إعلانًا لوظيفة في صيدلية تطلب شخصًا يجيد الإنجليزية. تقدّم للوظيفة، وكان الدكتور عاصم معجبًا بمهاراته. كان عليّ سريع التعلّم، أمينًا، محترمًا، ودقيقًا في عمله.
أصبح يحصل على مرتب شهري جيّد بالنسبة لطالب جامعي. وكان عاصم يعلم جيدًا أن من الصعب إيجاد شخص بمواصفات عليّ: الأمانة، والاحترام، وسرعة التعلّم، وإتقان اللغة الإنجليزية.
لذلك حافظ عليه. وأعطاه مسؤوليات أكبر. وثق به.
ولكن كان لعليّ سرّ لا يعرفه أحد.
كان يحبّ فتاة في الجامعة. فتاة في نفس القسم، تجلس في الصفوف الأمامية، وتشارك بنشاط في المحاضرات. شعرها أسود طويل، وعيناها واسعتان، وابتسامتها تضيء الغرفة.
ولكنه لم يخبرها قط. لم يجرؤ.

كيف يخبرها وهو يعلم أن ظروفه المادية متواضعة؟ كيف يتقدّم لها وهو يرى أنها تأتي إلى الجامعة بسيارة خاصة، وترتدي ملابس أنيقة، وتحمل حقيبة من ماركة عالمية؟

لذلك ظلّ حبّه صامتًا. كان ينظر إليها من بعيد، ويبتسم عندما تبتسم، ويحزن عندما تغيب عن المحاضرات.

كان يحلم بيومٍ يصبح فيه قادرًا. يومٍ يحصل فيه على وظيفة مرموقة كمدرّس، ويستطيع أن يؤسس حياة كريمة. ولكن ذلك اليوم كان بعيدًا.

وخبرته المحدودة في الحياة، وانطوائه، جعلاه غير قادر على قراءة مشاعر الآخرين. لم يكن يعرف إن كانت تلك الفتاة تبادله نفس المشاعر أم لا. لم يكن يعرف كيف يفسّر نظراتها، أو ابتساماتها، أو كلماتها القليلة التي تتبادلانها أحيانًا. فظلّ صامتًا. ووحيدًا. حتى أقتحمت نبيلة خياله.

إنها نبيلة الحمصاني، امرأة في الثامنة والثلاثين من عمرها، هي ابنة قاسم الحمصاني، صاحب سلسلة محلّات حلويات الحمصاني المشهورة في القاهرة.

نشأت نبيلة في بيئة من الراحة المادية. كانت الابنة الوحيدة لوالدها، وكان يدلّلها بإفراط. حصلت على كل ما طلبته: الملابس الفاخرة، والتعليم في مدارس خاصة، والسيارات الفارهة، والسفر إلى الخارج. ولكن هذا الدلال الزائد أنتج شخصية معقّدة.

لم تكمل تعلمها، أصبحت نبيلة مهووسة بحبّ ذاتها. كانت تقضي ساعات أمام المرآة، وتنفق مبالغ طائلة على الملابس ومستحضرات التجميل. كانت الأنا لديها ضخمة، متضخّمة بشكل مَرَضي.

وعندما رأت تهافت الفتيات على عاصم، الطبيب الصيدلاني الوسيم والناجح، قرّرت أنها يجب أن تحصل عليه.

ضغطت بكل قوتها. استخدمت جمالها، ومالها، وعلاقات والدها. كانت تظهر في الأماكن التي يرتادها، وترتدي أجمل ملابسها، وتتعطّر بأغلى العطور. واستطاعت أن تكسب الجولة. تزوّجها عاصم. ولكن الزواج لم يكن كما حلمت.

عاصم كان رجلًا طموحًا، مشغولًا دائمًا بالصيدلية وبمشاريعه التي انحصرت في خياله فقط. لم يكن يعطيها الاهتمام الذي كانت تتوقّعه. كان يعود متأخرًا من العمل، ويقضي معظم وقته في المكتب، ولا يأخذها في نزهات رومانسية كما كانت تتمنّى. بدأت الشكوك تتسلّل إلى قلبها.

حبّها الجنوني له تحوّل إلى غيرة مَرَضية. أصبحت تشكّ في كل تصرّف. كل مكالمة هاتفية. كل خروج من البيت. كل تأخير في العودة.
كانت تفتّش في هاتفه، وفي جيوبه، وفي سيارته. كانت تسأل. كانت تتّصل به عشرات المرّات في اليوم.
وعندما سمعت من عليّ أن عاصم خرج مع امرأة، انفجر بركان الغيرة داخلها.
لم تكن تعرف من هي تلك المرأة. ولم تكن تهتم. كل ما كانت تفكّر فيه هو الانتقام.
العين بالعين، والبادي أظلم.
وفي لحظة جنونٍ وغضب، قرّرت أن تنصب فخًّا لعليّ، الشاب الساذج، البريء، الخجول. كان مجرّد أداة.
أداة لقهر عاصم حتى لو في خيالها.
أداة لإثبات أنها لا تزال جذّابة، ومرغوبة.
أداة لملء الفراغ العاطفي الذي تركه عاصم في قلبها وربما الفراغ الجنسي.
وبدأت تنسج خيوط الفخ بمهارة.
مديح. ابتسامات. لمسات عابرة. وعود بهدايا.
وعليّ، الساذج، الذي لم يختبر الحياة، سقط في الفخ من أول نظرة.
وهكذا، التقى مصيران: مصير شابٍ بريء يبحث عن الاهتمام والتقدير، ومصير امرأة ترى نفسها مجروحة وتبحث عن الانتقام.

(٨)
توجيه الرأي العام

سموم الجريدة

على الضفة الأخرى من المدينة، حيث تتراقص أشعة الشمس عبر نوافذ المكتب الأنيق، اندفع باهي نحو شاهي كأنما يحمل بين جوانحه بشرى فتح عظيم. كانت عيناه تلمعان ببريق الانتصار، وابتسامة عريضة تشق محياه من أذن إلى أذن. اقترب منها بخطوات واثقة، تكاد قدماه ترقصان على أرض المكتب، ثم ألقى بين يديها نسخة من الجريدة وهو يصيح بنبرة تفيض حماسًا:

- -مبروك! مبروك يا شاهي! جريدة الضوء الساطع نزلت السوق ومكسرة الدنيا! الطبعة كلها خلصت في تلات أربع ساعات بالكتير!

رفعت شاهي رأسها بحركة مفاجئة، وقد اتسعت حدقتا عينيها من الدهشة الممزوجة بالفرحة. أمسكت بالجريدة بيدين مرتعشتين، تتلمس صفحاتها وكأنها تتأكد من حقيقة وجودها. ثم نهضت من مقعدها في حركة لا إرادية، وقد علت وجنتيها حمرة الانفعال، وراحت تقول بصوت يتأرجح بين التصديق والإنكار:

- بجد؟! أنا مش مصدقة نفسي! في الوقت القصير ده الجريدة بقت في السوق؟ التراخيص اتوجدت، وحق النشر، وكمان الجريدة دلوقتي في إيد الناس؟! ده ولا في الخيال! لا وإيه... الجريدة في إيد الناس ومش موجود ولا نسخة! مبروك علينا يا باهي النجاح الكبير ده! الأخطبوط ده حاجة كده زي مصباح علاء الدين... حاجة وهم!

استند باهي إلى حافة المكتب، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة تنم عن معرفة عميقة بدهاليز النفس البشرية. طوى ذراعيه أمام صدره في وضعية الواثق من كلامه، وأخذ يحرك رأسه يمنة ويسرة وهو يتكلم بنبرة المحلل الخبير:

- لا وهم ولا حاجة! الناس دي بتلعب على غرايز الناس. فاهمين الناس صح. الناس هي اللي بتحب تشوف وتقرا الفضايح. الكل بيحب يشوف حد مكسور أكتر منه، حد مقهور أكتر منه... يمكن يديله ولو واحد في المية طاقة إيجابية وهمية، إنها نشوة الفحولة.

رفعت شاهي حاجبيها في حركة ساخرة ممزوجة بالإعجاب، ثم ضحكت ضحكة قصيرة وهي تشير إليه بإصبعها قائلة:

- إيه ده بقي؟! إيه الفلسفة العميقة دي؟!

استرسل باهي في حديثه، وقد أخذته حماسة الشرح. بدأ يتحرك في المكتب ذهابًا وإيابًا، يحرك يديه في الهواء رسمًا لأفكاره، وعيناه تتقدان بنار الاقتناع بما يقول:
- لا ولسه هكمّلك! الناس عندها رغبات جنسية مكبوتة. جرّبي تبصّي على شكل الرجالة قاعدين على قهوة ولا كافيه، لمّا واحدة تعدي من قدام القهوة، أو تركب عربية مترو مش مخصصة للسيدات وهي لابسة لبس نقول مثير عشرة في المية... يعني عباية مجسمة، بنطلون ضيق، بلوزة فيها زراير مفتوح... الناس بتنح وكأنهم شافوا كائن فضائي!
توقف لحظة ليلتقط أنفاسه، ثم استدار نحوها بحركة مسرحية وأشار بإصبعه في الهواء وكأنه يضع النقاط على الحروف:
- ما علينا... أنا علشان كده ركزت على التوزيع قدام الجامعات، وفي المترو، وعلى القهاوي، والأتوبيسات، وقدام الشركات، وفي الميادين والمحطات والأسواق... توزيع يدوي! فكرة عبقرية، مش كده؟
أومأت شاهي برأسها موافقة، لكن سرعان ما رفعت إصبعها السبابة معترضة، وقد تراقصت في عينيها لمعة الفخر بدورها في هذا النجاح:
- هي عبقرية فعلًا، بس متنساش كمان الأخبار اللي أنا منزّلاها، والصور المثيرة الساخنة، والكام موضوع اللي أساسهم محتوى جنسي... وكمان المواضيع والصور اللى بعتها أوغلى ليهم فضل في المبيعات!
انفرجت أساريره وهو يصفق بيديه مرة واحدة بصوت عالٍ يعبر عن اعترافه بجدارتها:
- بصراحة، مواضيع في الجون! وموضوع 'ممثلين أساءوا للمجتمع'... عامل شغل عالي! الناس بتركز كتير مع الفنانين والشخصيات العامة بصفتهم مشهورين.
مالت شاهي برأسها قليلًا إلى الخلف في حركة تنم عن الثقة المفرطة، وابتسمت ابتسامة المنتصر الذي يكشف عن خطته المحكمة، ثم قالت بنبرة الفاتح المتباهي:
- أنا يا ابني اصطادت عصفورين بحجر واحد، إن الناس تشتري الجريدة، اتنين، الناس تعرف أسماء الأفلام دي وتدخل على النت تدور عليها... تررااااااا! وموقع ' **She & He**' يبقى رقم واحد!
باهي: **Very excellent**! طب وإيه رأيك في اختيار موضوع صور مثيرة لفنانات معتزلات من أفلامها في السبعينات؟ لازم نخلّي ماضيهم الفني المشرّف يطاردهم لحد ما نخلي الفنانات المحجبات دي تخلع الحجاب ومعجبتهم، والبنات المراهقات طبعًا هتقلدهم!

انفجرت شاهي في ضحكة عالية صاخبة، ضحكة الشيطان الذي يرى خطته تتحقق. ثم اقتربت منه بخطوات بطيئة محسوبة، وأخذت تهمس بنبرة المتآمر الذي يبوح بأسرار الجريمة الكاملة:

- هاهاها! بيني وبينك... الصورة اللي انت خليتني أحط شريطة سودا على صدر الفنانة 'إيها'... صورة بمليون جنيه! هتخلي الطابعة التانية والتالتة تتباع هوا! مع إن الفنانة تحت الشريطة السودا لابسة برا، لكن الرجالة هتفهم اللي عايزة تخليهم مستثارين جنسيًا أكتر! والستات ماهتصدّقش تشوف واحدة في فضيحة علشان تتكلم عن الشرف والمبادئ!

توقفت للحظة، وقد احمر وجهها قليلًا، ثم أكملت بنبرة أكثر انخفاضًا وحميمية:

- بس تعرف... صورة من الآخر خلّتني أنا شخصيًا على آخري! لو الفنانة دي قدامي بجد... يا ولها لو وقعت تحت إيدي!

ضحك باهي ضحكة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء، ثم سألها بنبرة الفضولي الذي يريد معرفة خبايا الماضي:

- هاهاهاها! تفتكري إن الناس دي كان فيهم شواذ؟ قصدي ناس زيي وزيّك ليهم فكر مختلف في العلاقة الجنسية؟

انقلبت ملامح شاهي فجأة من المرح إلى الجدية الصارمة. اتسعت عيناها في نظرة حادة كالخنجر، وأشارت إليه بإصبعها بحركة تحذيرية وهي تقول بنبرة لا تقبل الجدال:

- إيوه كده أعدل؟! احنا مش شواذ! أنا مسمحلكش تقول علينا شواذ!

ثم عادت نبرتها إلى الهدوء المحسوب، وأخذت تشرح بثقة العارف بحقيقة الأمور:

- وطبعًا يا ابني، اللي زيي وزيّك كتير جدًا! احنا موجودين من زمان، بس محدش منهم بيحاول ياخد باله من طريقة تفكيره وميوله اتجاه الآخرين. الكل بيضحك على نفسه، والكل عايش...

قاطعها باهي بحركة سريعة من يده، مغيرًا مسار الحديث:

- على رأيك، إنتِ كده جبتي النهاية! إيه بقي أخبار الموقع؟

-تقصد موقع **She & He** للأفلام الممنوعة من العرض، ولا قصدك موقع **She & He 4.6**؟

-لا، موقع **'She & He** للأفلام الممنوعة' طبعًا! أخباره إيه؟

تألقت عينا شاهي بلمعان الفخر والانتصار. جلست على حافة المكتب وطوت ساقًا على الأخرى في وضعية الملكة التي تتحدث عن إنجازاتها:

- مش بقولك بصطاد عصفورين بخبطة واحدة؟! الموقع بعد ما الجريدة نزلت، نسبة المشاهدة عليه خيالية! والضغط على الموقع رهيب رهيب لدرجة متتخيلهاش!

نهض باهي من مكانه بحماس الطفل الذي يريد رؤية لعبته الجديدة:

- طب ماتفرّجيني على الموقع كده! ولا أنا ابن البطة السودا؟

ضحكت شاهي ضحكة خفيفة ساخرة:

- بطة؟! ده إنت اللي بطة كميلة خالص! تعال بص يا سيدي...

سحبت شاهي الكرسي وجلست أمام شاشة الحاسوب، وأخذت تنقر على لوحة المفاتيح بأصابع رشيقة سريعة. اقترب باهي من خلفها يتابع بشغف، فراحت تشرح له بصوت المحاضر الواثق:

- ادّي الموقع أهه! وده اللوجو بتاعه، ودي خلفية الموقع. أنا قسّمته لست أقسام... القسم الأول، أفلام عربية ممنوعة من العرض، وده فيه كل الأفلام العربي اللي فيها لقطات جنسية للفنانين، حتى ولو بوسة بس مثيرة! للتحميل أو المشاهدة أون لاين، وبكده الناس ممكن تتفرج من غير ما تحمّل الفيلم.

القسم التاني، مقاطع ساخنة من الأفلام العربي، والقسم ده فيه ملخص القسم اللي فات، وفيه الخلاصة من الآخر للأفلام القديمة، وكمان ابديت فيما بعد للجديد اللي هينزل بعد كده. القسم التالت، ده بقي للأفلام الأجنبية اللي فيها لقطات جنسية، ومكتوب عليه 'أفلام أجنبية للكبار'، وده علشان الناس تدخل عليه... وطبعًا المراهقين هتدخل قبل الكبار! القسم الرابع، ده بقي لصور الفنانين والمشاهير المثيرة، يعني في الحفلات وأعياد الميلاد والمصايف وكده. القسم الخامس، ده للرقص الشرقي من الأفلام والحفلات والأفراح، لأصحاب مزاج مشاهدة الرقص. القسم السادس: ده مقفول لسه، فكرته هبقى أناقشها معاك الأول. ها؟ إيه رأيك في الموقع؟

حدّق فيها باهي بنظرة امتزج فيها الإعجاب بالرغبة. اقترب منها ببطء، وقد انحنى قليلًا حتى صار وجهه قريبًا من وجهها، ثم همس بنبرة حميمة:

- لا، بجد فعلًا... تستاهلي بوسة!

وقبل أن تستوعب شاهي ما قاله، التقطها بين ذراعيه وطبع على شفتيها قبلة طويلة، احترافية من الطرفين، قبلة تنم عن خبرة ومعرفة بفنون الإغواء. لم تقاوم شاهي، بل استسلمت للحظة، وردت على القبلة بشغف مماثل. انفصلا بعد لحظات، وقد

احمرت وجنتاها، ولهثت قليلًا، ثم لعقت شفتيها في حركة لا إرادية وقالت بنبرة استفزازية:
- تصدق طعمها حلو... مسيرك في يوم هتقع تحت إيدي، وساعتها مش هرحمك!
انفجر باهي في ضحكة واثقة، وأبعد نفسه عنها قليلًا وهو يقول بثقة المتحدي:
- هاهاها! بعينيك!
ابتسمت شاهي ابتسامة ماكرة، ابتسامة الصياد الذي يعرف أن الفريسة ستقع في شباكه حتمًا، ثم قالت بنبرة التحدي المغلف بالثقة:
- بكره تشوف!
عادت شاهي إلى واقعيتها العملية بسرعة، ومسحت آثار القبلة عن شفتيها بظهر يدها، ثم سألته بجدية رجل الأعمال:
- تعال بقي قولّي... إيه أخبار البضاعة والتوزيع؟ وصل لحد فين؟
استند باهي إلى الحائط ووضع يديه في جيبيه، وأخذ يتحدث بنبرة المندهش من النجاح الذي يحققه:
- مهما أقولك مش هتصدقي! البرشام بيتوزع وينتشر بسرعة مخيفة! السوق فيه شراهة غير طبيعية! الناس زي ما تكون صدّقت إنه ملبس وبتاكله أكل! وأنا اللي كنت خايف وفاكر إنه زي البودرة له زبون معين، لكن الأمر طلع غير كده خالص! البرشام بقي زي الهوا: اللي عنده صداع بياخده، واللي عايز منشط جنسي ماشي، واللي تعبان أو عضمه بيوجعه شغّال! الخطة ماشية مسطرة زي ما دكتور مينا قال! لا ولسه ما خفي كان أعظم!
أومأت شاهي برأسها موافقة، وعقدت ذراعيها أمام صدرها، ثم قالت بنبرة التاجرة التي تحسب أرباحها:
- وطبعًا أهم حاجة: حساباتنا في البنوك بتتحرك بسرعة الصاروخ!
- طبعًا! والفضل يرجع لمدير البنك اللي هو جزء من عالم الأخطبوط، ولا أي حد يشك فيه.
- ماهو بياخد عمولة على الحسابات دي! وبعدين مستبعدش إن يكون البنك نفسه ملك للأخطبوط. وممكن يكون الاخطبوط فتحه مخصوص في الوطن العربي علشان علشان كده.
- ممكن! ليه لأ؟
فجأة، تذكرت شاهي شيئًا مهمًا. استدارت نحوه بسرعة وأمسكت بذراعه وهي تقول بحماس:

- بقولك إيه! قبل ما ننسى، بالنسبة للقسم السادس في الموقع... أنا عندي فكرة خطرت على بالي ننشّط بيها الموقع!
- إيه هي؟ ولو إنها عجبتني من قبل ما تقوليها!
ضحكت شاهي ضحكة خجولة ممزوجة بالفخر:
شاهي: هاهاها! متكسّفنيش بقي!
ثم أخذت تشرح بحماس وهي تحرك يديها في الهواء رسمًا لفكرتها:
- إيه رأيك نعمل القسم ده خاص؟ ونحط فيه الأفلام المميزة، يعني اللي فيها لقطات جنسية واضحة! الأفلام دي هي اللي نتكلم عنها في الجريدة بشكل مفصل، ونشوّق الناس ليها لحد ما الناس تبقى هتتجنن علشان تشوفها!
واللي عايز يتفرج عليها لازم يبقى عضو في الموقع، وده نظير دفع مبلغ مالي ممكن يدخل يتفرج على الأفلام في القسم الخاص!
وكمان نشجع اللي عنده مشاهد مهمة ومثيرة من الأفلام، أو أفلام نادرة ومش موجودة، يرفعها على الموقع، واحنا نقدّر الفيلم يستاهل ولا لأ، وكله بتمنه! واللي هيجتهد ويبعت حاجات أكتر نعمله عضوية مميزة، لأن العضوية هتبقى درجات!
بدأت تعد على أصابعها:
- اللي هيسجل نفسه على الموقع هياخد لقب عضو عادي، ولو اتفاعل أكتر وكتب كلمتين كويسين في حق أي موضوع هيبقى بعد فترة عضو إيجابي وكل ما يشارك أكتر النقط تزيد أكتر لحد ما يوصل لعضو عالمي'، وده من حقه يدخل يتفرج على القسم الخاص ببلاش! ودي كلها في الآخر مسميات: منها تنشيط للموقع وتفاعلات الناس معاه، ومنها عائد مادي مش بطال يصرف على كل المحتويات اللي هتتبعت للموقع من أفلام نادرة ولقطات ساخنة ورقص منزلي في الليالي الحمراء! وكمان تشويق أكتر للناس، متخليش يبقى فيه ملل! ها؟ إيه رأيك؟ إنت مالك مبتسم وكأني...
قاطعها باهي بحركة سريعة من يده وعيناه تتسعان من الذهول الممزوج بالإعجاب:
- كأنك إيه؟! إنتِ إيه؟! معجونة بمية عفريت! مستحيل تكوني بني آدمة!
ابتسمت شاهي ابتسامة المنتصر، ثم رفعت إصبعها في الهواء وقالت بنبرة من لم يكشف عن كل أوراقه بعد:
- ده أقل حاجة عندي كمان! بص، الفكرة دي كمان... بس محتاجين دكتور مينا معانا.
- إيه هي يا أحسن مصممة مواقع في الدنيا كلها؟

اتكأت شاهي على المكتب وقد ارتسمت على وجهها ملامح الشيطان الذي يخطط لمكيدة كبرى، ثم بدأت تكشف عن خطتها الجديدة:
- احنا هنستورد أدوات رياضية علشان التخسيس، ونلعب على وتر عدم ثقة الناس في نفسها وفي جسمها! وكمان نستورد مقويات ومنشطات جنسية، كلها طبعًا مضروبة!
ضحكت ضحكة شريرة ثم أكملت:
- بس طبعًا محدش هيروح يبلّغ ولا يشتكي ويقول دي ما جبتش نتيجة! الكل بعد العلاقة الجنسية بيحس إنه كان هيرو! وطالما فيه شراهة جنسية بالشكل ده، الحاجات دي هتلاقي سوق ممتاز! وغير كده، أي حاجة هتبان عيوبها هيكون السبب طبعًا سوء الاستخدام، وبكده يبقى العيب من الناس مش مننا! وطبعًا هنستورد كل ده باسم دكتور مينا، ونعمل دعاية كبيرة في الجريدة والموقع ومواقع مشهورة تانية!
صفق باهي بيديه بقوة، وقد امتلأ وجهه بالإعجاب والذهول:
- هو ده تشغيل الدماغ اللي يجيب فلوس! أفكار جديدة على المجتمع! لأ وإيه! هتخلّي كمان الناس مبسوطة رغم إنها مضروبة! لا، تستاهلي كمان بوسة!
اقترب منها من جديد، لكنها رفعت يدها في وجهه بحركة حاسمة، وأبعدت وجهها عنه ساخرة:
- لا يا بابا! مليش نفس! يا ابني خليك عارف إن أنا لما يبقى ليا مزاج منك... هغتصبك، هخليك تصرخ ومش هرحمك!
ضحك باهي ضحكة طويلة، ضحكة من يعتبر التحدي مجرد لعبة ممتعة، ثم قال بنبرة المتحدي:
- لما نشوف!
فجأة تذكر باهي شيئًا مهمًا، فرفع إصبعه في الهواء وقال:
- آه! نسيت أقولك إن تنفيذ الأتيليه والجيم والبيوتي سنتر ماشي بسرعة الصاروخ! والأخطبوط عايزنا نستخدمه في معرفة فضايح صفوة المجتمع من فنانين ومشاهير! وطبعًا ده محتاج تكتيك منك! وهنعمل دعاية من دلوقتي ليهم في كل الجرايد والمواقع، علشان دول هما الوجهة قدام الناس!
وقفت شاهي من مكانها كأنما تلقت صدمة كهربائية من الفرح. لم تعد تستطيع كبح مشاعرها المتفجرة. صاحت بأعلى صوتها وقد غمرتها موجة عارمة من النشوة:
- أنا مش مصدقة نفسي! الدنيا بتضحك لنا! أنا بحب الدنيا! بحب الدنيا!

وبحركة عفوية طفولية، بدأت تدور حول نفسها في المكتب، ذراعاها مفتوحتان كالطائر، ورأسها مرفوع نحو السماء، وعيناها مغمضتان تتذوق طعم النصر. كانت تدور وتدور، وشعرها يتطاير في الهواء، وضحكتها تملأ أرجاء المكان. لم يستطع باهي مقاومة هذه اللحظة السحرية. اندفع نحوها وأمسك بيدها في منتصف دورانها، ثم بدأ يدور معها في رقصة عفوية مجنونة. كانا يضحكان معًا، يدوران معًا، تتطاير أنفاسهما معًا، وتتشابك أيديهما في حركة دائرية لا تنتهي.

كان باهي يبتسم ابتسامة عريضة، وقد غمرته السعادة هو الآخر، فصاح بصوت عالٍ ممزوج بالضحك:

- وأنا كمان بحب الدنيا! بحبها قوي قوي!

ودارا ودارا، كأنما العالم كله قد أصبح ملكهما، كأنما كل شيء قد أصبح في متناول أيديهما. دارا في دوامة من النشوة الممزوجة بالجشع والطموح المريض، دوامة لا تعرف الحدود ولا الضمير.

وفي تلك اللحظة، بدا المكتب كأنه مسرح لرقصة شيطانية، رقصة انتصار على القيم، رقصة احتفال بالانحدار، رقصة فرح بما سيأتي من خراب ودمار لنفوس الآخرين.

وبينما كانا يدوران في نشوتهما، كانت الجريدة ملقاة على المكتب، عنوانها العريض الضوء الساطع يلمع تحت أضواء المكتب، لكنه في الحقيقة لم يكن سوى ظلام دامس متنكر في ثوب النور.

(٩)
إجهاض التعليم

(الجامعة)

(كافيتريا الجامعة)

في رحاب الجامعة، ذلك المعقل الاستراتيجي الذي تُصاغ فيه معالم الحروب الحديثة دون أن تُطلق طلقة واحدة، حيث تُبنى العقول قبل أن تُبنى الأسوار، وتُشَيَّد القناعات قبل أن تُشَيَّد القلاع. إنها الساحة التي تُحتَضن فيها عقول الشباب الغضة، تلك الأراضي الخصبة التي لم تزل تُكَوِّن عقيدتها في الحياة، أتكون مع التيار أم ضده؟ إنها عقولٌ كحقول بكر، تنتظر من يبذر فيها البذور، فإن أحسن الفلاح الزراعة والرعاية، حصد محصولاً وافراً يَعُمُّ خيره على الأمة بأسرها، وإن أهملها وتركها للصدفة والعبث، نبتت فيها الأعشاب الضارة التي يسميها العامة نبت شيطاني، فتفسد الأرض وتُعطِّل خيرها.

وأخطر ما في هذا المعترك هو المعلم، ذلك الفلاح الذي يغرس البذور في التربة العقلية، ويسقيها بمعارفه، ويُخصِّبها بأفكاره. إن ضميره وحده هو البوصلة التي تحدد اتجاه الأمة نحو الرُّقي أو الانحدار.

لكن الأخطبوط متعدد الأذرع قد فطن لهذا كله منذ زمن بعيد، فدخل إلى عقول الشباب من زوايا لم يحسب لها المُصلحون حساباً، ونشر في الأرض الخصبة آفاتٍ جديدة، لم تكن في حسبان أحد...

اخترق على باب الكافيتيريا الزجاجي، فانساب إلى أذنيه ضجيج الأصوات المتداخلة كخلية نحل عامرة بالحياة. توقف للحظة عند العتبة، وأمعن النظر في المكان بعينين متأملتين، يقلّب بصره بين الوجوه الشابة المنتشرة على الطاولات كأنه يقرأ في كتاب مفتوح.

همس لنفسه وهو يتنهد بعمق: قوة بشرية لا يُستهان بها...

كان يرى في وجوههم بريق الطموح، وفي عيونهم وميض الفضول. إنهم جيل الكمبيوتر، كما يحلو للبعض أن يسميهم، أولئك الذين صارت المعلومة عندهم على بُعد نقرة واحدة، يصلون إليها أسرع مما يصل الظمآن إلى الماء. مسح بنظره أرجاء المكان بحثاً عن وجه مألوف، حتى استقرت عيناه على زاوية هادئة في أقصى

الكافيتيريا. هناك، جلس سيف منفرداً على طاولة خشبية، منكباً على جريدة يقلّب صفحاتها بتأنٍ وتمعُّن، وكأنه يستخرج من بين سطورها كنزاً دفيناً.
اتجه على نحوه بخطوات واثقة، وحين اقترب رفع يده مسلّماً بحرارة:
- السلام عليكم... إيه اللي في ايدك ده يا سيف؟
رفع سيف رأسه ببطء، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، ثم رفع الجريدة قليلاً وهزّها في الهواء كمن يعرض كنزاً ثميناً:
- دي يا سيدي جريدة اسمها 'الضوء الساطع'...
جلس علي على الكرسي المقابل، وتكأ بمرفقه على الطاولة، وقد ارتسمت على وجهه علامات الاستغراب:
- ما سمعتش عنها قبل كده...
هزّ سيف كتفيه بلامبالاة، ثم قرّب الجريدة من وجهه ليفحص صفحتها الأولى بدقة:
- أنا كمان أول مرة أشوفها النهاردة... الظاهر لسه نازلة جديد... استنى كده...
أمسك بطرف الصفحة الأولى بإصبعيه، وقرّبها من عينيه، ثم قال بصوت فيه دهشة:
- مكتوب 'العدد الأول'!
أطلق على ضحكة قصيرة ساخرة، ثم قال وهو يميل برأسه إلى الخلف:
- ودي جريدة إيه؟ بتطبّل، ولا معارضة أي كلام يعني؟ ...
-ولا ده ولا ده...
حَكّ على رأسه في حيرة، ورمق سيف بنظرة متشككة:
- إمّال إيه اللي شدّك فيها قوي كده؟ ومخلّيك تقرأها في الخباثة كده...
ابتسم سيف ابتسامة ماكرة، ثم قرّب الجريدة من على وهو يقول بصوت خفيض مُثير:
- تعال بُصّ كده وإنت تعرف... بُصّ الصور عاملة إزّاي!
مدّ على يده وتناول طرف الجريدة، فانحنى قليلاً ليرى الصفحة بوضوح. وما إن وقعت عيناه على الصور حتى اتسعت حدقتاه، وانفرجت شفتاه في ذهول تام. تجمّدت أصابعه على حافة الورقة، وظل ينظر في صمت مطبق للحظات، قبل أن ينطق بصوت مبحوح ملؤه الصدمة:
- إيه ده؟! إيه ده؟! يخرّب بيت عقلك... إنت متأكد إن دي جريدة مش مجلة 'سيكو سيكو'؟!
ضحك سيف بخبث وهو يهز رأسه يميناً ويساراً:

- يا ابني دي بتتباع قدّام الجامعة عادي... وخلصت بعد ما نزلت بساعة!
تنهّد على بعمق، ثم مرّر إصبعه على إحدى الصور وهو يقول بنبرة ممزوجة بالانبهار والاستنكار:
- إيه الصور دي؟! كل ده يطلع من الفنانة دي؟! يا بنت الإيه... دي كانت طول عمرها فتاة أحلامي!
أشار سيف بإصبعه إلى موضوع في الصفحة الداخلية، وقد بدا على وجهه مزيج من الإثارة والتشويق:
- إمّال لو قريت الموضوع اللي بيتكلم عن الأفلام العربي اللي فيها لقطات جنسية... واضحة وضوح الشمس... وشرح للقطات بالتفصيل!
التفت على بجسده كله نحو سيف، وقد احمرّ وجهه قليلاً من الحرج الممزوج بالفضول:
- أنا كنت أسمع إن فيه قناة مشفّرة بتعرض الأفلام دي... لكن عمري ما شوفتها، ومكنتش بصدّق أصلاً إن فيه أفلام عربي كده... لكن واضح إن الموضوع كان بجدّ!
قلب سيف الصفحة بحركة درامية، ثم قال بصوت مشحون بالحماس:
- ولسّه! شوف صور الفنانات بالمايوهات... حاجة تهزّ الحجر! إيه ده؟! يخرّب بيوتكم، هتضيّعوا الشباب معاكم... ده الشباب ماسك نفسه بالعافية!
في هذه اللحظة بالذات، رفع على نظره بطريقة لا إرادية، فوقعت عيناه على فتاة تشقّ طريقها بين الطاولات بثقة لافتة. كانت ترتدي بنطلون جينز أبيض ضيّقاً يحدد قوام جسدها النحيل، وبلوزة من الستان السمراء اللامعة تعكس ضوء المصابيح، وحذاءً جلدياً أسمر بكعب عالٍ تقرع به الأرض في كل خطوة، فتُحدث صوتاً إيقاعياً يلفت الأنظار.
شعر على بوخزة في صدره، فأسرع بالانحناء نحو سيف وهمس بصوت خافت عاجل:
- بسّ... بسّ! خبّي الجريدة... أحسن خلود صاحبتك جايّة علينا!
انفجر سيف في ضحكة عالية مجلجلة، حتى اهتزّ كتفاه، ثم قال وهو يمسح دمعة الضحك من طرف عينه:
- أخبّي من مين؟! من خلود؟! يا ابني الجريدة دي بتاعتها! هي اللي اشترتها الصبح من قدّام الجامعة، وخدتها منها بالعافية... وتلاقيها جايّة عايزاها!
شهق على بصوت مسموع، وانتصب جالساً في مقعده، وقد ارتسم على وجهه مزيج من الصدمة والارتباك، بينما كانت دقات قلبه تتسارع.

وصلت خلود إلى الطاولة بخطوات واثقة، وألقت شعرها الطويل إلى الخلف بحركة عفوية، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت بصوت عذب:
- هاااي! خلّصت الجريدة يا سيف؟
التفت سيف إليها وهو يضع يده على الجريدة في حركة حمائية مبالغ فيها:
- وهي دي تخلص برضه؟! دي محتاجة شهر علشان أنا بحبّ التفاصيل، وإنتي فاهمة... الضمير في إتقان القراءة!
انفجرت خلود في ضحكة رنّانة، ووضعت يدها على فمها في محاولة لكتم صوتها، ثم قالت وهي تهز رأسها:
- إنت هتقولّي! بس أنا شايفاك سخسخت من شوية صور...
ثم التفتت نحو على الذي كان جالساً في صمت، محاولاً تجنب النظر المباشر إليها، وقالت بصوت مرح:
- متقول حاجة يا علي!
فغر على فاهه، ورمش بعينيه عدة مرات في حيرة، وحاول أن ينطق لكن الكلمات تعثرت في حلقه:
- ههه؟ ... أقول إيه؟!
اقتربت خلود خطوة أخرى، ثم قالت بنبرة أنثوية جريئة، فيها مزيج من التحدي والمداعبة:
- مالك يا علي؟ إنت كمان سخسخت ولا إيه؟ وأنا اللي كنت فاكراك أجمد من كده... إيه، رحت لحدّ فين؟!
احمرّ وجه على بشدة، ونزل بنظره إلى الطاولة، وعبث بأصابعه في عصبية واضحة. لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.
أسرع سيف بالتدخل لإنقاذ صديقه من الموقف المحرج، فرفع الجريدة وحرّكها أمام وجه خلود كالراية:
- خفّي شوية يا خلود! على مشافش الجريدة أصلاً... هو مش حمّالها!
ابتسمت خلود ابتسامة ماكرة، ثم قالت وهي تضع يدها على خصرها:
- إيه؟ بيتكسف؟! ...مش بجح زيّك!
رفع سيف حاجبه باهتمام، وأشار بإصبعه إلى الجريدة:
- بس أنا مش مصدّق نفسي... هو فيه كده فعلاً في الأفلام العربي؟!
جلست خلود على الكرسي المجاور بحركة رشيقة، وطوت ساقاً على أخرى، ثم قالت بثقة:

- يا ابني، كل الأفلام اللي بيتكلموا عنها في الجريدة دي موجودة على النت... على موقع معيّن... ومش أي حد يعرف يجيبها!
انتفض سيف في جلسته، وانحنى نحوها بشغف واضح بأسلوب متوسّل:
- طب ما تشرحي أكتر... ينوبك ثواب في الغلابة اللي زيّي!
ضحكت خلود وهي تهز رأسها:
- هاهاها، ماشي يا عمّ الغلبان... بعد ما نخلّص محاضرات النهاردة، هنروح سنتر النت اللي قدّام الجامعة... هي نصّ ساعة وأعرّفك توصل للموقع إزّاي، وكمان تحمّل الأفلام إزّاي!
صفّق سيف بيديه في حماس:
- إيه ده يا خواتي؟! موسوعة! إنتِ شيطانة!
رفعت خلود يدها في حركة تحذيرية ساخرة:
- حوّش! حوّش! إنت اللي التقوى هتنطّ من وشّك!
ضحك سيف بصوت عالٍ، ثم قال وهو يصفع الطاولة براحة يده:
- طب يالا يا ماما، شوفي أنت راحة فين... إنتي هتصحبينا ولّا إيه؟!
- بقي كده؟!
مدّت خلود يدها لتأخذ الجريدة، لكن سيف أمسك بها بقوة:
- طب هات بقي الجريدة، وشوف مين بقي اللي هيخلّيك تشوف حاجة تاني!
ثم قالت بنبرة جادة:
- لا بجدّ... بقولك إيه؟ البنات هتتجنّن، عايزين يشوفوا الجريدة... بس مكسوفين! إيه؟ مالهومش نفس هما كمان ولّا إيه؟!
تنهد سيف وهو يُرخي قبضته:
- إذا كان كده، ماشي... الجريدة اهيه... ولو إن على نن عينيّ!
أخذت خلود الجريدة وطوتها بعناية، ثم وضعتها تحت إبطها وقالت:
- يالا، نتقابل في المدرج... شاو بلبن!
رمقها سيف بنظرة استنكار ممزوجة بالضحك وهو يتفحص جسدها:
- هو فعلاً شاو بلبن؟!
ضحكت خلود وهي تبتعد، ولوّحت بيدها دون أن تلتفت. وما أن ابتعدت واختفت بين الطاولات، شعر على وكأن ثقلاً ضخماً قد رُفع عن صدره. تنفس بعمق، وأرخى كتفيه، وشعر بدقات قلبه تعود إلى إيقاعها الطبيعي تدريجياً. التفت نحو سيف وقال بصوت فيه دهشة:

- إيه ده؟! البنت دي جريئة قوي!
ابتسم سيف ابتسامة عريضة، ثم قال بنبرة دفاعية:
- بس جدعة... لو متعرفهاش، تفهمها غلط... على الأقل هي واضحة، مش زي غيرها... حالة كده، كلها حيوية!
هزّ على رأسه في صمت، ثم نظر إلى ساعته:
- طب يالا بينا، علشان منتأخّرش على المحاضرة...
نهض الاثنان من مقعديهما، ومشى على نحو الكاونتر ليدفع ثمن المشروبات. أخرج محفظته من جيبه الخلفي، وفتحها ليُخرج نقوداً، لكن مع النقود سقط شيء آخر على الأرض... شريط برشام صغير لامع.
التقطه على بسرعة، لكن سيف كان قد رأى ذلك. اقترب منه وهو ينظر إلى الشريط بفضول:
- إيه ده؟! شريط البرشام؟!
حاول على أن يُخفي الأمر بسرعة، فوضع الشريط في جيبه ثم قال بنبرة عابرة:
- ده برشام علشان تصحصح وتفوق... حاجة كده بتنسّيك الصداع... واحد صاحبي عزيز عليّا طلبه منّي إمبارح، وأنا هروح بعد الكلّية أدّيه له...
حدّق سيف فيه بنظرة متشككة، ثم قال وهو يضيّق عينيه:
- واحد ولّا واحدة؟! مش عارف ليه مش مطمنّلك يا علي...
ضحك على ضحكة متكلّفة، ثم قال محاولاً تغيير الموضوع:
- تعرف إني خدت برشامة منه إمبارح علشان أطبّق... ولحدّ دلوقتي صاحي وكأنّي لسه صاحي من النوم دلوقتي... ومش حاسس بأيّ تعب أو إرهاق!
اتسعت عينا سيف في اهتمام واضح:
- طب ما تجيب واحدة! ما إنت عارف أخوك عنده حبّ استطلاع!
ابتسم على ابتسامة ساخرة:
- إيه، هو بونبوني؟!
اقترب سيف منه أكثر، ووضع يده على كتفه بطريقة أخوية:
- علشان نروح مع خلود النت... وخلود صاحبة جنّة... وممكن توصّلك لجنّة حبيبة القلب... ولّا أصرف نظر؟!
ضحك على رغماً عنه، ثم هزّ رأسه باستسلام:
- خلاص إنت هتمثّل!
أخرج الشريط من جيبه مرة أخرى، وفتحه، ثم أخرج حبة واحدة وقدّمها لسيف:

- خد واحدة اهه...
تناول سيف الحبة بحماس، ووضعها في جيبه، ثم ربت على كتف على بقوة:
- أيوه كده! هي دي الصداقة الحقيقية! يالا بينا على المحاضرة...
خرج الاثنان من الكافيتيريا جنباً إلى جنب، بينما كانت الشمس قد بدأت تميل نحو التوهج، ملقية بظلالها الطويلة على ممرات الجامعة. وفي الأفق، كانت غيوم رمادية تتجمع ببطء، تُنذر بعاصفة قادمة لا يعلم أحد مداها...

(١٠)
التوغل داخل المجتمع

(شركة البطاطين)

في أعماق شركة البطاطين، ذلك المكان الذي يُشبه خلية نحل دائمة الطنين، حيث يتجمع البسطاء من الكادحين الذين يبحثون عن لقمة العيش الكريمة مقابل عَرَق الجبين وكدّ اليدين. إنهم فئةٌ أغلبها لا تفقه الكثير من تعقيدات الحياة، ولا تشغل نفسها بالتوجهات السياسية أو المعارك الأيديولوجية، بل تعيش ببساطة القلب ونقاء النية.

الحياة هنا أبسط ما يكون، منهم مَن يريد سداد الأقساط التي يراها حبلاً ملفوفاً حول عنقه يكاد يخنقه، فيسعى جاهداً لفكّه قبل أن يُطبِق عليه تماماً. ومنهم مَن ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، ليكون هناك لقاءٌ حميم على فراش الزوجية، تلك اللحظات النادرة التي يستعيد فيها إنسانيته المُتعَبة. ومنهم الغارق في بحر الديون حتى أذنيه، يحاول أن يُبقي رأسه فوق الماء بأي طريقة. ومنهم مَن يكافح ليجمع مستلزمات الزواج، ليبني عشّ الأحلام الصغير. ومنهم مَن يحاول سدّ احتياجات أسرته اليومية... ومنهم ومنهم الكثير والكثير.

وفي هذه الشركة، يتجمع مجتمع نسائي كبير، لأنه حيثما تجمّعت النساء، وُجِدَت الثرثرة والحكايات بكل أشكالها وألوانها، من الحُلو منها إلى المُرّ، ومن الصادق إلى المُختَلَق.

في صباح يوم عمل عادي، حين كانت أشعة الشمس الباهتة تتسلل من النوافذ المُتسخة لتُلقي بضوء خافت على ماكينات الحياكة المصطفة في صفوف منتظمة، وقفت نجاة بجوار الموقد الصغير في ركن القسم الذي تعمل به، وهي تُحضّر الشاي الصباحي. التفتت نحو زميلتها سيدة وقالت بصوت هادئ:

- أنا هعمل شاي... أعملّك معايا يا سيدة، على ما هالة تيجي ونحطّ الفطار؟

رفعت سيدة رأسها ببطء، وظهر وجهها المُجهَد الذي تعتليه علامات الإرهاق الواضحة. كانت امرأة في الأربعينيات من عمرها، لكن السنوات بدت وكأنها أضافت إلى عمرها عشر سنوات أخرى. عقدت إيشاربها الأسود على رأسها بحركة آلية مُتعَبة، ثم قالت بصوت خافت فيه نبرة استسلام:

- ماشي... بس شاي تقيل، نُصّ معلقة سكر... يالا حرقت دم بحرقت دم...

انحنت نجاة على الأكواب الزجاجية، ووضعت فيها السكر والشاي دون أن تنظر إلى سيدة، ثم قالت بنبرة فضولية:
- مالك شايلة طاجن ستّك فوق راسك كده ليه؟
تنهدت سيدة تنهيدة عميقة خرجت من أعماق صدرها، ثم أغمضت عينيها للحظة كأنها تجمع قواها، وقالت بصوت مُرهَق:
- خلاص يا نجاة... جبت آخري، قرفت! هَم في الشغل وهَم في البيت!
توقفت نجاة عن التحريك، والتفتت نحوها بقلق واضح:
- ليه بس كده؟ فضفضي، شكلك معبّية...
وضعت سيدة يدها على جبهتها، ومسحت عرقاً خفيفاً كان قد تجمّع عليها رغم برودة الصباح، ثم قالت بصوت متحشرج:
- الواحدة تخلّص الشغل وترجع البيت، تبقى نفسها ترتاح... وأنا أول ما أدخل من عتبة الباب، ألاقي العيال مستنّية الخدّامة... من غسيل لمسيح لطبيخ... لحدّ ما حطّيت صوابع العشرة في الشقّ!
جاءت نجاة ووضعت كوب الشاي الساخن أمام سيدة بحركة رقيقة، ثم جلست بجوارها قائلة بنبرة مُواسية:
- طب وإيه الجديد؟ ما هو ده طول عمره العادي عندك وعند غيرك...
أمسكت سيدة بالكوب الساخن بين كفّيها، وكأنها تستمد منه دفئاً ينقصها، ثم ارتشفت منه رشفة صغيرة على مضض، وقالت وعيناها تلمعان بدموع محبوسة:
- لأ أنا تعبت خلاص... صحتي بقت على قدّها... من بعد ما جاليَ السكّر، مبقتش أقدر على كل ده...
توقفت للحظة، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم أكملت بصوت يرتجف:
- ولو قعدت من الشغل... إنتِ عارفة مش هنلاقي ناكل... جوزي يوم شغّال وعشرة لأ... بيطلع طوب ورمل وإسمنت، وكلّه على حساب صحته وعافيته... وهو كمان تعبان وطلع عنيه علشان خاطر لقمة العيش، ومفيش بإيديه حاجة يعملها...
مسحت دمعة كانت قد سقطت على خدها، ثم أكملت بصوت مختنق:
- لو تشوفيه وهو نايم... بينازع... يصعب عليكي...
في هذه اللحظة، دخلت هالة بخطوات واثقة ممتلئة بالحيوية. كانت تحمل كيساً بلاستيكياً في يدها، ووضعته على كرسي قريب، فانتشرت رائحة الطعمية الساخنة والبطاطس المقلية في المكان.
ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت بصوت مرح:

- السلام عليكم! عاملين إيه يا بنات؟
قبل أن تنتظر الرد، أخذت كوب الشاي من أمام نجاة وارتشفت منه رشفة.
رفعت سيدة رأسها، ومسحت بسرعة آثار الدموع من عينيها، ثم ابتسمت ابتسامة مُصطنعة وقالت بنبرة مُتكلَّفة:
- أهلاً بمُزّة الشركة! إيه يا بنت الحلاوة دي؟ إنتي بتكبري ولّا تصغّري؟!
ابتسمت هالة بخجل، ثم أخذت رشفة أخرى من الشاي. في هذه اللحظة، قالت نجاة وهي تحاول انتزاع الكوب من يدها:
- وعليكم السلام... بس كفاية سيبي لي حبّة، دماغي مصدّع، إمبارح منمتش كويس...
جلست سيدة أمام ماكينة الحياكة، وبدأت تُلضم الإبرة بحركات آلية مُتقَنة، ثم قالت بنبرة ساخرة:
- اتفضّلي آه انتِ! لسه بطولك والفكر ماسكك... إمّال أنا أعمل إيه؟ مصاريف البيت ومصاريف العيال بقت تقطّم الوسط... العيال طلباتهم مبتخلصش... يقطع الخلفة وسنينها!
توقفت للحظة، ثم أضافت بصوت فيه مرارة ساخرة:
- الواحدة مكانتش نامت بدري وأدت جوزها ضهرها... أحسن!
تجمّدت ملامح هالة فجأة. نزل بصرها إلى الأرض، فهى قد حرمت من الإنجاب، قالت بصوت منخفض فيه ألم مكتوم:
- حكمتك يا رب... محدش عاجبه حاله! لا اللي معاه عيال عاجبه، ولا اللي معهوش برضه عاجبه...
لاحظت نجاة التوتر الذي خيّم على المكان فجأة، وأدركت أن كلام سيدة قد جرح هالة في الصميم. أسرعت بالتدخل محاولة تلطيف الأجواء:
- هو حد جاب السيرة دي دلوقتي؟! هو إنتِ بتتلكّكي؟!
فطنت سيدة فجأة لما قالته، وأدركت حجم الألم الذي سببته لهالة. توقفت عن العمل، والتفتت نحوها بوجه مُعتذِر:
- معلش يا هالة... أنا مقصدتش أجيب سيرة الخلفة والعيال... بس خلاص فاض بيّا...
رفعت هالة رأسها ببطء، ورسمت على وجهها ابتسامة مُصطنعة تحمل في طيّاتها كل معاني الألم والحسرة. كانت ابتسامة باهتة، كالقمر خلف الغيوم:
- ولا يهمّك... بس لازم تعرفي... محدش بياخد كل حاجة...

توقفت للحظة، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم أكملت بصوت يحاول أن يبدو قوياً لكن عينيها كانتا تحملان حزناً عميقاً:
- أنا أهه قدامك، عايشة كويس... جوزي مكوجي وبيكسب كويس... وأنا بشتغل بس علشان أجيب حتّة دهب... قميص نوم شكله عجبني... عباية... إزازة برفان...أصل جوزي بيحبّ الدلع موت... وبصراحة هو مدلّعني على الآخر... عمره ما زعّلني... لو طال يغسل، يمسح الشقة مكاني، علشان يشوفني مبسوطة... ميتأخّرش...
أخذت نفساً عميقاً، وكأنها تستجمع قواها لتُكمل:
- بس... هي الدنيا كده... مشكلته إنه مابيخلّفش...
صمتت للحظة طويلة، وتلألأت دموع في عينيها لم تسمح لها بالسقوط، ثم أكملت بصوت مختنق:
- ووافق إني أشتغل... بس علشان أضيّع وقت ومحسّش بالوحدة... ووقت ما أقول مش هشتغل، مش هشتغل... لكن الشغل بجدّ بينسّيني شوية الموضوع ده...كلمة منّك على كلمة من البت نجاة، على كام حكاية للبنات في الشركة... اليوم بيعدّي... وأهي ماشية...
نظرت سيدة إلى هالة نظرة طويلة مُتعجِّبة، ثم لوت شفتيها وقالت بنبرة فيها غيرة خفيفة:
- والنبي لو مكانك، ما هقوم من على السرير! هعيش ملكة زماني، مفيش همّ ولا حاجة تكبّرك قبل أوانك، أشى أحمر شفايف، مونكير، يا دلع دلع!
هزّت هالة رأسها بحزن، ثم قالت بصوت فيه مرارة:
- بيتهيألك يا سيدة... هتلاقيني أنا كمان بقولّك: عيالك حوليكي بالدنيا... وإنتِ شايفاهم وهُمّا كل يوم بيكبروا قدام عينيكي...غير حاجات كتير... حاجات كتير... إحساس الأمومة والعزوة... ولادك هُمّا دول الدنيا!
تذكرت سيدة آية من القرآن الكريم، فقالت بصوت خافت:
- المال والبنون زينة الحياة الدنيا... إنتِ معاكِ المال، وأنا معايا البنون... تشتري عيل من العيال، ونبقى كده مشكلتنا اتحلّت!
ابتسمت هالة ابتسامة حزينة، وهزّت رأسها:
- يا ريت كان ينفع... لا إنتِ هتستغني عمرك عن ضناكي... ولا أنا عمري هحسّ إني أمّ بجد...
دفعت سيدة هالة بيدها دفعة خفيفة مُحبَّة، ثم قالت بنبرة ساخرة:

- غوري! ده إنتِ كئيبة! بقولّك إيه، إن جوّايا كآبة تكفي مديرية، مش ناقصة كآبة زيادة... أنا حاسة إني خلاص مش قادرة أمشي، وهسحف على ركبي قريب!
رأت نجاة أن الوقت قد حان، فقالت بنبرة هادئة وكأنها تعرض حلاً سحرياً:
- طب... واللي يحلّلك المشكلة دي يا سيدة؟
نظرت إليها سيدة بدهشة واستغراب، قالت ببلاهة:
- إزّاي؟! هتصرفي إنتِ علينا؟! ولّا هتيجي تمسحي الشقة وتغسلي هدوم العيال مكاني؟!
ابتسمت نجاة ابتسامة غامضة، ثم أخذت عود جرجير وقضمته ببطء، وقالت بنبرة واثقة:
- لا يا ناصحة... لا ده ولا ده... ده شريط برشام فيتامينات... أمي بتاخده من الصيدلية اللي بتروح تنضّفها...
أخرجت من جيبها شريط برشام، ورفعته في الهواء كأنه كنز ثمين:
- البرشامة الواحدة هتخلّيكي زي الحصان... تبرطعي براحتك... غسيل، مسيح، طبيخ... ولا هتحسّي بأي تعب خالص!
اتسعت عينا سيدة في دهشة، وغمرتها الفرحة فجأة، فنهضت من مكانها واقتربت من نجاة:
- بجدّ يا بت يا نجاة؟! إيدك أبوسها! حقّه، لو زي ما بتقولي كده، تبقي عملتي فيّا جميل عمري ما هنساهولك!
أمسكت بيد نجاة بحرارة، ثم أكملت بصوت مُتأثر:
- علشان أقدر أكمّل... مش علشاني بس... عشان خاطر العيال... وليكي عندي طبق كشري هعمّلهولك بإيديا... فشر كشري المحلّات!
تظاهرت نجاة بالخجل، ثم قالت وكأن هذا العرض هو أبلغ أمانيها:
- وإنتِ طبيخك الكل بيحلف بيه يا سيدة! نَفسك، بصراحة، لا يعلى عليه!
شعرت سيدة بالفخر لأن نجاة راق لها العرض، فانتفضت وقالت بحماس:
- إنتِ ناسية إن أبويا الله يرحمه كان فاتح مسمّط؟! والنفس ده وراثة منه... علّمني من وأنا صغيّرة سرّ الطبخ والتوابل... وشوية الشرية بالحبهان والمستكة... ده غير جوزة الطيب وحتّة اللحمة الملبّسة...بس يخرب بيت دماغك ريقي جرى على الأكل... يالا نفطر!
أخرجت نجاة من الشريط حبة واحدة بحركة بطيئة مُحسوبة، ثم مدّت يدها نحو سيدة:

- طب خُدي... جرّبي حباية... بمقام كيلو لحمة! ولو مطلعتش زي ما بقولّك كده... بحقّ... دي من بلاد برّه!
انتزعت سيدة الحبة من يدها بسرعة، ووضعتها في جيبها بحرص كأنها جوهرة نفيسة. قالت هالة من باب الفضول، وقد راق لها البرشام:
- طب ما تجيبي واحدة أنا كمان يا بنت القرعة! ولّا أنا مليّش نفس؟!
ابتسمت نجاة ابتسامة ماكرة، وشعرت بأن خطتها تأتي بثمارها، فقالت:
- بسّ كده! خُدي واحدة أهه... بس هتعملي بيها إيه؟
ابتسمت هالة ابتسامة عريضة، ثم قالت بنبرة جريئة:
- يا ختي... أدلّع بيها الراجل! أصله كل ليلة عايزني على سنجة عشرة... وكمان أرقصله... وكل يوم عايز...
توقفت فجأة، واحمرّ وجهها قليلاً، ثم أكملت بصوت خافت:
- ...مابيتهدّش ولا بيزهق!
لم تستوعب نجاة معنى جملة هالة الأخيرة، فقالت بسذاجة:
- يزهق من إيه؟! ده إنتِ عليكِ رقص! فشر الرقصات بتوع الأفلام!
انفجرت سيدة في ضحكة عالية مجلجلة، ووضعت يدها على بطنها، ثم مسحت دموع الضحك من عينيها:
- هُمّا يضحك وهُمّا يبكي! يخيّبك يا هالة، إنتِ بتقولي إيه؟! ملكيش دعوة إنتِ يا نجاة... لمّا تتجوّزي هتعرفي... هيزهق ولّا لأ!
ثم نظرت إلى هالة بإعجاب واضح:
- بصراحة الراجل معاه حقّ يا هالة... جسم ورسم! حتّة ملبن في إيده... إنتِ تحرّكي الحجر يا بت!
نظرت نجاة إليهما بحيرة، ثم قالت ببراءة:
- بقي كده مش عايزين تقولوا؟! طب... من بكرة الحباية بتلاتة جنيه... وأنا متأكدة إنكم هتدعولي... بس برضه عايزة أعرف... مابيزهقش من إيه؟!
ضحكت سيدة وهالة معاً على عدم فهم نجاة، وتبادلتا نظرات تفاهم صامتة.
أخذت كل واحدة منهما الحبة من يد نجاة دون تردد أو خوف، دون أن تسأل عن مصدر البرشام أو أضراره أو مدى تداوله قانونياً. كل منهن كانت تبحث عن قشة تتعلق بها لتكمل حياتها على نفس المنوال، دون أن تدري أنها تمسك بحبل سيجرّها إلى هاوية لا قرار لها.

جلست الثلاثة حول الطعام، وبدأن في تناول الإفطار بشهية، بينما كان شريط البرشام الفضي يلمع في جيب نجاة، كأنه ثعبان يتلوى في انتظار اللحظة المناسبة ليلدغ...

الجامعة

نهاية اليوم الدراسي

أحدثت جريدة الضوء الساطع دويًا هائلًا يتردد صداه بين جدران الجامعات العتيقة، دويًا لم يكن مجرد همس عابر، بل كان زلزالًا يهز أركان القيم ويعصف بما تبقى من حياء. والأمر الأشد إثارة للدهشة والفزع معًا كان ذلك التهافت المحموم من الفتيات على شراء الجريدة، تهافتًا يشبه العطش إلى المحرم، في مؤشر خطير ينبئ ببداية حقبة زمنية جديدة تشهد انحدارًا مريعًا للخجل الأنثوي الفطري.

حركت الجريدة رغبات جامحة كانت راقدة في أعماق صديقات خلود، رغبات استيقظت الآن من سباتها العميق كوحوش جائعة. فعلى هذا الانحدار في قيم الخجل، تراكمت بداية حالات الزواج العرفي بين الطلاب والطالبات، وعلاقات محرمة تُنسج خيوطها في الظلام، تنتشر كالوباء الصامت. لكن وسط هذا الطوفان من الانحلال، كانت هناك فتاة واحدة رأت في الجريدة قذارة مقززة تُثير الغثيان. تلك الفتاة كانت جنة، صديقة خلود.

كانت نقيض خلود في كل شيء. فالمعروف عن خلود جرأتها الفاقعة في التعامل، جرأة لم تأتِ من فراغ، بل من بيئة صنعتها على عينها.

نشأت خلود في بيئة فقيرة، لأب يكدح في مصنع لإنتاج الأحذية بمرتب يكاد يكفي بالكاد متطلبات الأسرة الضرورية. لكن الأم كانت امرأة من طراز آخر، امرأة لعوب تعشق الذهب والمال عشق المدمن للمخدر، تلهث خلفهما بشهوة لا تعرف الشبع.

كانت خلود الصغيرة ترى طريقة تعامل أمها مع البائعين في السوق، ترى كيف تسمح لأيديهم بلمس أجزاء من جسدها في خفة ماكرة، وترى نظرة التلذذ في عيني والدتها بتلك اللمسات المسروقة. كانت ترى كيف تتعمد أمها ارتداء أقمصة نوم شفافة عند نشر الغسيل على الحبال، لترى لهفة الرجال على جسدها، لتتغذى على نظراتهم الجائعة.

ترعرعت خلود في هذه البيئة السامة، وهي لم تتأكد مرة واحدة من خيانة والدتها الصريحة لأبيها. كانت تتساءل في دواخلها: هل كانت والدتها بهذا الذكاء الماكر الذي جعل أمرها لا يُفضح؟ أم أنها فعلًا لم تصل إلى درجة معاشرة رجال آخرين وبقيت عند حدود الإغراء؟

لكن الأمر الأكثر غرابة وترويعًا جاء لاحقًا. أُصيبت والدة خلود بمرض خطير أدى إلى وفاتها في عمر مبكر. انطلقت الإشاعات همسًا بأنه مرض الإيدز، لكن ما أكد الإشاعات وحولها إلى حقيقة دامغة هو وفاة والدها بالمرض نفسه بعد أشهر قليلة. نبذتها عائلة والدها، ونبذتها عائلة والدتها، كأنها حملت إثم الوالدين معًا. صارت خلود اليتيمة المنبوذة، الوحيدة في هذا العالم القاسي.

لكن القدر - أو ربما ثمن الخطيئة - كان رحيمًا بها بطريقة ما. وجدت خلود دفتر توفير باسمها يحتوي على مبلغ يقترب من مائة وخمسين ألف جنيه، مبلغ ضخم لفتاة في مثل سنها. كانت تصرف من أرباحه تحت وصاية أقاربها الطماعين. كما عثرت على صندوق صغير مخفي في غرفة والدتها، يحتوي على مصوغات ذهبية بالفواتير تساوي أكثر من خمسين ألف جنيه - أي ما يقرب من كيلو إلا الربع ذهبًا في ذلك التوقيت.

أخفت خلود الذهب بعيدًا عن أيادي أقاربها الجشعة، خوفًا من طمعهم فيه أولًا، وثانيًا لتخف الشكوك المريبة حول أمر والدتها: من أين أتت بكل هذا المال والذهب؟

كوَّنت خلود عدة عقائد شخصية تعيش بها، أهمها: أن ترى نظرة الإعجاب بل الشهوة من كل من يراها بسبب طريقة لبسها المثيرة، وطريقة مشيها المحسوبة، وطريقة تحدثها الاستفزازية مع الآخرين من رجال ونساء.

كانت متوسطة الطول، ذات جمال لافت وشعر طويل تغير لونه باستمرار كالحرباء، تتلون بحسب مزاجها ورغبتها في لفت الأنظار. كان شغلها الشاغل في الجامعة هو التقرب من سيف، الشاب الذي كانت ترى فيه فتى أحلامها في السرير، لا في الحياة. سيف... الشاب الوسيم ممشوق القامة، ابن صحفي مشهور ووالدته صاحبة كوافير مشهور في وسط البلد. تربى على الحرية المطلقة والأخذ بلا حساب ولا عقاب. منذ صغره كان يرى النساء في كوافير والدته، يراهن وهن يتعاملن ويتحدثن بحرية مطلقة أمامه باعتباره طفلًا صغيرًا لا يفهم. لكن الطفل كبر، والغريزة نمت بداخله كوحش متعطش، وتكونت في أعماقه غرائز جنسية جامحة لا ترتوي.

أصبح مدمنًا محترفًا للمخدرات، لكنه يملك من الذكاء ما يجعله يكبح جماح غرائزه عند اللزوم، ويخفي إدمانه خلف ابتسامة واثقة. كان لديه طموح لا حدود له ليصبح من المشاهير، مهما كان الثمن.

كوَّن هو الآخر عدة عقائد، أهمها: أن النساء بداخلهن شهوات جنسية مكبوتة أكثر بكثير من الرجال، شهوات تحترق في صمت خلف الأبواب المغلقة، دائما يرى نفسه أفضل أهل الأرض تعاملا مع المرأة وجسدها.
فقد نمت إلى سمعه من أحاديث نساء الكوافير أشياء عجيبة: إحداهن قالت إنها تريد أن يغتصبها زوجها بعنف! وأخرى حلمت بأنها عاشرت رجلًا أمام أعين زوجها، وأحبت الفكرة لكنها لا تعرف كيف تنفذها! وثرثرة أخرى وأخرى من نساء يبحن بأسرارهن تحت مقص الحلاق.
لذلك كان سيف لا يشعر بالنقاء والصدق إلا في صديقه على، كما كانت خلود لا تشعر بالنقاء إلا في صديقتها جنة. ورغم ذلك، لم يكن لدى سيف وخلود مانع من انحراف على وجنة إلى طريقهما المظلم عاجلا أم أجلا.

جنة... كانت مثالية بكل المقاييس، ليست من النوع الذي يهواه شباب هذا الجيل المنحرف. شخصية قليلة الكلام، بيضاء البشرة، متوسطة الطول، جسدها أكثر من رائع لكنها تخفيه خلف ملابسها الفضفاضة الطويلة المحتشمة. شعرها البني الناعم القصير أو كما. يطلقون عليه كاريه يؤطر وجهها الملائكي مختفى تحت الحجاب.
نشأت جنة في بيت لا يوجد فيه سوى أخيها الذي يكبرها بعامين، وجِدتها العجوز الحكيمة، حيث إن والديها يعملان في إحدى دول الخليج منذ سنوات. اهتمت بها جدتها أيما اهتمام، وقامت بتربيتها على القيم والمبادئ القديمة، فأثرت جدتها في تكوين شخصيتها بشدة وعمق.
على النقيض، لم تستطع الجدة السيطرة على أخيها الذي ظهر فشله في الدراسة عامًا بعد الآخر، فتركته يسبح في بحر الضياع.
على... كان يمثل لجنة شخصية مختلفة تمامًا عن باقي شباب الجامعة. شخصية تتسم بالهدوء والاحترام والوقار. نظراته القليلة النادرة لها كانت تدق جدران قلبها بقوة عنيفة، كأنها معاول تحفر في صخر الروح.
لكنها لا تعلم شيئًا عنه سوى القليل من خلال أسئلتها المستمرة المتكررة لخلود، لكن إجابات خلود كانت دائمًا غير وافية، لأن خلود لا تعلم شيئًا عن على. بل الأسوأ، أنها ترى فيه شخصًا لا يستحق القبول في دائرتها، فهي تراه معقدًا نفسيًا!
نعم، معقد نفسيًا... هذا هو الوصف الذي يطلقه طلاب وطالبات الجامعة على أمثال على وجنة في هذا الجيل. أي شخص متمسك بالقيم يُوصف بالتعقيد النفسي!

ارتبطت جنة وخلود بعلاقة صداقة قوية رغم التناقض الصارخ بينهما. كانت جنة بالنسبة لخلود كماء النهر النقي الصافي، الذي ترى فيه انعكاسًا واضحًا لطموحاتها القذرة في الحياة، كأنها تحاول أن تطهر ضميرها بمجرد الوقوف بجانب الطهر.
أقنعت خلود صديقتها جنة بالانتظار بعد المحاضرات، قائلة بنبرة الواثقة من خطتها:
- استني يا جنة بعد المحاضرة، عندي ليكي مفاجأة!
وبالفعل، اندهشت جنة عندما رأت على أمامها فجأة، يقف بجانبه سيف. اتسعت عيناها من الصدمة، وتسارعت دقات قلبها حتى كادت تُسمع.
قالت خلود بصوت مرتفع مسموع وهي تبتسم ابتسامة الفائز:
- أعرّفكم على بعض! جنة... سيف... على!
وبعد الانتهاء من ترحيب مملوء بالتحفظ والخجل من الطرفين، همس سيف في أذن على قائلًا بنبرة ساخرة استفزازية:
- ابسط يا عم! مش هي دي جنة اللي كنت هتموت وتتعرف عليها وتكلمها؟
احمر وجه على كالجمر المشتعل، وقال بصوت متلعثم محرج:
- اسكت! اسكت!
ثم دهس قدم سيف اليسرى بقدمه متعمدًا بقوة، كعلامة على ارتباكه الشديد وأن الأمر لا يحتمل قول سيف أي شيء آخر.
لاحظت خلود ارتباك على وجنة، ورأت علامات الخجل الواضحة على ملامحهما - الوجه الأحمر، العيون المتجنبة، الأيدي المرتعشة - فقالت بنبرة عملية:
- طب إيه؟ مش يلا بينا على مركز النت؟
أدرك على أنه قادم على كارثة حقيقية. كيف سيذهب إلى مركز الإنترنت في وجود جنة؟! كيف ذلك والملاك واقفة أمامه؟! فقال في ارتباك شديد:
- لا، أنا هروح أصلي!
أمسك سيف بيده بقوة وهمس له بصوت لا يُسمع:
- إنت إيه عبيط؟! الفرصة جت لحد عندك وعايز تمشي؟!
همس له على بنبرة حادة قاطعة:
- نت إيه اللي هنروحه قدام جنة؟! إنت عايزها تقول عليا إيه؟! لا يا عم، بلاش إحراج!
ابتسم سيف ابتسامة ماكرة وقال:

- يا ابني، وإيه المشكلة؟ ماهي كمان جاية معانا! ليه التوتر ده؟ اسكت دلوقتي... يلا بينا يا خلود!
قالت خلود بجرأة فجة:
- خلاص اتفقتوا؟ أنا مش عارفة مين اللي حقه يفكر ويبقى متردد، الولد ولا البنات؟! شباب آخر زمن!
ظهر صوت جنة الرقيق الهادئ يقطع الجدل، صوت فيه ارتباك واضح:
- أنا كده هتأخر... وبعدين أنا مش فاهمة هنروح سنتر النت ليه دلوقتي؟
قالت لها خلود بنبرة مطمئنة:
- صدقيني مش هنتأخر! هما خمس دقايق... هوريهم حاجة على النت بس.
قالت جنة بحزم وهي تنظر في عينيها مباشرة:
- وعد! خمس دقايق بس! بعد كده والله هسيبك وأمشي!
دفعت خلود باب مركز الكمبيوتر الزجاجي، فدخل الأربعة إلى المكان الذي كان يعجّ برائحة الدخان الممزوج بعطر رخيص ورائحة القهوة الباردة. كانت الأضواء خافتة، والشاشات المضيئة تلقي بوهجها الأزرق على وجوه الشباب الجالسين أمامها.
توجهت خلود نحو الموظف خلف المكتب بثقة لافتة، ووضعت يدها على سطح الطاولة:
- لو سمحت... عايزين جهازين فاضيين... يكون فيهم جهاز متوصّل عليه نت ووقت مفتوح، والتاني مش هيفرق...
أشار الموظف بيده نحو الأجهزة في الخلف، فتوجهت المجموعة إلى هناك.
جلس سيف أمام جهاز في منتصف المركز بحماس واضح، بينما جلس على بجواره وهو ينظر إلى الأرض، تائه في أفكاره، قلبه يدق بقوة، وعقله مشغول بوجود جنة خلفه.
التفت سيف نحو خلود وقال بصوت متلهف:
- ها! هنعمل إيه يا خلود؟
ابتسمت خلود ابتسامة ماكرة، ثم قالت:
- شغّل الجهاز يا سيف... على ما أجيلك...
ثم التفتت نحو جنة وأمسكت بيدها:
خلود: تعالي يا جنة... تسمعي أغاني لمين؟

جلست خلود على جهاز في آخر المركز، بعيداً عن الأنظار، ووضعت سماعات الهيدفون حول أذنيها. جلست جنة بجوارها على كرسي متهالك، وقالت بنبرة فيها حيرة:
- أنا هشوف أي حاجة أسمعها... بس إنتِ برضه مش عايزة تعرّفيني... هتعملي إيه؟!
نظرت إليها خلود بطرف عينها، ثم قالت بنبرة ساخرة:
- بقولّك إيه؟ مش هودّي على اللي معجبة بيه... هو أنا هلاقيها منهم ولّا منّك؟!
تظاهرت جنة بالغضب، ونهضت من مكانها:
- بقي كده؟! طب أنا هقوم أمشي!
أمسكت خلود بذراعها بسرعة وأجلستها مرة أخرى:
- لأ! مش وقت جنان ده... هما دقيقتين ونمشي على طول... أنا اللي استاهل... صحيح، أمشي في جنازة ومتمشيش في جوازة!
تنهدت جنة باستسلام، ثم قالت بصوت خافت:
- خلاص... خلاص... مش إنتِ صاحبتي؟ لازم تستحمليني... واللي بيعمل معروف بيكمّله للآخر...
مسحت دمعة كانت قد تجمعت في طرف عينها، ثم أكملت بصوت مرتجف:
- إنتِ مش عارفة قلبي بيدقّ إزّاي... أنا هسمع فيروز على ما تخلّصي...
ابتسمت خلود ابتسامة حانية، وربتت على كتفها:
- سيدي يا سيدي... فيروز! أيوه كده! الحبّ ده إحساس جميل... يا بخت اللي بيحبّ... هخلّص في ثواني ونمشي على طول...
توجهت خلود نحو سيف وهي تبتسم من بلاهة الحب، على حد قناعتها. نظر إليها سيف وقال بحماس:
- أنا شغّلت الجهاز... وعلي دخل على جوجل... أهه!
نظرت خلود إلى علي الذي كان جالساً بصمت، ثم قالت:
- طب ما إنت بتعرف تتعامل... أهه يا علي!
لم ينطق على بكلمة، فتدخل سيف معبراً عن امتنانه بصديقه:
- يا بنتي، على عنده جهاز كمبيوتر في الصيدلية اللى واقف فيها وفيه نت كمان... وبعدين مش كيميا يعني... احنا كل اللي عملناه دخلنا على جوجل!
قالت خلود وهي تنظر إلى شاشة الكمبيوتر وتكتب على لوحة المفاتيح بسرعة:
- طب تمام... نكتب اسم الفيلم في جوجل وندوس بحث... وبعد كده... أهه، ظاهر مواقع عليها الأفلام... بس معظمهم نصب...

توقفت للحظة، ثم أكملت بنبرة واثقة:
- الموقع اللي هتلاقي عليه الأفلام بشكل كبير هو ده: 'She & He' للأفلام العربية الممنوعة من العرض... ندخل عليه... هي الجريدة فين؟ كانت في إيدي دلوقتي...
أخرج سيف الجريدة من تحته بحركة سريعة، وقال بنبرة مُعترِفة:
- الجريدة أهه! أصلي أنا مش عارف... متأثر بيها قوي كده ليه!
قالت له خلود بسخرية وهي تهز رأسها:
- يا واد بطّل بقي! المفروض إنك طالب في كلية آداب... آداب!
ردّ عليها سيف بنفس السخرية:
- متلحّنيها أحسن! إنتِ محسّساني إنك دكتورة في جامعة كاليفورنيا... يا ريت تشوفي شغلك أحسن!
شعر علي بالحرج الشديد، ونهض من على كرسيه فجأة وقال بصوت حازم:
- لأ! كفاية كده! كده تمام قوى.
ابتسمت خلود ابتسامة واسعة، ثم قالت بجرأة واضحة:
- متخافش يا علي... أنا مش هشغّل حاجة... احنا في مركز نت... أنا هعرّفكم تعملوا إيه بس...
بدأت تشرح بسرعة وهي تؤشر بإصبعها على الشاشة:
- بُصّ... دي صور الأفلام... هي فعلاً خادشة للحياء، بس مش مشكلة... هنختار فيلم منهم... وبعدين ننزّل تحت كده، وندوس على علامة التشغيل الزرقا دي...
ضغطت على زر التشغيل، فظهرت صورة مُخِلّة على الشاشة للحظة، فأسرع على بإدارة وجهه بعيداً. تجاهلته خلود وأكملت:
- الفيلم هيشتغل أون لاين... بس هيبقى بطيء شوية... لكن لو النت تمام، هيشتغل كويس... أهه، الفيلم بدأ! ولو عايز تقدّم الفيلم شوية... أهه... ولو عايز ترجع مشهد تاني... من هنا... والباقي إنتوا عارفينه... ها، إيه رأيكم بقي؟
قال لها سيف في انبهار واضح:
- كده تمام التمام! لمّا أروح، هظبّط الكلام... إيه يا بنت الحلاوة دي؟! شطورة! شطورة!
نظرت له خلود في غيظ مُصطنَع، وقالت:
- بقي كده؟! ماشي... إنتوا كده يا رجالة... أول ما مصلحتكم تخلص، تستهزؤ بينا... متقول حاجة يا علي!
ردّ على بسذاجة واضحة، محاولاً التقليل من الأمر دون أن يقصد:

- عادي يعني... كل ده أصلاً أنا عارفه من قبل كده، تقريباً زي اليوتيوب...
شعرت خلود من كلام على ونبرة صوته بالاستقزاز، فقالت له بحدة:
- إمّال مبلّم ليه يا علي؟!
ضاق على من طريقة كلام خلود، وتساءل في نفسه: كيف لفتاة أن تكلم شاباً بهذا الأسلوب؟! فقال لها في ضيق واضح:
- مبلّم؟!
شعر سيف بتطور الحديث بين الاثنين إلى مكان غير محمود، فأسرع بالتدخل محاولاً تلطيف الأجواء:
- إيه يا علي؟! خلود بتهزر معاك!
ثم نظر إلى خلود وغمز لها بعينه اليمنى، ليستكمل كلامه موجهاً إياه لها:
-...أصله متنشّن بس... علشان دماغه مشغولة بصاحبتك... جنة!
هدأت خلود فجأة، وشعرت أنها أقحمت نفسها في حوار مع الشخص الخطأ، فقالت بنبرة هادئة:
- أمممم... بقي كده...
قال على بنبرة حادة وهو ينهض من مكانه:
- إنت بتقول إيه يا سيف؟! أنا هقوم أمشي... سلام!
أمسك به سيف من ذراعه:
- لأ! تمشي إزّاي؟! إمّال مين اللي هيحاسب؟! أنا النهاردة مشطّب من كلّه!
أطلقت خلود سهماً إلى قلب علي قائلة:
- عايز تمشي من غير ما تسلّم على جنة؟! غريب إنت يا مان! ولو على الحساب، أحاسب أنا... رقبتي سدادة!
قال لها سيف ساخراً:
- هههها! لو رقبتك سدادة، اعمليها سدادة للحوض! عجبك كده يا علي؟! هتخلّيها تعيش دور الشهامة علينا... يالا حاسب يا عمّ علي، مش عايزين شكلنا يبقى أوحش من كده!
-حاضر... هروح أحاسب... بس انجز!
خرج الأربعة من المركز إلى الطريق، حيث كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، ملقية بظلال طويلة على الرصيف. قالت خلود بصوت مسموع لهم جميعاً:
- بقولّك إيه يا سيف... تعال نسبق خطوتين... علشان عايزاك في موضوع مهم... ونسيبهم يتكلموا شوية... الظاهر مكسوفين منّا!

شعرت جنة بالإحراج الشديد من طريقة كلام خلود، بالإضافة إلى تسارع دقات قلبها لوجودها مع علي في مكان واحد. قالت بحدة، ولكن برقة وبصوت مرتجف:
- إنتِ بتقولي إيه يا خلود؟! لأ، خلّيكِ لو سمحتي!
لم تكترث خلود، وتقدمت بخطوات سريعة إلى الأمام بصحبة سيف، قائلة:
- ما احنا ماشيين قدامك... أهه!
ابتسم سيف وقال بصوت مسموع:
- خلود تقصد إن الموضوع اللي هنتكلم فيه أنا وهي... مش هينفع حد يسمعنا!
ابتسمت خلود وقالت ساخرة:
- بالظبط! ولو حاجة حصلت... كده ولا كده... صوّتي ولمّي الناس!
ابتسمت جنة رغماً عنها، وقالت بصوت خافت:
- دمّك تقيل!
نظرت لها خلود في دهشة مُصطنعة:
- بقي كده؟! دمّي دلوقتي بقي تقيل؟! طب أسيبك إنتِ مع أبو دمّ خفيف... هو أنا النهاردة عمّاله اتهزّأ من أول اليوم ليه؟! صحيح... 'ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه'... يالا يا بني!
قالتها وأسرعت بالخطوات بصحبة سيف، حتى ابتعدا مسافة لا بأس بها عن جنة وعلي.
وما إن أصبح على وجنة شبه وحدهما في الطريق، حتى نزل صمت ثقيل بينهما. كان عقل كل منهما يقول الكثير والكثير، لكن الألسنة كانت معقودة.
أخذ على القرار وقرر أن يتكلم، فخرج صوته بصعوبة بصوت مُتحشرج:
- عاملة إيه؟
حافظت جنة على هدوء أعصابها قدر المستطاع، وقالت بثبات انفعالي مُفتَعَل:
- الحمد لله... وإنت عامل إيه؟
توقف علي عن المشي للحظة، ونظر إليها بعينين مليئتين بالشوق والحب، ثم قال بصوت يرتجف:
- أنا مش عارف... هو أنا كده بحلم ولّا دي حقيقة؟! هو أنا فعلاً بسمع دلوقتي صوتك؟! فعلاً الصوت اللي بيسألني على حالي ده... صوت جنة؟!
شعرت جنة أن نبرة صوت علي وكلامه سوف يجعلانها تنهار على قارعة الطريق، لذلك قالت في جدية مُفتعَلة:
- علي... لو سمحت... علشان مندمش إني اتكلمت معاك!

كان علي يعلم قيمة الوقت والدقائق المعدودة له بصحبة جنة، لذلك كان يريد أن يُخبرها بكل ما يحمله لها من مشاعر نقية وحب عذري. قال بصوت ممتلئ بالصدق:
- والله مقصدش حاجة وحشة، صدّقيني... لو قولتلك إن ده فعلاً كان حلم... بالنسبة لي بجدّ! من زمان وأنا نفسي أتعرف عليكِ... لكن بقول: أنا فين وهي فين؟! بقي الملاك ده ممكن يسمعك في يوم ويتكلم معاك؟!
أخذ نفساً عميقاً، ثم أكمل:
- من أول يوم شوفتك فيه... وأنا معجب بيكِ وبأدبك... بحسّ إنك من كوكب تاني... وأنا بجدّ مقصدش حاجة وحشة... أنا حاولت أعبّرلك عن اللي جوّايا... علشان مفيش فرصة أحسن من دي... ولو حسّه إن كلامي ضايقك... بجدّ أنا آسف...
توقفت جنة عن المشي، والتفتت نحوه بوجه جاد، لكن عينيها كانتا تلمعان:
- علي... متتأسفش... أنا قصدي إني بتكلم معاك في الشارع... ودي آخر حاجة أتوقع إني هعملها في يوم من الأيام...
نزل بصرها إلى الأرض، ثم أكملت بصوت خافت:
- وأنا بتكلم معاك دلوقتي علشان عارفة مين هو علي... وقد إيه هو محترم... ومش عايزة صورتي تتهزّ لا قدامك ولا قدام نفسي... حُطّ نفسك مكاني...
ابتسم على ابتسامة واسعة، وقال بحماس:
- أنا مقدّر كل اللي إنتِ بتقوليه ده، وأنا مكنتش أتمنى أكتر من كده، على الأقل لحدّ ما تعرفيني أكتر، بس كل اللي عايزك تعرفيه يا جنة، إن أنا ب...
قاطعته جنة قائلة وهي تنظر حولها في خجل:
- علي، أرجوك! احنا في الشارع... مش عارفة... حاسة الناس ماشية بتبصّ علينا... فيه حاجة غلط... أنا لازم أمشي!
- تمشي وتسيبيني؟! أنا فيه كلام كتير جوّايا لازم تعرفيه!
أخرجت جنة من حقيبتها ورقة صغيرة، وكتبت عليها رقماً بسرعة، ثم مدّت يدها نحوه:
- طب... ده رقم تليفوني... خلّيه معاك... علي، أنا علشان واثقة فيك... بخاطر بسمعتي... خلينا نتكلم مع بعض أكتر... ونفهم بعض أكتر... قبل أي حاجة...
أخذ على رقم التليفون بيد مرتعشة، وشعر بسعادة بالغة لأنه أصبح هناك طريقة تواصل مع جنة. قال بصوت مُتأثر:
- صدّقيني... أنا مقدّر موقفك... وعمري ما هخلّيكِ تندمي على إنك عرفتيني... بس... أتصل بيكِ امتى؟

- هستنّى منك تليفون بعد الساعة اتنين بالليل... أنا ببقى بذاكر في الوقت ده...
نظرت إلى ساعتها فجأة، فانتفضت:
- يا خبر! أنا اتأخّرت قوي! كده تيتة زمانها قلقانة عليّا قوي... وكمان أنا قافلة تليفوني... زمانها دلوقتي مشغّلة عليّا جداً... خلود! خلود!

نظرت لها خلود من بعيد، وتوقفت عن السير، ثم همست ساخرة لسيف:
- الندل... واضح إنه حاول يبوسها!
ضحك سيف وقال:
- إنتِ ليه دماغك شمال على طول؟! دول بتوع الحبّ الأفلاطوني... حتى بعد الجواز... يادوب يسلّموا على بعض!
- أنا بهزر! وبعدين... على رأيك... هي أصلاً جت منك... لمّا تيجي منه!
- لأ، إنتِ عارفاني... مجنون وأعملها!
- وأنا معايا الحزام الأسود... أينعم هو جلد، بس بيلسوع!
-أوعى الشرس!
وصلت جنة إلى خلود وقالت بصوت متعجل:
- يالا يا خلود... أنا اتأخّرت قوي!
قالت خلود ساخرة، وهي ترسم على وجهها علامات خوف مُبالَغ فيها:
- إيه؟! إنتِ كويسة؟! أوعى يكون الواد ده عمل حاجة كده ولا كده؟!
همست لها جنة بصوت لا يكاد يُسمَع:
- أنا كويسة... قصدك علي؟! يا ريت الناس كلها زي علي...
نظر سيف إلى علي من بعيد، وهمس له:
- متزعلش يا علي من خلود... أنا مش عارف هي مصمّمة تهزر على الفاضي والمليان ليه!
كان على مشحوناً بطاقة الحب، ولا يوجد بداخله مكان لما هو سواه، فقال بصوت حالم:
- خالص... أنا مقدرش أزعل من خلود... دي عملت فيّا أكبر جميل في حياتي... بجدّ، إنتِ صاحبة فضل كبير عليّا يا خلود... ومش عارف أشكرك إزّاي... أنا...
قاطعته خلود قائلة وهي مندهشة من التحول في كلام علي:
- بسّ! بسّ! بسّ! ناقص تلبس طربوش وتمسك منشة وتقولّي أنا ممنون وحذُرتنا! فكّك... ده أقل حاجة عندي... بس واضح إن الحبّ مولّع في الدار... يالا، سلام!

ابتسم سيف:
- سلام يا مشكلة!
على بصوت حالم:
سلام يا خلود... سلام يا جنة...
توجه على بعدها إلى الصيدلية وهو يمشي في الشارع كأنه يطير فوق السحاب. كانت خطواته خفيفة، وابتسامة عريضة، والورقة الصغيرة التي تحمل رقم جنة مطوية بعناية في جيب قميصه، قريبة من قلبه النابض.

صيدلية عاصم عابدين

دخل إلى الصيدلية، وأغلق الباب خلفه، كان عاصم مشغول، كان على منهك فجلس على الكرسي، وأخرج من درج المكتب شريط البرشام الفضي اللامع، وأخذ حبة جديدة ووضعها على لسانه، ثم ابتلعها مع رشفة ماء، حتى يقدر على السهر والبقاء مُتيقظاً.

وضع الكوب على المكتب، ثم أسند ظهره إلى الكرسي، وأغمض عينيه للحظات.

كان في داخله شعوران مختلفان تماماً، يتصارعان كموجتين عاتيتين في بحر مضطرب: الشعور الأول، كان شعوراً بالسعادة الطاغية والحب العذري، قادماً من اتجاه جنة. كان قلبه يرفرف كعصفور صغير كلما تذكر صوتها، ونظراتها الخجولة، والورقة التي مدّت يدها بها نحوه. كان يشعر بأنه قد لمس السماء بيديه، وأن الدنيا كلها قد أصبحت جميلة فجأة.

الشعور الثاني، كان شعوراً بالفضول الغامض والإثارة المُحرَّمة، قادماً من اتجاه نبيلة. ذلك الفضول الذي يُشبه الدخول إلى غرفة مُظلمة لا يعرف ما تُخبئه له. كان يتساءل: ماذا تُريد منه نبيلة؟ ولماذا أصرّت على أن يأتي إليها؟ وما الذي يُخبئه له القدر في تلك الزيارة؟

همس لنفسه، لكن هذه المرة بنبرة حاسمة، كأنه يُحاول إقناع نفسه:

- التليفون... لازم يبقى معايا تليفون علشان اتصل بجنة...والتليفون... مع نبيلة...

- لازم أروح لنبيلة... مفيش حل تانى...

وقف صامتاً للحظات طويلة، ثم كرّر الجملة بصوت أعلى، كأنه يُعلن قراره النهائي للكون:

- لازم

أرخى المساءُ سدولَه على المدينة، فيما كان عاصم يُعِدُّ العُدَّة لمهمته السرية. أرسل عليّ ليُحضر له طعام العشاء، تاركًا نفسه وحيدًا في الصيدلية كي يُتِمَّ توزيع البرشام بعيدًا عن العيون المتلصصة، وليُسلّم نونش الكمية التي طلبها. كان عاصم على يقينٍ راسخٍ أن الصيدلية هي أمثل الأماكن لمثل هذه الصفقات الملتوية.

وقفَ عليّ أمام منزل عاصم، ورفع صوته عاليًا كعادته، مُناديًا بنبرةٍ تخترق سكون الليل:

- دكتور عاصم! دكتور عاصم! دكتور عا...

لكن صوته انقطع فجأةً حين انسدلت ستارة الشرفة، وظهرت نبيلة من ورائها كطيفٍ يخرج من العتمة، فقاطعته قائلةً بصوتٍ حازم:

- أيوه يا علي! امسك المفاتيح، افتح البوابة وادخل.
ارتعشت أصابع عليّ وهو يتلقَّف المفاتيح. تسارعت دقات قلبه حتى كادت أن تخرج من صدره، فقد أيقن في تلك اللحظة أنه على عتبة عالمٍ لم يطأه من قبل. أدار المفتاح في القفل بيدٍ مرتجفة، وانفتحت البوابة الحديدية بصريرٍ خافت. كانت هذه أول مرة يدلف فيها إلى هذا البيت؛ ففي كل مرةٍ سابقة، كان ينتظر على البوابة حتى تظهر الخادمة وتُناوله الطعام دون أن يتجاوز العتبة.
وقف عليّ في مدخل البيت الفسيح قرابة دقيقتين، مشدوهًا ينظر حوله كمَن دخل قصرًا من قصور الجِنّ. حدَّق في الأرضيات الرخامية اللامعة، والثريات المتدلية من السقف العالي، والأثاث الفاخر المنتشر في الأرجاء. كان فمه مفتوحًا قليلًا، وعيناه تجولان في ذهول تام، حتى سمع صوت نبيلة يتردد من الأعلى كصدى يملأ المكان:
- اطلع يا علي! إنت واقف تحت ليه؟ ما تطلع!
بدأ عليّ يصعد السُّلَّم الرخامي بخطواتٍ مترددة، متوجِّسة، كمَن يمشي على حبلٍ رفيع فوق هاوية. كان يضع قدمًا ثم يتوقف لحظة قبل أن يضع الأخرى، فاردًا يده على الدرابزين الخشبي المنحوت. يعلم تمامًا إلى أين هو ذاهب، أو على الأقل يُخمِّن ذلك في أعماقه. التجربة مثيرة بكل تأكيد، لكنه يخشى المفاجآت التي قد تنتظره، تلك المفاجآت التي لا يملك لها حيلة ولا تجربة.
وصل إلى أعلى السُّلَّم، ونظر أمامه فوجد باب الشقة مفتوحًا على مصراعيه، كأنه دعوةٌ صامتة. وصله صوت نبيلة مرةً أخرى، هذه المرة أكثر قربًا، أكثر نعومة:
- ادخل يا علي.
دلف عليّ من الباب بحذر، وما إن وطئت قدماه أرضية الشقة حتى اجتاحته موجةٌ عارمة من العطر الفرنسي الفاخر. ملأ أنفاسه ذلك الشذا المُسكِر الذي يفوح من نبيلة، إنه ذات العطر الذي استنشقه منها في الصيدلية، ذلك العطر الذي حرَّك في دواخله غرائز رجولةٍ كانت راقدة، فأيقظها من سباتها العميق.
التفت بنظره إلى اليسار، فوجد غرفة معيشة فسيحة تُنبئ عن ثراءٍ فاحش. صالونٌ مُذهَّب بنقوشٍ باروكية فاخرة، وطاولة سفرة ضخمة تحيط بها الكراسي من كل صوب، وسجادٌ فارسي يُغطي الأرضية. كل شيءٍ في هذا المكان يصرخ بالترف والبذخ.
وهناك، في منتصف كنبة الصالون المُذهَّب، كانت نبيلة جالسةً في وضعية ملكية مُحكمة. ترتدي روبًا طويلًا من الشيفون الشفاف، لونه كحلي داكن كلون الليل، وقد تعمَّدت أن تتركه مفتوحًا ليكشف عمَّا تحته: قميص نوم طويل من ذات القماش

الرقيق، بنفس اللون المُغري. كانت قد وضعت ساقًا فوق الأخرى بأنوثةٍ دراسة، وانتعلت شبشبًا من الفرو الناعم على شكل أرنب، له ذات اللون الكحلي.
رفعت نبيلة رأسها ونظرت إلى عليّ، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ أنثوية ماكرة، محمَّلة بالإغراء، ابتسامةٌ تكفي لتُفتِّت حصون عليّ الدفاعية الواهية، تلك الحصون التي كانت أصلًا على شفا الانهيار.
قالت بصوتٍ ناعمٍ كالحرير:
- تعال يا علي، إنت مالك خايف ليه كده؟
ارتبك عليّ وبدأ يتلعثم، فاحت من فمه كلماتٌ مضطربة:
- لا... أنا مش خايف ولا حاجة، بس...
قاطعته بحزمٍ ممزوجٍ بالدلال:
- طب اقعد يا علي، ومتقوليش إنك هتتأخر على الصيدلية. إنت كل مرة بتنادي بالنص ساعة علشان تاخد الأكل!
ابتلع عليّ ريقه بصعوبة وقال بصوتٍ خافت:
- حاضر... هقعد.
انفجرت نبيلة في ضحكةٍ رقيقة، مسلية من تحفُّظ عليّ الشديد. كان من المفترض أن يكون الأمر معكوسًا في مثل هذا الموقف. قالت وهي تُمعِن النظر فيه:
- تعرف يا علي، أنا كنت بسمعك وإنت بتنادي، لكن كنت بكسل أرد. ألا لما يجيلي مزاج، ساعتها كنت بخلي الشغالة تنزلك الأكل. حاجة كده... رخامة! مكنتش بهضمك، كنت حاسة إن دمك واقف. لكن موقفك معايا في الصيدلية غيَّرلي الفكرة عنك تمامًا. زي ما يقولوا كده: 'ما محبة إلا بعد عداوة'... سيجارة يا علي؟
هزَّ عليّ رأسه بحماسةٍ مفاجئة:
- لا، ده واجب عليّا!
أخرج علبة سجائر محلية الصنع من جيب قميصه الباهت، فنظرت نبيلة إلى العلبة وانفجرت في ضحكةٍ ساخرة:
- هاهاهاها! إيه ده يا علي؟ سجاير من المنفسة؟! خد امسك، جرب الأجنبي. تعرف السيجارة اللي أنا هولعها دي إيه؟
أجاب عليّ دون تردد، وكأنه يريد أن يُثبت أنه ليس ساذجًا كما تظن:
- حشيش.
اتسعت عينا نبيلة من الدهشة. لم تكن تتوقع هذه الإجابة المباشرة من شابٍ ظنته بريئًا. نظرت إليه بإعجابٍ ممزوجٍ بالفضول:

- حشيييش! برافو يا علي! طب ما إنت بتفهمها وهي طايرة اهه! إيه، مش هتولعلي ولا عايزني أقول عليك مش بتفهم في الإتيكيت؟
نهض عليّ سريعًا، كأنما استيقظ من غفوة:
- آه، حاضر! أولعلك حاضر.
اقترب منها بولاعته، وأشعل السيجارة بيدٍ مرتعشة قليلًا. نظرت نبيلة إليه بعينين نصف مغمضتين وقالت بصوتٍ رخيم:
- شكرًا يا علي.
وضعت نبيلة يدها على يده بنعومة، وأمسكتها لثوانٍ أطول مما يجب، بينما كانت عيناها تحدِّقان في عينيه مباشرة، تخترقان دفاعاته الأخيرة. ارتبك عليّ أكثر فأكثر، وحاول أن يستجمع شتات نفسه فقال بتعلثمٍ واضح:
- هو... الأكل لسه؟ أصل...
قاطعته بحدةٍ ممزوجة بالغنج:
- متحاولش تغير الموضوع!
نظر لها عليّ بوجهٍ أحمق، فاغرًا فاه:
- ها؟
أدركت نبيلة أنها تملك زمام اللعبة الآن. كانت تلعب بأعصابه كعازف ماهر يعزف على أوتار الكمان. بعد أن أفقدته السيطرة على نفسه، قررت أن تُحكِم شبكتها حوله من كل الجوانب. قالت وهي تُخرج من جانب الكنبة هاتفًا محمولاً جديدًا لامعًا:
- آه، قبل ما أنسى! اتفضل يا سيدي، الموبايل ده هديتك... وفيه خط كمان.
حدَّق عليّ في الهاتف بعينين متسعتين من الدهشة، ثم سأل بحذر:
- طب... بس ممكن أعرف بمناسبة إيه؟
ابتسمت نبيلة ابتسامةً غامضة وقالت بصوتٍ يقطر عسلًا:
- اعتبره بمناسبة عيد ميلادك! أصل إنت النهارده اتولدت من جديد... مع نبيلة الحمصاني. كل سنة وإنت طيب يا علي.
ابتلع عليّ ريقه بصعوبة، وقال محاولًا أن يبدو مهذبًا:
- وحضرتك طيبة... طب ممكن حضرتك تقبلي مني الهدية دي؟
اندهشت نبيلة حقًا هذه المرة، وقالت بفضولٍ حقيقي:
- هدية ليا أنا؟! إيه هي؟
أخرج عليّ من جيبه شريط برشام وناولها إياه بخجل:
- شريط برشام... علشان الصداع يعني، لو لسه ما راحش.

تأثرت نبيلة رغمًا عنها. لمعت في عينيها لحظة إنسانية حقيقية قبل أن تعود إلى دورها المُخطَّط له:
- ياه! إنت لسه فاكر؟! واضح إنك بتعزني قوي يا علي... تعرف أنا كمان بعزك يا علي. وأقولك على حاجة... أنا فعلًا استريحت على البرشام ده. فيه حاجة غريبة هبقى أقولك عليها بعدين. بس تعرف لما سألت عليه عاصم ووصفته له، قالي ده مفيش منه وإنه لازم يبقى تحت إشراف طبيب، ومرشح طوبيل قوي... لحد ما هو بكلامه جابلي صداع تاني!
ضحكت ضحكةً ساخرة، ثم أكملت بصوتٍ أخفض:
- عاصم يعرف إني بدخن بس خفيف، لكن ما يعرفش إني بشرب حشيش. ده سر ما بينا يا علي... بس تعرف إنت بجد ولد محترم إنك جبتلي شريط البرشام ده!
تأثر عليّ بكلامها، وقال بصدقٍ طفولي:
- أصل أنا زعلت قوي على حضرتك لما تعبتي.
نظرت نبيلة في عينيه نظرةً عميقة مُحمَّلة بالمعاني، وقالت بصوتٍ أنثوي رقيق، يكاد يكون همسًا:
- قد كده بتخاف عليا يا علي؟
ارتبك عليّ للحظة، واحمرَّ وجهه:
- آه... لا، أنا أقصد...
انفجرت نبيلة في ضحكةٍ رنَّانة، ضحكةٍ دقَّت حواس عليّ جميعها كأجراس الكنيسة:
- هاهاها! أنا فاهمه يا علي قصدك! طب أنا عايزاك المرة الجاية تجيبلي شريط تاني، أصل الصداع بيجيلي على طول.
قال عليّ بحماسة:
- حاضر من عيني! حضرتك تأمري!
هزَّت نبيلة رأسها بنفاد صبرٍ مُصطنع:
- بلاش كلمة 'حضرتك'! أنا نبيلة بس... قولها كده.
تردد عليّ:
- لا... مش هينفع.
ألحَّت عليه بدلال:
- هو إيه اللي مش هينفع؟ نبيلة، نبيلة، سهلة اهه! يالا قول!
قال عليّ بصوتٍ خافت خجول:
- نبيلة.

ابتسمت نبيلة ابتسامة انتصار:
- طالعة منك زي السكر! إنت تعرف يا علي أنا مين وبنت مين؟
أجاب عليّ محاولًا إظهار معرفته:
- يعني... أعرف إنك بنت الحاج فهمي الحمصاني، صاحب محلات الحمصاني للحلويات الشرقية والشامية المشهورة.
اتسعت ابتسامتها:
- إيه ده! طب ما إنت عارف اهه! واضح إنك واخد بالك مني من زمان! تعرف إنك كده قصرت عليا مقدمة طويلة وكلام كتير!
نهضت نبيلة من مكانها ببطء، ووقفت أمامه. بدأت تسير في الغرفة بخطواتٍ مدروسة، كأنها تستعرض نفسها. قالت بصوتٍ مُفعَمٍ بالمرارة المُقنَّعة:
- تعرف يا علي، كل اللي إنت شايفه ده... بتاعي أنا! الصيدلية دي بتاعتي أنا! أنا اللي عملت عاصم! والدي وافق علشان أنا هددت بالانتحار، وكتب كل حاجة باسمي علشان اليوم ده!
توقفت لحظة، ثم أكملت بحدة:
- عاصم بعد ما اتخرج من الكلية كان مصيره محل العطارة بتاع أبوه! لكن أنا بغبائي اللي اخترته وعملته بني آدم! تعرف يعني إيه بعد ده كله، وبعد ما عملت نفسي مش واخدة بالي من نزواته وسهراته، ألاقيه لسه بيخونني مع نسوان... بيئة... شبهه!
أطلقت الكلمة الأخيرة كسهمٍ مسموم. تأثر عليّ بكلامها، وشعر بموجةٍ من التعاطف تجاهها. قال بصوتٍ مُحمَّل بالشفقة:
- معلش يا مدام نبيلة... مش عارف أقولك إيه. بس الدكتور مش وش كده.
سخرت نبيلة من براءته:
- إيه البراءة دي؟! 'معلش يا مدام نبيلة'...
نهضت فجأة من مكانها، وبدأت تستعرض جسدها وجمالها بثقةٍ مُطلَقة. مشت في الغرفة بخطواتٍ بطيئة مُغرية، تُظهِر انحناءات جسدها، وتُرجِّح شعرها الطويل الناعم الذي ينسدل على كتفيها كشلال أسود. ثم استدارت نحو عليّ وقالت بصوتٍ تحدٍّ:
- فيها إيه؟! البنت اللي كانت معاه أحسن مني؟!
نظر لها عليّ وهو يتصبَّب عرقًا رغم برودة الجو. كان العرق يتساقط من جبينه، ورقبته، ويبلل قميصه. لم يستطع أن ينطق بأي كلمة. انعقد لسانه في فمه، وجفَّت حلقه، وتسمَّرت عيناه في مكانها.

جلست نبيلة مرةً أخرى على الكنبة، ووضعت ساقًا فوق الأخرى، لكن هذه المرة كانت أكثر إغراءً. انفتح قميص النوم قليلًا ليكشف عن ساقها البيضاء الناعمة، وجزءٍ من فخذها. وعليّ لا يزال لا يستوعب أي شيءٍ سوى البركان الهائج الذي يثور في أركان جسده، ذلك البركان الذي يحاول السيطرة عليه بمنتهى الصعوبة، بلا مبالغة.
أخرجت نبيلة دخان السيجارة ببطءٍ من جانب فمها، ونظرت إليه بعينين نصف مُغمضتين، وقالت بصوتٍ كفحيح الأفعى:
- تعال يا علي... اقعد جنبي. تعال، متخافش.
نهض عليّ كالمسحور، وجلس بجوارها على الكنبة. استنشق عطرها عن قرب هذه المرة، ذلك العطر الذي يُسكِر العقل ويُذهِب اللُّب. كان قلبه يدق بعنفٍ حتى كاد أن يسمع صوته في أذنيه.
وضعت نبيلة يدها على شعره، وبدأت تتحسسه بأصابعها برقة، تمرر أناملها بين خصلاته. كانت تنظر في عينيه مباشرةً، عيناها الواسعتان تُحدِّقان في روحه، وقالت بصوتٍ مُحمَّل بالوعود:
- علي... أنا محتاجالك تقف جنبي. هغيرلك حياتك كلها! هخليك تعيش بجد وتشوف الدنيا بجد! إنت طيب قوي يا علي وبتعزني... وعلشان كده أنا هعتمد عليك. موافق يا علي؟
قال عليّ بصعوبةٍ بالغة، والقشعريرة تسري في جميع أرجاء جسده كتياراتٍ كهربائية:
- مش عارف... إيه هو اللي ممكن أقدمه لحضرتك؟ ولو في إمكاني، عمري ما هتأخر. بس... لو أقدر.
نظرت إليه بثقة، وغرزت أصابعها أكثر في شعره:
- هتقدر يا علي... هتقدر.
بدأ عليّ ينهار ويذوب كقطعة ثلجٍ تحت شمس يوليو الحارقة. كل دفاعاته تداعت، وكل مقاومته انهارت. أكملت نبيلة بصوتٍ منخفضٍ خطير، كفحيح الأفعى قبل أن تلدغ فريستها:
- أنا عايزاك تعرف لي كل تحركات عاصم... بيروح فين، بيكلم مين، مين الست اللي كانت معاه... وتبلغني بكل خطوة أول بأول، وبالتفصيل.
صُعِق عليّ، واتسعت عيناه من الدهشة. قال بحدةٍ مفاجئة:
- إيه؟!
وضعت نبيلة إصبعها الإبهام على فمه بلطف، وقالت محذِّرة:
- هش... متقولش حاجة.

مالت بجسدها نحوه، وانفتح روبها أكثر ليُظهِر النهر العميق الذي بين نهديها. أكملت وهي تنظر في عينيه مباشرةً بنظرةٍ لا يستطيع مقاومتها:
- موافق يا علي؟ موافق... صح؟
فقد عليّ أعصابه تمامًا. انهارت دفاعاته الأخيرة. كان ينظر إلى جسدها وهو عاجزٌ عن المقاومة، فقال بصوتٍ مرتجف:
- موافق... موافق.
ابتسمت نبيلة ابتسامة انتصار كامل. كانت قد حققت هدفها. أخرجت من تحت الوسادة حزمة من النقود، وناولتها إياه:
- ولسه فيه حاجات تانية كتير علشانك! خد الألف جنيه دي، هاتلك لبس جديد تروح بيه الكلية. عايزاك تبقى أشيك واحد في الكلية! إنت مش أي حد... إنت علي! ولو جبتلي أخبار كويسة، ليك عندي مكافأة كبيرة قوي... اتفقنا؟
أخذ عليّ النقود منها بيدٍ مرتعشة، وهو منبهرٌ بما يحدث، كأنه في حلم. قال بحماسةٍ طفولية:
- اتفقنا! حضرتك اعتبريني نفذت كل طلباتك!
سألته نبيلة فجأة بنبرةٍ عملية:
- قولي يا علي، إنت بتعرف في الكمبيوتر والنت؟
أجاب عليّ بتواضع:
- شوية... يعني على قدي.
انتصبت نبيلة في جلستها، ولمعت عيناها ببريق جديد:
- خلاص! عايزاك تعلمني... ودلوقتي على كمبيوتر عاصم. أنا عايزه أعرف هو بيكلم مين، وتشرحلي إزاي أدخل الدنيا بتاعت العالم ده وأتكلم على النت صوت وصورة.
قال عليّ بثقةٍ مفاجئة، كأنه وجد أخيرًا شيئًا يُجيده:
- حاضر... بسيطة!
قامت نبيلة وأمسكت بيده، وقادته نحو غرفة المكتب حيث يجلس الكمبيوتر المحمول الفضي على مكتبٍ خشبي فاخر. جلست على الكرسي الدوَّار، وأشارت لعليّ أن يقف خلفها. انحنى عليّ قليلًا، ووضع يده على الفأرة بجوار يدها، فاحت رائحة عطرها تملأ أنفاسه مرةً أخرى، لكنه حاول التركيز.
بدأ يشرح لها بصبر كيفية إنشاء بريد إلكتروني، وكيفية معرفة الرسائل الواردة، وكيفية إرسال رسالة. كان كل هذا على بريد عاصم الإلكتروني المفتوح بالفعل على برنامج

ياهو. أصابع عليّ ترقص على لوحة المفاتيح، ونبيلة تُحدِّق في الشاشة بتركيزٍ شديد، حتى توقفت أصابع عليّ فجأة.
تجمَّد في مكانه. عيناه اتسعتا من الصدمة وهو يقرأ عناوين الرسائل. شهق بصوتٍ مكتوم، وشعر بموجة حرارةٍ تصعد إلى وجهه.
انتبهت نبيلة لتوقُّفه، ونظرت إلى الشاشة، فرأت ما رآه. كانت هناك رسائل... رسائل جنسية فاضحة متبادلة بين عاصم ونساءٍ أخريات. صور، كلمات، وصف تفصيلي لأمورٍ حميمية.
تحجَّر وجه نبيلة. تحوَّلت ملامحها من الفضول إلى الصدمة، ثم إلى الغضب المكتوم. شكوكها التي كانت مجرد ظنون تحوَّلت في لحظةٍ واحدة إلى يقينٍ راسخ، دامغ، لا يقبل الشك.
قالت بصوتٍ مرتجف من الغضب المكبوت:
- اقرالي... اقرالي اللي مكتوب.
بدأ عليّ يقرأ الرسائل بصوتٍ متقطع، يتلعثم في بعض الكلمات الفاضحة. وكلما قرأ، كلما تهيَّجت بداخله مشاعر جنسية غريبة، مشاعر ممزوجة بالإثارة والخوف والرغبة المحرَّمة. بدأت أفكارٌ شيطانية تتسلل إلى عقله، أفكار عمَّا يمكن أن يفعله، عمَّا يريد أن يفعله...
كانت نبيلة جالسة أمامه، وهو منحنٍ خلفها، يكاد يلامس شعرها بوجهه. يشم عطرها المُسكِر. يرى انحناءات جسدها تحت الروب الشفاف. وهي تستمع إلى الفضائح بصمتٍ قاتل، وجهها يحمر من الغضب والإذلال.
بدأ عليّ يقترب أكثر... أكثر... تنفُّسه يتسارع... يده ترتعش... أفكاره تتشوَّش... كان على وشك أن...
فجأة، انفتح باب الغرفة على مصراعيه. دخل طفلٌ صغير لا يتجاوز الثالثة من عمره، بخطواتٍ متعثرة، ووجهٍ بريء، وعينين واسعتين. كان يرتدي بيجاما صغيرة زرقاء عليها رسوم كرتونية. نادى بصوتٍ طفولي رقيق:
- مامي! مامي! عايز أعمل بيبي!
أفاق عليّ من غيبوبته فجأة، كأن أحدًا صبَّ عليه دلوًا من الماء البارد. تراجع خطوةً إلى الوراء، وجسده يرتعد. أدرك في تلك اللحظة الرهيبة أنه كان على وشك ارتكاب جريمة... أنه كان على وشك اغتصاب امرأة متزوجة وأم لطفل. الرعب ملأ قلبه. ماذا كان يفعل؟! ماذا كان سيفعل؟!

نهضت نبيلة بسرعة، ومسحت دموعها الغاضبة بسرعة، وقالت بصوتٍ حنون لطفلها:
- حاضر يا حبيبي! لحظة واحدة يا علي ورجعالك.
حملت الطفل بين ذراعيها وخرجت من الغرفة، تاركةً على وحده يتصارع مع نفسه. وقف عليّ في منتصف الغرفة، يلهث كأنه ركض مسافةً طويلة. وضع يديه على رأسه، وأغمض عينيه بقوة. ماذا كان يفعل؟! هل فقد عقله تمامًا؟! لقد أفاق في آخر لحظة بفضل ذلك الطفل البريء.
عادت نبيلة بعد دقائق قليلة، ووجدت على واقفًا بجانب الباب، مستعدًا للمغادرة. قرأت في عينيه الارتباك والخوف والندم. أدركت أنها دفعته إلى حافة الهاوية، وأنه لو استمرت أكثر من ذلك، فقد يحدث ما لا يُحمَد عقباه.
قال عليّ بسرعة، وصوته مرتجف:
- طب أنا كده اتأخرت قوي! لازم أرجع الصيدلية دلوقتي!
نظرت إليه نبيلة بهدوء، وأدركت أنها أحكمت السيطرة الكاملة عليه. لقد نصبت شبكتها، وأوقعته في الفخ. لكنها أيضًا أدركت أنها لو ضغطت عليه أكثر من ذلك الآن، فقد ينفجر الموقف بشكلٍ لا يمكن السيطرة عليه.
قالت بهدوءٍ وبرود:
- طب الأكل في شنطة على ترابيزة السفرة. أنا مش هخلي عاصم يبعتك هنا كام يوم علشان تبقى زي ضله في الصيدلية.
توقفت لحظة، ثم أكملت بنبرةٍ حازمة:
— هستنى منك كل يوم بالليل مكالمة، بعد ما تخلص شغلك في الصيدلية. تقولي كل حاجة حصلت طول اليوم... كل نفس اتنفسه عاصم! كلَّم مين؟ قابل مين؟ ولو تقدر بذكائك تعرفلي الأرقام اللي بيكلمها.
ثم أضافت بابتسامةٍ غامضة:
- ولو فيه أخبار مهمة، هنتقابل هنا... علشان تاخد الأكل. أنا عارفة إنك جعان قوي قوي يا علي.
اتسعت عينا عليّ من الدهشة:
- إيه؟!
ابتسمت نبيلة ابتسامةً ساخرة، وقالت موضِّحة:
- جعان أكل... مش حاجة تانية! يالا يا علي، علشان إنت اتأخرت على الآخر!

أسرع عليّ نحو ترابيزة السفرة، وأمسك بالشنطة البلاستيكية التي تحتوي على طعامه. قال بسرعة:
- حاضر، حاضر!
مشى نحو الباب بخطواتٍ سريعة، يريد أن يهرب من هذا المكان الذي كاد أن يُهلكه.
نادت عليه نبيلة من خلفه، وصوتها يحمل تحذيرًا واضحًا:
- سلام يا علي! حاسب وإنت نازل على السلم... واوعى عاصم يشوف التليفون!
التفت عليّ إليها، وقال بصوتٍ يحمل خوفًا حقيقيًا:
- فاهم... هخلي بالي!
نزل عليّ السُّلَّم مسرعًا، كأنه يهرب من شيطان يطارده. قلبه يدق بعنف، وعرقه يتصبَّب من جبينه رغم برودة الليل. أمسك الهاتف النقال في جيبه، والألف جنيه في جيبه الآخر، وشنطة الطعام في يده.
خرج من البوابة الحديدية، وأغلقها خلفه بقوة. وقف في الشارع المظلم، يلتقط أنفاسه بصعوبة. نظر إلى السماء المرصَّعة بالنجوم، وأدرك أنه دخل اللعبة... لعبة خطيرة لا يعرف نهايتها.

توجه على إلى الصيدلية بخطوات متثاقلة، كأنما يحمل على كتفيه جبالًا من الهموم. أخفى النقود والهاتف المحمول، غنيمته المسمومة من نبيلة، داخل شرابه بحركة محسوبة خفية، لئلا تقع عين عاصم عليهما فتثير الأسئلة المحرجة.

تحجج لعاصم بنبرة المتعب المنهك:

- أنا تعبان قوي يا دكتور عاصم... مانمتش بقالى يومين!

نظر إليه عاصم بعينين قلقتين، ثم ربت على كتفه قائلًا:

- روح يا ابني نام... إنت تعبان قوي!

غادر على الصيدلية وهو يعيد في ذهنه كل ما حدث اليوم، كشريط سينمائي يُعرض أمام عينيه مرارًا وتكرارًا: وجه جنة الملائكي، صوتها الرقيق، نظراتها الخجولة، الورقة الصغيرة التي تحمل رقم هاتفها بخطها الجميل.

لكن في الوقت نفسه، كان يتأهب لمكالمته المنتظرة مع جنة، المكالمة التي ستكون من هاتف نبيلة - تلك الأنثى الغامضة التي تسوقه إليها غرائزه الجنسية الشهوانية، كالمغناطيس الذي يجذب الحديد رغمًا عنه.

وصل إلى غرفته الصغيرة المتواضعة. أخرج حبة برشام جديدة من جيبه، تأملها للحظة بعينين حائرتين، ثم ابتلعها بجرعة ماء. كان يحتاج أن يظل مستيقظًا، أن يكون في كامل وعيه عندما يتحدث مع جنة.

جلس على على حافة سريره الضيق، ممسكًا بالهاتف في يديه، يحدق فيه كأنه كنز ثمين أو قنبلة موقوتة. كانت الدقائق تمر ببطء قاتل، كأن الزمن نفسه قرر أن يعذبه. نظر إلى الساعة: الحادية عشرة... الثانية عشرة... الواحدة... كل دقيقة كانت تبدو كساعة كاملة.

أخذ يتخيل الحوار مع جنة: ماذا سيقول لها؟ كيف سيبدأ الكلام؟ هل سيتلعثم؟ هل سيفقد السيطرة على كلماته؟ كان قلبه يدق بعنف، وكفاه تتعرقان من التوتر.

جاءت الساعة الثانية صباحًا أخيرًا. تنفس على نفسًا عميقًا، وأمسك بالهاتف بيدين مرتعشتين، وطلب الرقم بأصابع تكاد تخونه من الارتباك.

رنّ الهاتف مرة... مرتين... ثلاثة... كان كل رنين يبدو كطرق على أبواب الجنة.

ثم سمع صوتها... صوت جنة الرقيق الناعم يخرج من السماعة:

- ألو... أيوه، مين؟

كاد قلب على أن يقفز من صدره. بصعوبة بالغة، أخرج الكلمات من حنجرته:

- ألو... السلام عليكم!

- وعليكم السلام... أيوه، مين؟

- إزيك يا جنة... أنا على!
لحظة صمت قصيرة، لكنها بدت لعلى كالأبدية. ثم سمع صوتها يرد بنبرة أكثر دفئًا:
- الحمد لله... إزيك يا على؟
- الحمد لله... أنا كويس.
- ده رقمك؟
- آه، لسه جايبه النهارده... هو والتليفون كمان! أصل أنا مكنش معايا تليفون قبل كده.
- ليه كده؟
- أهه... ظروف!
أدركت جنة أنها سألت سؤالًا قد يكون محرجًا، فقالت بسرعة:
جنة: مقصدتش كده! أنا أقصد إيه اللي يخليك تشتري تليفون النهارده؟ أوعى يكون أنا السبب؟!
تردد على للحظة، ثم قال بصدق يكاد يكون مؤلمًا:
- حاجة زي كده...
ارتعشت يد جنة التي تمسك التليفون، واتسعت عيناها من الدهشة الممزوجة بالخجل:
- يا خبر أبيض! للدرجة دي يا على؟!
- وأكتر والله العظيم! لو أطول نجمة من السما متغلاش عليكي!
صمتت جنة للحظة، تحاول أن تستوعب عمق ما قاله، ثم سألته سؤالًا عمليًا:
- طب هو إنت عندك إيميل؟
- لأ... آه! أعمل إيميل! قصدي هشتري كمبيوتر وأعمل إيميل!
راحت جنة تشرح له بحماس الواثقة من المعلومة:
- لازم يا على يكون عندك إيميل! تعرف الإيميل ده سهّل حاجات كتير، هو والياهو ماسنجر! ممكن تبعت عليه رسالة لحد مسافر بدل الجوابات، وممكن تكلمه صوت وصورة، تشوفه ويشوفك من على الماسنجر! وحاجات تانية كتير!
توقفت عن الكلام فجأة عندما لاحظت أن على صامت تمامًا:
- هو إنت مش بتتكلم ليه؟ ألو؟
قال على بصوت خافت مملوء بالألم الخفي:
- بسمعك...

كان يسمعها فعلًا، لكن كلماتها كانت تطعن قلبه طعنات خفية. كيف يشتري كمبيوتر وهو بالكاد يجد ما يسد رمقه؟ كيف يصنع إيميلًا وياهو ماسنجر وهو يعيش في عالم مختلف تمامًا عن عالمها؟

- طب ممكن تكلمني شوية عن نفسك يا على؟

- وهو كذلك... بصي يا ستي...

أخذ على نفسًا عميقًا، ثم بدأ يحكي قصته بصوت هادئ حزين:

- أنا على... ابن ناس طيبين زي الأفلام. والدي كان شغال فني تصليح تليفزيونات وأجهزة كهربية، وطلعت أنا كمان بعرف أصلح أي حاجة.

والدتي ست بسيطة... وليا أختين، واحدة متجوزة بعد ما أخدت دبلوم صنايع قسم تفصيل، والتانية لسه في أولى ثانوي.

كنت واقف في محل عطارة في الإجازة مع والد دكتور عاصم، صاحب الصيدلية اللي أنا واقف فيها دلوقتي... بعد ما والد دكتور عاصم توفى ومحل العطارة اتقفل.

توقف للحظة، ثم أكمل بصوت أكثر انخفاضًا:

- تقدري تقولي شايل مصاريفي من وأنا صغير... عمري ما عشت زي الأطفال! وعمري ما كان ليا تجارب عاطفية قبل كده، ولا أي اتصال مع الجنس الآخر!

وبس... أعتقد ده كده ملخص سريع عن نفسي...

تأثرت جنة بمعاناة على تأثرًا عميقًا. شعرت بألم في صدرها، وكأن قلبها انعصر. قالت بنبرة مليئة بالتعاطف الصادق:

- معلش... هانت! بكرة تخلص الكلية وتبقى حاجة جامدة قوي!

- ربنا يخليكي... كلميني إنتِ بقي عن نفسك!

- واحد قصد واحدة يعني؟ ماشي...

ضحكت ضحكة خفيفة خجولة، ثم بدأت تحكي:

- أنا جنة... هاهاها! والدي ووالدتي محاسبين، شغالين في البحرين، وأنا عايشة أنا وأخويا وائل وتيتة. تقدر تقول هي اللي ربتني.

بابا وماما على طول بنتكلم على الماسنجر، وببعت كل يوم ملخص اليوم ليهم على الإيميل.

وائل أخويا طالب في معهد حاسب آلي، وكان حقه خلص تعليم من سنتين! بابا مستني إنه يخلص المعهد ويسافر له يشتغل هناك، بس هو في الضياع... مش غاوي تعليم!

تيتة تعبت معاه كتير، بس هي علشان طيبة مبتقدرش عليه. كانت مديرة مدرسة الثانوية بنات، لكن خلاص بقي كبرت والسن له حكم، والسكر مخلّى صحتها في النازل.

اتعلمت منها كل حاجة... بس تعرف إحساس إنك تكبر وباباك ومامتك مش حواليك؟ شيء صعب! بيتولد جواك إحساس بعدم ثقة في نفسك!

ووائل بقي سلوكه غريب في الفترة الأخيرة... أكيد كان محتاج بابا في الترة دى علشان يحسن سلوكه. تيتة دي ليها الجنة بجد!

- ربنا يديها الصحة، ويخليكوا لبعض...

ثم تردد للحظة، وقال بصوت خافت مليء بالأمل والخوف معًا:

- جنة... ممكن أطلب منك طلب؟

- أممم... لو أقدر ماشي... لو في إمكاني يعني.

- إنتِ جاية الكلية النهارده؟

- ياه! دي الساعة بقت تلاتة الصبح! ليك حق تقول النهارده... آه جاية، خير؟

على: طب... لو قولتلك إني عايز عينيكي تيجي في عيني عشر ثواني بس؟

صمتت جنة للحظة، المصدومة. ثم قالت بصوت مرتبك:

- إيه؟! لا، مقدرش عشر ثواني مرة واحدة! ده أنا أول ما بلمحك بتلخبط لوحدي!

- طب ولو قولتلك علشان خاطري؟

- يا خبر! الوقت اتأخر قوي يا على! أنا كده لازم أنام علشان الكلية الصبح... وفيه واحد طماع وعشر ثواني؟! سلام... تصبح على خير!

- تصبحي على خير يا أحلى جنة!

في الوقت الذي بدأت فيه قصة حب على وجنة بخطواتها الأولى الخجولة، كان للقدر رأي آخر بدخول نبيلة حياة على، تلك المرأة التي أصبحت بمثابة مصباح علاء الدين له، تحقق أمنياته لكن بثمن باهظ لا يعرف مداه بعد.

الهاتف الذي قرّب المسافة بينه وبين جنة... هاتف نبيلة!

النقود التي ستجعل مظهره يواكب طلاب الجامعة... نقود نبيلة!

الكمبيوتر الذي تحلم جنة أن يكون عنده... في الغالب سيكون من نبيلة!

أصبح على ملكًا لنبيلة لكي يقترب بخطوات سريعة من جنة! معضلة ليس لها حل واضح، معادلة مستحيلة لا تقبل الحل.

هروبه من نبيلة يعني له عدم الظهور بمظهر جيد أمام جنة، التي تريد منه أن يكون عنده إيميل وكمبيوتر وماسنجر... تلك الأشياء التي تبدو في عالمها بسيطة وعادية.

ومن الواضح أن جنة لا تعلم - وكيف لها أن تعلم؟ أن هناك طبقة من البشر تنام دون تناول وجبة العشاء لعدم وجود ما يكفي يومهم. طبقة تحلم بالهاتف كما يحلم الآخرون بالسيارة. طبقة تنظر إلى الكمبيوتر كأنه كنز من كنوز الملوك.
وهذا ليس بعيب فيها، كلا! لكنها ترتيبات القدر، التي تضع الفقير والغني في عالمين متوازيين لا يلتقيان إلا في حالات معدودة، ربما تكون في عالم الأساطير فقط.
جلس على على حافة سريره بعد أن أنهى المكالمة، ممسكًا بالهاتف في يده، يحدق فيه كأنه يحدق في وجه الشيطان نفسه.
كان صوت جنة لا يزال يتردد في أذنيه: لازم يا على يكون عندك إيميل...
وكان صوت آخر - صوت نبيلة الغامض الذي لم يسمعه بعد، يهمس في أعماقه: تعال إليّ... وسأعطيك كل ما تريد...
أي طريق يسلك؟
طريق الشرف والفقر الذي يبعده عن جنة؟
أم طريق الخطيئة والغنى الذي يقربه منها؟
وضع رأسه بين يديه، وأحس بدموع ساخنة تحرق عينيه لكنها لا تسقط.
وفي الزاوية الأخرى من الغرفة، كان الهاتف - هاتف نبيلة - يرقد على الطاولة، يلمع في الظلام كعين الأفعى التي تترقب فريستها.

(١١)
الأنهيار الصامت

الجامعة

بعد مرور عدة أيام فطن سيف للعبة الكاملة ومدى تأثير البرشام السحري على الطلاب. رأى كيف تحول الطلاب إلى مدمنين صامتين، يطلبون الحبة تلو الأخرى، يدفعون ما يملكون وما لا يملكون.

بدأ سيف في استدراج على بمكر الثعلب الماهر، لكي يجلب له شريطًا من البرشام يوميًا، ويقوم هو بترويجه بمقابل أو بدون، الأمر الذي رآه رائقًا له ومربحًا بشكل خيالي.

كل هذا وعلى البريء يتعامل مع ترويج البرشام بحسن نية طفولية، يعطيه لسيف دون مقابل، فهو لا يفهم اللعبة القذرة التي يُستخدم فيها كأداة. كل ما يشغل باله الآن هو ثلاثة أشياء فقط:

أولًا، تقديم التقرير اليومي لنبيلة عن تحركات عاصم تليفونيًا، الثمن الذي يدفعه مقابل الهاتف والنقود.

ثانيًا، الحديث تليفونيًا بالساعات الطويلة مع جنة، تلك الساعات التي صارت نفَسه الوحيد في هذا العالم الخانق.

ثالثًا: أخذ برشامة صباحًا ومساءً حتى يستطيع أن يواصل هذا الجنون دون أن ينهار.

في هذا اليوم بالذات، بدأ الطلب من سيف على البرشام يزيد بشكل مخيف نتيجة قدوم فترة الامتحانات. كان الطلاب يريدون السهر، يريدون التركيز، يريدون المعجزة في حبة صغيرة.

انتظر سيف قدوم على على أحر من الجمر، كالتاجر الذي ينتظر قافلة البضائع الثمينة. وما إن رأى على يقترب من بعيد، حتى انطلق نحوه بابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء، ابتسامة الذئب الجائع، وقال بنبرة المازح:

- علوة! كينج الكيميا في الجامعة!

نظر له على بعينين متعبتين، وقال بنبرة الذي يريد أن ينهي الحديث سريعًا:

- بطّل شوية... وهات من الآخر!

- عايز شريط برشام!

- هو أنا مش لسه مديلك شريط امبارح؟!

- إنت عارف... الصداع والامتحانات على الأبواب! وكله بثوابه!

شعر على بشيء غريب، شعور غامض أن هناك خطأ ما في هذا الطلب المتزايد. قال بحذر:
- بس ده بقي بفلوس، مش ببلاش! أنا مش بلاقيه!
نظر له سيف نظرة فيها استنكار مصطنع، ثم قال بنبرة الساخر:
- آه! اتغيّرت يا على! الموبايل غيّرك! ماشي يا سيدي، دي مية جنيه للشريط اللي فات والشريط ده... بس تجيبلي شريطين بكره، مرضى!
أخذ على المائة جنيه بيد مرتعشة من الدهشة، وقال وهو ينظر إلى الورقة النقدية كأنه يراها لأول مرة:
- بس أنا مش معايا فكّة!
- فكّة ليه؟! الشريط بخمسين... يبقى الاتنين بمية!
اتسعت عينا على من الصدمة، وقال بصوت مرتفع:
- خمسين جنيه إيه؟! ده بتلاتة جنيه!
انفجر سيف في ضحكة عالية صاخبة، ضحكة من يستمتع بالخديعة، وقال:
- هاهاها! بتلاتة جنيه؟! طب هاتلي علبة وأنا آخد منك الشريط بأربعين جنيه!
راق هذا العرض المغري لعلى البسيط الساذج. وافق بسرعة رهيبة دون تفكير، قال في حذر شديد من أن يتنصل سيف من العرض:
- بخمسة وأربعين جنيه وأنا موافق!
- اتفقنا! مش تقولي تلاتة جنيه؟ كنت بتهزر صح؟ إنت الظاهر الكيميا أثرت عليك ولا إيه؟!
قال على بصراحة البريء الذي لا يخفي شيئًا:
- بيني وبينك... هو فعلًا بيضيع الصداع ويخليني أقدر أكمل! وخصوصًا اليومين دول: بالنهار كلية، وآخر النهار صيدلية، وبالليل...
قاطعه سيف بنبرة استفزازية ساخرة:
- بالليل إيه؟! دلع وفرفشة يا لئيم! حشيش والذي منه، صح؟!
- لا، إنت دماغك راحت لبعيد قوي! لا، مش زي ما إنت فاهم خالص!
سيف: ولا بعيد ولا حاجة! بعد ما نخلص محاضرات النهارده هوصّلك في طريقي بالعربية، وأشرّيك أحلى سيجارة حشيش، وتقولي مين أحسن: الحشيش بتاعي ولا اللي إنت بتشربه؟!
وكمان بعد كده ليك مني على كل علبة برشام هتجبهالي سيجارة حشيش ببلاش! أوعى ترجع في كلامك! هتجيب لي علبة... عشر شرايط على أربعين جنيه!

حسب على في عقله بسرعة، وقال بدهشة:
- يعني هتاخد العلبة بربعمية جنيه... وسيجارة حشيش كمان؟!
- هات إنت بس وفلوسك وقتي! شكلك هتبقى إنت الأمل للجيل اللي جاي يا علوة!
- اتفقنا... بس أوعى ترجع في كلامك!
لم يكن على يدرك أنه بهذه الصفقة البسيطة قد وقع في الفخ الكبير، فخ سيجعله جزءًا من منظومة الفساد الكبرى.
هنا اقتحمت حديثهما خلود بخطوات واثقة، قائلة بصوت مرتفع:
- إزيكم؟
نظر لها سيف وهو يتفحص جسدها بنظرة فاحصة بطيئة، نظرة تروق لخلود وتشعرها بأنوثتها، فقال:
- هاي خلود! إزيك؟
أما على فقال بنبرة آلية وهو يبحث بعينيه في أرجاء المكان بحثًا عن جنة:
- أهلًا خلود...
بدأ يلتفت حول نفسه بحثًا محموم عن جنة، لكنه لم يستطع خجلًا أن يسأل خلود عنها مباشرة. فقالت خلود، والتي تريده أن يتركها مع سيف على انفراد:
- آه يا على! جنة في المكتبة، وجابتلك كشكول المحاضرات اللي طلبته منها! هي قالتلي أقولك كده!
ابتسم على ابتسامة عريضة لا إرادية، ابتسامة من يسمع اسم حبيبته. لاحظ سيف ذلك وابتسم هو الآخر، ثم قال له:
- ماشي يا على! نكمّل موضوعنا واحنا مروحين... هوصّلك في سكتي!
- ماشي، خلاص! سلام!
قالها وتوجه مسرعًا نحو المكتبة كالطائر الذي يطير نحو العش.
نظر سيف لخلود بنظرة فيها شهوة مكبوتة، وقال:
- إيه الأخبار يا قطة؟
- بكرة طلبة الجامعة عاملين واقفة احتجاجية تضامنًا مع غزة! ولازم نثبت وجودنا في الوقفة دي! إنت عارف ده هيفيدنا في انتخابات اتحاد الطلبة وكده!
- حلو قوي الكلام ده! إيه رأيك في فكرة طقّت في دماغي وأنا عامل دماغ بسيجارة حشيش؟
- لوحدك يا ندل؟! ماشي، عندك واحدة؟ إيه هي الفكرة؟
ابتسم سيف ابتسامة شيطانية، ثم أخرج من جيبه شريط البرشام وقال:

سيف: إنتِ ما بتصدقي! طب قبل ما ننسى، خدي شريط البرشام ده! أنا استخسرته في نفسي! ده بقي هيخليكي بكرة جبل... ولا أي تعب ولا أي إرهاق!
فرّقي على البنات حبايبك من الشلة! عايز الواحدة منهم صوتها يجلجل في الوقفة الاحتجاجية! اللي هتاخد ربع حباية هتفضل واقفة زي الألف!
البنات صوتهم هيفرق معانا في انتخابات اتحاد الطلبة! ومين عارف بكرة صوتهم هيفرق في إيه تاني؟! أمسكي... يا رب يتمّر!
قالها وهو يعلم ما يفعله جيدًا، بعد أن اطمأن أن على سوف يحضر له علبة كاملة من البرشام غدًا. كان يخطط لتحويل الوقفة الاحتجاجية إلى مسرح لتوزيع المخدرات على الطالبات!
قالت خلود دون اكتراث لأمر البرشام، كأنها تتناول حلوى:
- ماشي، هدية مقبولة! بس برضه فين الحشيش؟
- بح! كان فيه سيجارة وراحت خلاص لصاحب نصيبها! وعد مني بكرة أحلى سيجارة لأحلى بنت في الدفعة!
- بتثبتني؟ ماشي! مقولتش بقي... إيه هي الفكرة؟
- نعمل في الكلية أسرة جديدة ونسميها 'أمل الشباب'!
نظرت له خلود وهي تلوي شفاهها العلوية في حركة ساخرة:
- أمل؟! مين أمل دي؟! هي دي بقي اللي خدت سيجارة الحشيش؟!
ضحك سيف ضحكة عالية وقال:
- هاهاها! أقولك مين ومتزعليش!
ضحكت خلود هي الأخرى وقالت:
- هاهاها! قليل الأدب! أصلًا تموت لو متكلمتش في النص التحتاني! كمّل!
- بس! أسرة هناقش فيها مشاكل الشباب وحقوقهم وكده!
- فكرة حلوة قوي! ونبقى احنا الاتنين القادة: أنا مع البنات وإنت الولاد!
- طب مينفعش! أنا آخد الجانب النسائي!
- مبلاش! ولا هتعرف تسد! الصيت ولا الغنى؟!
- لا، أنا لما بتهوّر... بقي العملاق الأخضر!
- أخضر ده يبقى لون ولا مؤاخذة؟! خلينا في الأسرة أحسن!
- ماشي! بس طول ما إنتِ طبّال وأنا زمّار، مسير الموالد هتجمعنا!
- قصدك السرير؟! إنت مكسوف؟!
- وهتكسف من إيه؟! طب خدي دي! بكرة تجيني ملط وتقولي بطلت!

- بطلت؟! لا، دور تاني يا خفيف!
عادت خلود إلى الجدية فجأة وقالت:
- نتكلم بقي جد شوية! أنا وإنت نصرف على الأسرة وناخد احنا الشهرة! ساعتها الدفعة كلها هتهتف باسمينا!
- عليكي نور! بس أنا هبقى الزعيم، وإنتِ تبقي دراع الزعيم اليمين!
- دراع؟! بتاع؟! أنا موافقة!
- بمناسبة البتاع... معايا سيديهات لفيلم تلات ساعات! مركب غرقت في البحر، مفضلش منها إلا البطل، وصل لجزيرة كلها ستات من كل شكل ولون! فضل...
- بس بس! مش بقولك قليل الأدب؟! هاتها أشوف وأحكم بعيني! ولو إني بقرّف!
- أهيه! صحيح... عينيكي فيه وتقولي أخيه؟!
- بس بقي! أنا برضه بنت وبتكسف!
- إيه إيه؟! صحيح: اللي اختشوا ماتوا!
فجأة، قالت خلود كأنها تذكرت شيئًا مهمًا:
- إيه رأيك نضم على للأسرة؟
انقلبت ملامح سيف فجأة من المرح إلى الجدية القاتمة، وقال بنبرة حاسمة:
- لا! على لأ! شيلي على من دماغك! على ملوش في جو السياسة أصلًا! مبالك بقي بالسياسة الشمال بتاعتكو؟! وكمان هو مش حمّال إنه يدفع شلن!
كان سيف يعرف جيدًا أن على لا يصلح لعالمهم القذر. كان يريده بعيدًا عن الأسرة، يريده مجرد أداة لجلب البرشام، لا شريكًا في المؤامرة الكبرى.
- خلاص خلاص! صرفت نظر! قولت بقي... الفيلم كان فيه جزيرة فيها جوز هند؟
- ده كان فيها جوز هند وهند نفسها!
خلود: هاهاهاها!
وانفجرا في الضحك معًا، ضحك الشياطين الذين يخططون للشر تحت قناع الأسرة الطلابية والنضال من أجل حقوق الشباب.
بينما كان سيف وخلود يخططان لمؤامراتهم، كان على قد وصل إلى المكتبة لاهثًا. دفع الباب برفق ودخل بخطوات حذرة.
كانت جنة جالسة في الزاوية الهادئة من المكتبة، محاطة بالكتب والكشاكيل، كانت تبدو كملاك في معبد العلم.

تنفس على نفسًا عميقًا محاولًا أن يستعيد سيطرته على نفسه، ثم سار نحوها بخطوات محسوبة رغم الارتباك الذي يعتريه. التقط كتابًا عشوائيًا من على أحد الرفوف - لم يكن يعلم حتى ما هو عنوان الكتاب - ثم جلس أمامها على الطاولة.
كان بينهما الآن سطح الطاولة الخشبي العتيق فقط، لكن المسافة بدت كالمسافة بين السماء والأرض.
قال بصوت خافت هامس، صوت يحاول أن يخفي ارتعاشه:
- إزيك يا جنة؟
ردت جنة بنبرة هادئة حنونة، لكن فيها شيء من الحزن:
- الحمد لله... إزيك يا على؟ أنا مش هقدر أتكلم معاك أكتر من دقيقة!
شعر على بخيبة أمل كبيرة، كأن أحدًا قد سكب عليه دلوًا من الماء البارد، لكنه سرعان ما أخفى مشاعره وقال بنبرة متفهمة:
- طيب طيب... خلاص!
مدت جنة يدها بالكشكول الأزرق الصغير، وضعته أمامه على الطاولة برفق. قالت وهي تنظر في عينيه نظرة لها معنى عميق:
- امسك الكشكول... أهه!
نظر على إلى الكشكول بدهشة، ثم رفع عينيه إليها سائلًا:
- كشكول إيه؟
ابتسمت جنة ابتسامة غامضة، ابتسامة فيها سر جميل تريد له أن يكتشفه بنفسه، ثم قالت بنبرة هادئة:
- لما تفتحه وتقراه... هتفهم!
نظر إليها وقال بنبرة فيها حزن ورجاء:
- طب مش هبص في عينيكي العشر ثواني بتوع النهارده؟
احمر وجه جنة فجأة كالورد، وقالت بنبرة فيها عتاب خجول:
- هو كل يوم؟! على... بطّل!
قالتها، لكنها رغمًا عنها نظرت في عينيه. وفي تلك اللحظة، حدث السحر.
نظر على في عينيها برومانسية حالمة، ينظر وكأنما يدقق النظر في أعماق أعماق عينيها، باحثًا عن شيء عميق، عن روحها ربما، عن معنى الحياة ربما، عن كل ما فقده في هذا العالم القاسي.
وقال بصوت حالم مليء بالعاطفة الجياشة:
- أيوه... هي النظرة دي بالدنيا كلها!

انتاب جنة الخجل والكسوف الشديد، شعرت بأن قلبها يكاد يتوقف، شعرت بأن كل الدم في جسدها قد اندفع إلى وجهها. نظرت في الأرض بسرعة محاولة أن تخفي احمرار وجهها، لكن ابتسامة عريضة لا إرادية ارتسمت على شفتيها.
لحظة... ثم رفعت عينيها مرة أخرى إلى عينيه، كأن هناك مغناطيسًا يشدها، كأنها لا تستطيع المقاومة.
قالت بنبرة فيها مزيج من الخجل والسعادة والعتاب الخفيف:
- إنت مجنون! احنا في المكتبة! يلا سلام... وبالليل أنا هوريك يا على!
- سلام يا جنة...
نهضت جنة من مكانها بحركة سريعة، أخذت حقيبتها، ثم نظرت إليه نظرة أخيرة، نظرة قالت فيها كل ما لم تستطع أن تقوله بالكلمات، ثم مضت بخطوات سريعة نحو باب المكتبة.
بقي على جالسًا في مكانه، يحدق في المكان الذي كانت تجلس فيه، كأنه لا يزال يرى شبحها هناك.
بعد دقائق من الصمت والتأمل، مد على يده إلى الكشكول الأزرق الصغير. أمسك به برفق كأنه يمسك بكنز ثمين أو بقلب جنة نفسه.
فتحه ببطء... وبدأ في القراءة.
كانت الصفحات مليئة بخط جنة الجميل، خط أنثوي رقيق يرقص على الورق كالفراشات. وجد فيه مجموعة من الأشعار والقصائد التي قامت جنة بتأليفها بنفسها، كتبتها من قلبها، من روحها، من أعماق أعماق مشاعرها.
بدأ على يقرأها واحدة تلو الأخرى، وبدأ إحساس الدفء والحب والسعادة يتزايد بداخله كموجة عارمة تغمره من رأسه حتى أخمص قدميه.
كان يشعر أنه كلما قرأ أكثر، استوعب أن المكتوب ما هو إلا رسائل غير مباشرة من جنة، رسائل حب مشفرة بالشعر، تعبير عن حبها له بأجمل طريقة ممكنة. كلمات لم تستطع أن تقولها له وجهًا لوجه، فكتبتها له على الورق. قلب الصفحات بيدين مرتعشتين، قلبه يدق بقوة، عيناه تلتهمان الكلمات بشغف...
حتى وصل إلى قصيدة بعنوان: عشر ثوانٍ.
توقف على عند العنوان. تذكر العشر ثواني التي ينظر فيها إلى عين جنة يوميًا، تلك اللحظات القصيرة التي تبدو كأبدية كاملة، تلك اللحظات التي تعطي معنى لحياته كلها.
بدأ يقرأ القصيدة بصوت همس خافت، كأنه يصلي صلاة مقدسة:

عشر ثوانٍ
لو تعرف أنا إيه بيجري ليا
أول عينك تيجي ف عنيا
بسرح وتوه والدنيا تلف بيا
وحاول أهرب منك قبل ما يبان عليا
دول مش عشر ثواني... يا حبيبي دول عمر تاني!
ودنيا تانية بعيشها ف عنيك
فيك حاجة كده شدّاني... من كل الناس وخداني
حسّها وشايفاها بس أنا فيك

أول ما بلمح عنيك يا دوب
وأنا ف مكاني بتوه ودوب
وملقيش قدامي غير الهروب
يا أطيب قلب بين القلوب
دول مش عشر ثواني... يا حبيبي دول عمر تاني!
ودنيا تانية بعيشها ف عنيك
فيك حاجة كده شدّاني... من كل الناس وخداني
حسّها وشايفاها فيك

ولو بإيدي بدل الثانية
أبص ف عينك مليون ثانية
يا كل مناي ف الدنيا
مش عايزة بعدك حاجة تانية
...

أنهى على قراءة القصيدة، وأغلق الكشكول برفق، ثم وضع رأسه على الطاولة فوقه. لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك. انهمرت الدموع من عينيه، دموع سعادة، سعادة لأن جنة تحبه بهذا العمق، بهذه الطريقة الجميلة النقية.

(١٢)
الأحتلال عن بُعد

مع مرور الأيام، تدحرجت كرة الثلج في منحدر الجبل، كبرت وكبرت حتى صارت انهيارًا جليديًا لا يُوقف. زادت كمية البرشام التي يأخذها نونش من عاصم بشكل مخيف، واستطاع نونش تنفيذ خطته لترويج البرشام بحرفية عالية تُنافس أعتى تجار المخدرات المحترفين.

أصبح هناك شباب مصدر دخلهم الوحيد هو ترويج البرشام، شباب تحولوا من عاطلين فقراء إلى تجار صغار يملكون المال. بل ومنهم من استقل عن نونش في الترويج على مداخل ومخارج الشوارع، وأصبح هو نفسه موزعًا في مناطق أخرى بعيدة.

لكن المورد الرئيسي له ولغيره يظل واحدًا، هو نونش.

تحولت شبكة نونش في ترويج البرشام إلى شبكة كبيرة مخيفة، تنمو بسرعة البرق، تتمدد كالأخطبوط الجبار في كل الاتجاهات، تلف أذرعها الطويلة السامة حول الجامعات والمدارس الثانوية والنوادي الرياضية والشوارع الجانبية والميادين الرئيسية.

والأخطر من ذلك، كانت شلة الهتيفة - تلك المجموعة من مشجعي كرة القدم المتحمسين، التي كبرت وتوسعت بفضل تلاقيهم المستمر في المباريات الكروية. لم يكتفوا بالتجمع في الملاعب فقط، بل عملوا منتديات على شبكة الإنترنت، منتديات صارت ملاذًا لهم، منصة للتواصل والتخطيط والتنسيق.

أصبحوا قوة... بل قوة لا يُستهان بها.

قوة لها حضور في الشارع، قوة لها صوت على الإنترنت، قوة تستطيع أن تحرك مئات - بل آلاف - من الشباب بكلمة واحدة على المنتديات أو صيحة واحدة في الملعب.

ولا يزال نونش مستترًا بارتداء عباءات مشجعي كرة القدم، محافظًا على مجموعة الشباب المتحمس للتشجيع كواجهة براقة لتجارته القذرة.

ولم يفطن أحد بعد للتأثير السلبي المدمر للبرشام. لا يزال الجميع يظنونه دواءً سحريًا للصداع، منشطًا بريئًا للسهر والدراسة.

في يوم من الأيام، توجه نونش إلى صيدلية عاصم بخطوات واثقة. دخل الصيدلية بابتسامة عريضة وقال بصوت مرتفع:

- عاصم باشا! إزيك يا دكاطرة؟

ابتسم عاصم على غير عادته عند رؤية نونش. كانت ابتسامة حقيقية، ابتسامة التاجر الذي يرى أفضل عملائه. فقد زادت ثقته في نونش يومًا بعد الآخر، بعد أن أصبح نونش أهم عميل لترويج البرشام لدى عاصم، ومن المحتمل أن يكون أهم عميل لدى شبكة دكتور مينا بأكملها.

نهض عاصم من على كرسيه عند رؤية نونش، وهو شيء لم يفعله مع أي زبون آخر من قبل، وقال بحرارة:

- نونش! عامل إيه؟ تعال!

- أنا بخير! واضح إن مزاجك النهارده عالي! الضحكة إيه منوّرة على وشك؟

- أنا عارف إنت جاي ليه، وتوقعت كمان إنك هتيجي دلوقتي!

- ليه؟ مكشوف عنك الحزام؟ هاهاها!

- هاهاها! بص، في شنطة العربية بتاعتي هتلاقي تلات كراتين مكتوب عليهم 'فاعل خير'... خدهم! أمسك دي نسخة من مفتاح الشنطة، خليه معاك! العربية أنا راكنها على أول الشارع عند الكشك!

اتسعت عينا نونش من الدهشة والطمع معًا، وقال بنبرة المنتشي:

- خمس كراتين؟! يعني خمسين ألف حبة؟! هو ده الكلام! فليحيا دكتور عاصم! طب دول تمن أربع كراتين، وبكرة زي دلوقتي هيكون عندك تمن الكرتونة الخامسة!

- ماشي يا نونش! أظن إنت فاهمني من غير ما أكد عليك... عينك في وسط راسك! يلا شد قبل ما حد يدخل علينا!

- متقلقش! معاك صقر! سلام يا أبو الدكاطرة! الحق أخلي زجزاجي يحضن التوك توك عند العربية!

- إيه التوك توك ده؟

- ده بقي موتوسيكل بس بتلات عجلات، ومقفول من الأجناب! لسه نازل جديد، اشتريته علشان يسهل علينا نقل البضاعة!

- آه، زي اللي في الأفلام الهندي!

- تمام! عليك نور! ولا دفعته!

- لا، دفعته! هاهاها! إنت مشكلة! ومين زجزاجي ده كمان؟

- زجزاجي؟ ده دراعي الفتيس! يعني معرفش أمشي من غيره! متخافش، الدار أمان أمان! سلامو عليكوا يا دكاطرة!

عاصم: سلام يا نونش!

خرج نونش من الصيدلية، وبقي عاصم واقفًا في مكانه، يحدق في الباب الذي خرج منه نونش. بدأ يحدث نفسه بصوت همس خافت:
عاصم: على قد ما أنا محتاجلك يا أبو مخ تخين، على قد ما أنا خايف منك ومن الصرعة اللي إنت فيها يا نونش!
شبعة من بعد جوع... وتوك تك... هو اسمه توك تك ولا توك توك؟ هو كان بيقول اسمه إيه؟
كان عاصم يشعر بالقلق. لأن نونش الآن يملك قوة كبيرة، يملك شبكة، يملك المال، يملك الشباب الذين يعملون تحت إمرته. ماذا لو قرر نونش يومًا أن يستقل بنفسه؟ ماذا لو أصبح الوحش أقوى من صانعه؟
في هذه الأثناء، دخلت نجاة الصيدلية لتخرج عاصم من شروده. قالت بصوت مرتفع مبتهج:
- مساء الخير يا دكتور عاصم! مساء الخير يا دكتور عاصم!
التفت عاصم إليها بحركة مفاجئة، ثم قال:
ابتسمت ابتسامة عريضة سعيدة
- ها؟ إزيك يا نجاة؟ عاملة إيه؟
- الحمد لله! كنا فين وبقينا فين...والفضل يرجع لحضرتك يا دكتور!
لاحظ عاصم تلك السعادة الغامرة التي تشعر بها نجاة، بل ولاحظ أيضًا اختلاف مظهرها الكامل واختيار ملابسها الجديدة. فقد كانت ترتدي ملابس أنيقة، وضعت كحلًا في عينيها، وبدت مختلفة تمامًا عن نجاة القديمة البائسة المنكسرة.
قال لها عاصم بنبرة ساخرة معجبة:
- وإيه الشياكة دي كلها؟! وكحل كمان؟! لا، ده احنا كده عدينا! كان فين الجمال ده كله مستخبي؟!
قالت نجاة في كسوف خجول:
- لا والله! دي هالة زميلتي في الشغل، هي اللي حاطة لي بالعافية و...
- وكمان مكسوفة؟! ماشي يا ستي! ها، شكلك عندك جديد!
- آه! المرة دي عايزة علبة مقفولة!
اتسعت عينا عاصم من الدهشة المبتهجة، وقال بنبرة المتحمس:
- إيه ده؟! إيه ده؟! احنا اتقدمنا خالص! علبة كاملة يعني مكسب ميتين جنيه مرة واحدة! إنتِ بنت حلال يا نجاة وتستاهلي كل خير!

وأنا علشان بعزك هديلك علبتين، وباقي الفلوس هتيها بعد ما تبيعيهم! بس أنا عايز منك طلب...
- تحت أمرك!
- عايزك كمان يومين تفوتي عليا بدري... نروح نرتب المخزن!
قالها بنبرة فيها إيحاء خفي، نبرة يفهمها الرجل والمرأة دون حاجة للتوضيح. كان يريدها وحدها في المخزن.
- بس كده يا دكتور؟ عينيا! إنت تأمر! ده إنت خيرك مغرقني!
- خلاص اتفقنا! وادي العلبتين أهم!
- وادي تمن العلبتين!
- لا، واضح إن العجلة دارت معاكي بجد يا نجاة!
- أمال إيه؟! الرزق يحب الخفية! اللي يجرب الفقر يا دكتور مايفكرش يرجعله تاني أبدًا! وأنا خلاص جاتلي الفرصة، وهفضل ماسكة فيها بإيديا وسناني!
- طب والبنات؟ إيه رأيهم في الملبس ده؟
- كلهم بيدعولك! ومش مصدقين إنهم بيشتغلوا عادي من غير ما حد يحس إنه تعبان!
- تمام! ادينا بنعمل خير! يلا بقي علشان متتأخريش! ومتنسيش، كل ما تبيعي أكتر هتكسبي أكتر!
- ودي حاجة تتنسى؟! ده أنا كل يوم بدخل على بنات جديدة، وأقعد أقنعهم لحد ما يبقوا زباينِ! ده فيه بنات بتشكّك مني كمان لحد آخر الأسبوع! بس الصراحة... بيدفعوا! سلامو عليكوا علشان متأخرش على أمي!
عاصم: وعليكوا السلام!
خرجت نجاة من الصيدلية، ورجع عاصم لشروده مرة أخرى، لكن هذه المرة يفكر في نجاة من زاوية جديدة تمامًا.
حدث نفسه بصوت همس:
- بنت طموحة... بس بقت جامدة! إزاي أنا مخدتش بالي من جمالها قبل كده؟! دي لازم أستغلها أحسن من كده! البنت دي ممكن تنفعني في حاجات كتير! واضح إنها ممكن تعمل أي حاجة علشان الفلوس!
كان عاصم يخطط بالفعل. كان يفكر في كيفية استغلال نجاة جنسيًا ومهنيًا معًا. المخزن سيكون البداية فقط.

هنا دخل على الصيدلية في تلك اللحظة، كالعادة يتصبب عرقًا من الجري والإرهاق والبرشام الذي يأكله صباحًا ومساءً. قال بصوت لاهث:
- السلامو عليكوا!
- وعليكوا السلام! عامل إيه يا على؟ والكلية أخبارها إيه؟
- كله تمام... هي مين دي اللي لسه خارجة من الصيدلية دي يا دكتور؟
اندهش عاصم من سؤال على المباشر. شعر بالقلق للحظة، ثم أجاب على مسرعًا محاولًا إخفاء ارتباكه:
- يعني إيه مين دي؟! واحدة عادي كانت جاية عايزة علاج! يعني هتكون مين؟! إيه، شكلك بتدور على عروسة ولا إيه يا على؟
- لا... لسه بدري قوى!
- ماشي يا سي على! خلص كليتك الأول!
ثم نظر إلى ساعته بحركة مفاجئة وقال:
- بقولك إيه، أنا مستعجل عندي مشوار مهم! هغيب بتاع ساعة كده وراجع على طول! مش هتأخر! سلام!
وخرج عاصم مسرعًا من الصيدلية قبل أن يسأله على أي سؤال آخر.
انتظر على خروج عاصم من الصيدلية تمامًا، ثم تأكد أن لا أحد في الشارع يراقبه، ثم أخرج الهاتف من جيبه بحركة سريعة وطلب نبيلة.
رن الهاتف مرتين، ثم سمع صوتها - ذلك الصوت الأنثوي الناعم الذي يحمل في نبرته شيئًا من الخطر والإغراء معًا:
- ألو؟
- ألو... أيوه يا مدام نبيلة!
- أيوه يا على، عامل إيه؟ مش قولتلك بلاش مدام دي، بتعصبني! اسمي نبيلة! أنا لسه في عز شبابي يا على! أنا أصغر منك، ولا عندك اعتراض؟
- لا طبعًا... خالص!
- أنا عارفة إني أكبر منك بحوالي خمستاشر سنة، بس أنا بهزر معاك! خير، شكلك فيه جديد عندك؟
- الدكتور لسه خارج دلوقتي! والبنت... هي هي، كانت هنا وخرجت قبله! وأنا بعت واحد صاحبي يشوفه رايح فين... بس خد مني فلوس كتير!
قالها على وهو يكذب على نبيلة للمرة الأولى، يخدعها للاستفادة المادية أكثر من الوضع الذي أصبح جزءًا منه. كانت هذه هي الكذبة الأولى.

- مش مهم! كمّل، كمّل!
- الدكتور قالي إنه هيغيب ساعة وهيرجع تاني!
- ساعة؟ يعني مش بعيد عن الصيدلية كتير! ها، كمّل يا على، كمّل!
- أكمل إيه؟ بس مفيش حاجة تانية!
- لأ، بس إيه يا على؟! البنت شكلها إيه؟ كانت لابسة إيه؟ هي نفس العباية ولا؟
على: لأ، المرة دي مكانتش لابسة عباية! كانت لابسة بنطلون جينز وبلوزة ليموني في كحلي، وطرحة لونها...
قاطعته نبيلة في توتر واضح، وهي تشعل سيجارة بحركة عصبية وتعتصر علبة سجائر فارغة في يدها الأخرى، قائلة بصوت مرتعش:
- مش مهم الطرحة يا على! شكل البنت إيه؟! أحلى مني؟!
أجابها على دون أن يفكر، بتلقائية الكاذب المحترف:
- لا طبعًا! إنتِ أحلى بكتير!
- بجد يا على؟ ولا إنت بتجاملني؟
- لأ، هي دي الحقيقة فعلًا!
ابتسمت نبيلة ابتسامة عريضة، وهبط منحنى التوتر لديها بشكل ملحوظ. أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة، ثم زفرته ببطء، وقالت بنبرة أكثر هدوءًا:
- يا سلام عليك يا رافع معنوياتي! خلاص، اعرفلي المكان وأنا هستناك بكرة! وزي ما قولتلك، هيبقى ليك عندي مكافأة كبيرة قوي! يلا، سلام دلوقتي!
على: سلام!
انتهت المكالمة، وبقي على واقفًا في مكانه يحدق في الهاتف. كل ما يشغل باله الآن: مكافأة بكرة؟ يا ترى إيه هي المكافأة؟!
كان عقله يتخيل ألف سيناريو، كل واحد أكثر إثارة من الآخر.
لم يستقر عقله على إيجابة واضحة هل هو يفعل ذلك من منطلق مادي بحت أم أن ذلك يجعله يسمع بعض الكلام بنبرة صوت نبيلة وهو ما يثير غرائزه.
ثم فجأة، رن هاتفه المحمول مرة أخرى. نظر إلى الشاشة ليجد أن المتصل هي نبيلة مرة ثانية! قال في دهشة وتحفز:
- ألو؟
- أيوه يا على، بقولك إيه! أنا عايزة منك طلب صعب شوية، بس أنا عارفة إنك قدها وقدود!
- إيه هو؟ ولو أقدر مش هتأخر!

- حبيبي يا على! أنا كنت عايزة بكرة شريطين برشام، أصل الضغط عالي والصداع هيجنني!
- بس كده؟ حاضر، من عينيا!
- وفيه جريدة جديدة نزلت اسمها 'الضوء الساطع'... أنا كنت عايزة العدد اللي فات منها، وكمان فيه عدد تاني هينزل بكرة! لو تقدر تجيبلي العددين بكرة معاك، تبقى ولد مفيش زيك!
- بالنسبة لعدد بكرة سهلة، بس العدد اللي فات هيبقى صعب! بس مش مشكلة، هتصرف!
- حاول علشان خاطري! هستناك بكرة! سلام يا عيلوة!
- سلام!

أغلق على الهاتف، وسأل نفسه: جريدة الضوء الساطع! هى سمعت عنها فين؟ وإزاي؟ وهتعمل بيها إيه؟ الظاهر مفيش حد سالك!

ثم تذكر فجأة: آه، الواد سيف! هو اللي يعرف يجيب العدد اللي فات! أما أطلبه!

اتصل بسيف، وجاءه صوت سيف بروح المرح المعتادة:

- ألو يا على!
- أيوه يا سيف!
- إيه؟ السيجارة اللي خدتها مني عاملة شغل طبعًا؟ مختلفة عن أي سيجارة خدتها قبل كده، صح؟
- سيجارة إيه يا عم الشيطان؟! إنت فاكر جريدة 'الضوء الساطع'؟
- آه فاكرها! مالها؟
- أنا كنت عايز العدد اللي فات... ضروري! اللي كان معانا في الكلية!
- طب وليه؟ جريدة شوفتها قبل كده؟ أنا عندي ليك سيديهات من الآخر! آه صحيح، أنا نسيت... إنت معندكش كمبيوتر! والصيدلية طبعًا لأ! خلاص، الجريدة... هي كانت قدامي دلوقتي اتخيّلت بيها! هي فين؟ هي فين؟!

قال على بخباثة لم تكن فيه من قبل:

- يا عم، مش ليا! أصل مورد البرشام بتاع الصداع عايزها ضروري!
-آه فهمت! مش تقول كده من الصبح! أهه، لقيتها!
-تمام! أوعى تنسى تجيبها معاك بكرة الجامعة!
-لأ، مش هنسى! ده إنت تأمر! بس إنت متنساش البرشام!
-خلاص أوكي! أشوفك بكرة في الجامعة!

-سلام يا على يا كيكا!
-كيكا؟! أنا كيكا؟! حلوة كيكا! ومن شوية عيلوة! وما إن أغلق على المكالمة، حتى رن هاتفه مرة أخرى. لكن الطالب هذه المرة كانت جنة!
شعر قلب على بنبضة قوية عنيفة. فتح الخط وصمت في حذر ليتأكد أنها جنة، لتبادر هي قائلة بصوت رقيق:
- ألو؟
- ألو يا جنة!
- أيوه يا على، عامل إيه؟
- الحمد لله! إنتِ كويسة؟
- آه، متتخضش! معلش، أنا قولت أكلمك دلوقتي، أصل وائل أخويا مش هيخرج النهارده! وخليت تيتة تبعته يشتري شوية حاجات من تحت، وطالع على طول!
فهم على أنها لن تقدر أن تتصل به في ميعادهم المعتاد اليوم. ابتسم رغم خيبة أمله وقال:
- مفهوم، مفهوم! على فكرة، أنا قريت الكلام اللي في الكشكول!
قالت جنة بنبرة ساخرة، تحاول أن تخفي خجلها:
- كشكول إيه؟
- كشكول المحاضرات!
- هو الكشكول كان فيه كلام؟ دي محاضرات!
- أنا فهمت الرسالة... ومتعرفيش أنا مبسوط قد إيه!
شعرت جنة بزيادة معدل هرمون السعادة بداخلها بشكل جنوني. ابتسمت ابتسامة عريضة رغمًا عنها، وقالت وهي تحاول أن تبدو هادئة:
- بجد؟ قصدي... يعني فهمت إيه؟
- فهمت إنك بتكتبي شعر حلو قوي! وفهمت إن 'بدل الثانية مليون ثانية'! أنا مش مصدق نفسي! كل ده علشاني أنا؟!
- إنت بتتريّق؟! الكلام مش عجبك، صح؟
- لا أبدًا! ده كل حرف من أشعارك لوحده ديوان شعر! بس كتير عليا قوي! هو أنا فعلًا أستاهل ده؟
قالت جنة برومانسية مغلفة بالتحفظ، بصوت خافت حالم:
- إنت تستاهل أكتر من كده بكتير يا على... استنى كده يا على!
- فيه حاجة ولا إيه؟

- آه... وائل فتح باب الشقة! سلام... سلام!
- سلام يا جنة!
أغلق على الهاتف، ووقف في منتصف الصيدلية الفارغة، ممسكًا بالهاتف في يده كأنه يمسك بقلبه الممزق.
في يده هاتف نبيلة طريق المال والخطيئة والمكافأة الغامضة.
صوت جنة طريق الحب النقي والأمل والنور.
كيف له أن يجمع بين النقيضين؟
كيف له أن يحب جنة بهذا النقاء، بينما يكذب على نبيلة ويتاجر في المخدرات ويخون عاصم ويصبح جزءًا من شبكة الفساد الكبرى؟
لكنه لم يفطن إلى أن الطريق إلى الجحيم مرصوف بالنوايا الحسنة، والشيطان لا يترك فريسته بسهولة.

(١٣)
التحالف الملوث

حفل الإفتتاح

تمَّ تأجيل الافتتاح بناءً على تعليمات صارمة من الأخطبوط، ذلك الكيان الغامض الذي تمتد أذرعه في كل اتجاه كأنما هو إله خفي يُحرّك خيوط الدُّمى من وراء ستار سميك. كان السبب وراء هذا التأجيل هو النجاح المدوّي الذي حققته حملة ترويج البرشام والجريدة والموقع، ذلك النجاح الذي فاق كل التوقعات، وجعل الأخطبوط يُعيد حساباته ويُعدّل خططه.

وحين جاء الوقت المناسب، وحين نضجت الثمرة المسمومة، جاءت اللحظة الحاسمة.

كان شاهي وباهي في قمة الاستعداد لاستقبال الضيوف. لقد جمعا معلومات مُفصَّلة ودقيقة عن أغلب المدعوين، درسا نقاط القوة والضعف لكل شخصية من الشخصيات المهمة والمشهورة، وكأنهما جنرالان يستعدان لمعركة فاصلة.

كانت أجواء الحفل مُبهرة إلى حد السحر: أضواء ملونة تكسو السماء كأنها شهب ساقطة، وموسيقى صاخبة تهز الأرض تحت الأقدام، ومجموعة كبيرة من الفتيات يرتدين فساتين ضيقة قصيرة جداً، استقطبتهن شاهي إلى الحفلة لإضافة نوع من الإثارة والفتنة، ولجعل الأجواء أكثر اشتعالاً.

استقبل باهي وشاهي المدعوين بترحاب بالغ واهتمام ملحوظ، يصافحان هذا ويحتضنان تلك، في رقصة دبلوماسية مُتقنة.

وما إن رأت شاهي سيارة فارهة سوداء لامعة تتوقف أمام المدخل، وخرج منها صبحي البنهاوي، بصحبة زوجته هايدي صوان التي تلمع كالماسة تحت الأضواء، حتى ابتسمت شاهي ابتسامة عريضة وأسرعت نحوهما قائلة بحماس مُصطنَع، بصوت عذب:

- أهلاً! أهلاً! صبحي بيه! لا مش معقول... وحرمه كمان! الإعلامية المتألقة والصحفية الكبيرة... الأستاذة هايدي صوان! صاحبة الابتسامة المشرقة والأناقة والثقافة واللباقة... واللي مكسّرة الدنيا بخبطتها الصحفية، وبرنامج التوك شو 'زاوية ثاقبة' على قناة الشهاب... واللي ليها معجبين ومشاهدين أكتر من الفنانين ولعيبة الكورة! لا... بجدّ! شرف كبير لينا حضورك يا أستاذة!

نظرت لها هايدي بفخر واضح، وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة مُتكلَّفة، بابتسامة مشرقة:
- ميرسي! ميرسي! إيه كل ده؟! ده كلام كبير قوي! مبروك عليكم الافتتاح... وأتمنى ليكم التوفيق!
ابتسمت شاهي ابتسامة دبلوماسية، ثم أشارت بيدها نحو باهي الذي كان يقف بجوارها:
- باهي... جوزي وشريكي!
نظرت هايدي إلى باهي وصافحته بحرارة:
- أهلاً وسهلاً! مبروك الافتتاح!
صافحها باهي بحرارة، وأمسك بيدها لثوانٍ أطول من اللازم:
- مبروك علينا كلنا! الأتيليه والجيم دول لخدمتكم... ولا إيه يا صبحي بيه؟
أخرج صبحي من فمه سيجاراً كوبياً فاخراً، وأخذ نفساً عميقاً منه، ثم أطلق دخاناً كثيفاً في الهواء وبصوت أجش واثق:
- بكل تأكيد طبعاً! وأنا وهايدي يشرفنا إننا من النهاردة أعضاء عندكم في الجيم!
قالت شاهي بدبلوماسية مُتقَنة:
- يا خبر! ده الشرف لينا احنا يا صبحي بيه... اتفضلوا! المكان مكانكم!
قال باهي بترحاب واضح:
باهي: اتفضلوا! خدوا راحتكم! اتفضلوا! اتفضلوا!
وما إن ابتعد صبحي وهايدي، حتى نظرت شاهي إلى باهي بعينين مُركّزتين، وقالت بصوت خافت لكنه حاد:
- تعرف يا باهي؟ هايدي صوان واجهة ممتازة لصبحي البنهاوي...
رفع باهي حاجبه في استفهام:
- أكيد طبعاً... إيه؟ بتفكري في إيه؟
ابتسمت شاهي ابتسامة ماكرة، وقالت بنبرة واثقة:
- تعجبني لما تفهمني... احنا ممكن نستغل شعبية هايدي في عمل برنامج يناقش فضايح الفنانين والمشاهير...البرنامج ده هيكسر الدنيا! ويُثير الغريزة الجنسية عند الناس أكتر... ويبقى جزء من الخطة للترويج للموقع... بس بشكل مختلف!
اندهش باهي من الفكرة، وابتسم ابتسامة ساخرة:
- إنتي مجنونة! هايدي صوان؟! مستحيل! إنتِ كده شطحتِ منّك!
قالت شاهي بنبرة تمزج بين التحدي والسعادة والانبهار:

- لا! ده هو عين العقل! مفيش حد تاني ينفع غير هايدي صوان! إنت مش متخيل... لما تبقى واحدة ست واقورة زي هايدي... تعمل برنامج زي ده... يبقى سِكْس من نوع جديد... مختلف!

فتح باهي فمه في دهشة:

- سِكْس؟!! لا... أنا مش فاهمك خالص!

هزّت شاهي رأسها بثقة:

- مش مهم تفهم دلوقتي... لما تشوف ردود أفعال الناس لما يشوفوا البرنامج، هتفهم وتعرف الناس بتفكر إزاي...

توقفت، ثم أضافت بقلق خفيف:

- لكن المشكلة دلوقتي... إقناعها منين؟!

هايدي صوان هي واحدة من الإعلاميات الجميلات اللواتي غيّرن شكل ومسار الإعلام العربي من حيث شكل كتابة الموضوع الصحفي، أو طريقة تداول الأخبار في برنامجها، وكذلك محاورة ضيوفها.

درست الإعلام في أمريكا، وتؤمن بحرية المرأة وتحررها. تزوجت من صبحي بعد انفصالها عن زوجها الأول الذي نصب عليها وأخذ منها كل ما تملك، وكاد هذا الموضوع أن يُدمّر حياتها، لكن سرعان ما انتشلها صبحي من هذه الأزمة، وظل خبر زواجهما حديث الساعة.

ولأنها أدركت بعد ذلك من أين تُؤكل الكتف، استطاعت أن تُدرك ما يُطالب به المشاهدون، حتى لو كان ذلك عكس أفكارها المتحررة. لذلك ارتدت قناع الوقار، فأصبحت خليطاً بين الجمال والجسم الرشيق والوقار والذكاء، حتى أصبحت الأولى في مجالها بشعبية جارفة.

ظل باهي مندهشاً من فكرة شاهي، محاولاً استيعابها، بينما كانت شاهي تبتسم بثقة في نجاح الفكرة. في هذه اللحظة، جاءت إليهما ديانا بغدادي، مصممة الأزياء الشهيرة، بوجه يكسوه السعادة والبهجة:

- ألف ألف مبروك يا جماعة!

احتضنتها شاهي بحرارة، وقالت بامتنان واضح:

- البركة فيكِ يا ديانا! إنتِ صاحبة الفكرة... والمشرفة على تنظيم الحفلة كمان!

قال باهي وهو يغمز لديانا بطريقة مُغرية:

- وصاحبة التصميمات اللي في عرض الفاشون الليلة كمان! وفوق ده كله... جمال لافت للنظر! إنتِ تهويسي!

غمزت له ديانا بدورها، وقالت بصوت مُغرٍ:
- باهي حبيبي! إنت وشاهي **couple** جميلٍ ومُدهش... تستحقوا أكتر من كده!
اقتربت منهما أكثر، وخفضت صوتها بطريقة مثيرة:
- وعلشان كده... أنا عاملة لكم مفاجأة جامدة جداً في برنامج الحفلة الليلة! أنا مش عايزة أحرقها... وعايزة أشوّقكم أكتر! هاهاها!
ضحكت شاهي بدورها، وقالت بفضول واضح:
- آه! أنا كده فعلاً متشوقة إني أعرفها! خلّي المفاجأة لضيوفنا... لكن تخبي على شاهي حبيبتك؟!
قال باهي بتودد مُبالغ فيه:
- ديانا... عشان خاطري!
ضعفت ديانا أمام نبرة صوت باهي، فقالت باستسلام:
- يا خبر! تئبرني عيونك يا باهي! وشاهي طبعاً...
أخذت نفساً عميقاً، ثم قالت بصوت مُتحمس:
- مفاجأة الليلة... إن أختي مادلين، الراقصة العالمية، هي اللي هترقص في الحفلة الليلة!
توقفت للحظة لترى تأثير الكلام، ثم أكملت:
- وده بعد ما قنعتها تلغي كل حفلاتها... وتيجي مصر تتعرف عليكم! لا، وكمان إيه؟! رفضت تاخد أي مقابل! يعني هدية منها ليكم بمناسبة الافتتاح!
قال باهي في ذهول، واتسعت عيناه:
- واو! مادلين بنفسها؟! دي مفاجأة حلوة قوي! الحفلة هتولع! بجدّ يا ديانا... إنتِ جامدة قوي!
انبهرت شاهي بدورها، وقالت:
- فعلاً! مفاجأة هتغير شكل الحفلة... وخصوصاً إن مادلين **very sexy**! إنتِ فعلاً فريدة في كل حاجة!
قالت ديانا بتواضع مُصطنَع:
- دي حاجة بسيطة جداً لعيونك وعيون باهي... بطل السباق اللي جاي! ولا إيه يا شاهي؟
قالت شاهي وهي تغمز لها بعينها:
- إنتِ طالما شايفاه بطل... يبقى هو فعلاً بطل! هاهاها!

قال باهي بعد أن اقتنع بأن هناك اتفاقاً يتم عليه الليلة:
- آه... بس أوعى مادلين تحط عينها عليّا! أنا النهاردة **out**!
أمسكت ديانا بيده وضغطت عليها بقوة، فتألم باهي:
- بعد إذنك يا شاهي...
ثم همست في أذن باهي بصوت لا يكاد يُسمع:
- اطمئن... مادلين **lesbian**! إنت بتاعي أنا وبس!
استسلم باهي لضغط يدها، وقال في توجع واضح:
- آه! آه! واو! مادلين **lesbian**؟! الظاهر الحفلة دي فيها مفاجآت كتير!
تركت ديانا يده وهي منتشية بانتصارها في الضغط على يده، ثم قالت وهي تتوجه بعيداً عنهم:
- طب بعد إذنكم... علشان أتابع البرنامج!
قال باهي وهو يتحسس يده التي تؤلمه:
- احنا كلنا ضيوفك الليلة يا ديانا... متّعينا بمفاجآتك!
انتظرت شاهي حتى ابتعدت ديانا، ثم نظرت إلى باهي بعينين مُحدّقتين وقالت بفضول:
- كانت بتقولّك إيه؟
قال باهي بنبرة شبه أنثوية ساخرة:
- وإنتِ مالك؟
شاهي بحدة
- بصّي بتتكلم إزاي! إيه؟ إنت على طول بتحنّ؟!
- خلاص! خلاص! كانت بتقولّي إن أنا بتاعها لوحدها... وإني مليش دعوة بأختها مادلين... عارفة ليه؟
- ليه؟
- علشان مادلين **lesbian**!
شاهي (بابتسامة عريضة)
- **Lesbian**؟! دي كده الحفلة حلوت قوي!
- وإيه ديانا دي؟! مابتشبعش! أنا الأسبوع ده نمت معاها تلات مرات!
- يا خوفي! مش عارفة إيه اللي عجبها فيك! محدش عارف إنت بتبقى فوق ولا تحت ولا بتبقى إيه!
- طب بسّ! بسّ! خدي بالك... وديع جاي علينا... إيه النور ده! وديع باشا!

ابتسمت شاهي ابتسامة دبلوماسية واسعة، وقالت بصوت مرتفع:
- الحفلة نوّرت! وديع باشا وحرمه... مِس جوليا شداد! اتنين من عمالقة الفن والإعلام والميديا في الوطن العربي! كتير علينا قوي كده!
قال وديع بصوت دافئ في امتنان يصاحبه ابتسامة تزيد من احمرار وجهه الممتلئ أكثر وأكثر:
- مبروك مِس شاهي! مبروك مستر باهي! وبالتوفيق!
قالت جوليا بتحفظ واضح، ونبرة باردة كالثلج:
- مبروك شاهي... مبروك باهي... كل التوفيق ليكم...
قبّل باهي يد جوليا بحركة مبالغ فيها، وقال:
- وجودك في الحفلة إنتِ ومستر وديع شرف عظيم لينا... جوليا هانم!
نظرت شاهي لعيون جوليا شداد، تلك العيون التي تحمل الكثير من الغموض والدهاء، عيون كعيون الثعابين الحكيمة، تنظر دون أن تكشف ما خلفها. ثم قالت بحرارة:
- اتفضلوا! اتفضلوا!
دخل وديع وجوليا إلى القاعة الفخمة، وجلسا على الطاولة المخصصة لهما، تلك الطاولة التي كانت في أفضل موقع في القاعة، حيث يُمكن رؤية كل شيء دون أن يراك أحد بوضوح.
شعر باهي بتركيز شاهي الشديد اتجاه تحليل شخصية جوليا شداد، فقال لها بعد أن أصبحا بمفردهما:
- جميلة جوليا... تحسّي إن فيها جمال من نوع خاص...
- تعرف إنها زي ما بيقولوا عنها؟
- قصدك إنها جدّ... والكلمة بتطلع منها بحساب؟
- تعرف إن دي هي من أهم أسباب نكسة الفن الغنائي في الوطن العربي؟
رفع باهي حاجبيه في دهشة، فأكملت شاهي بنبرة حادة:
- بسبب احتكار شركتها 'جولينا تون' للمطربين والمطربات من مصر والمغرب العربي ولبنان وسوريا... وتدميرهم فنياً... وده بمقابل مادي خيالي يُغري أي مغني أو مغنية...
توقفت للحظة، ثم أكملت بصوت أكثر حدة:

- وده لحدّ ما المغني يتنسى... تشوف غيره وتدمّره! ده غير أنها أشترت معظم الأفلام المصرية القديمة... كحق أحتكار للأفلام دي!
باهي: يعني إيه؟
- يعني هي بس اللي ليها حق عرضها على قنواتها في مجموعة قنوات 'جوليانا'... بس هي مابتعرضهاش! وبتعرض كام فيلم تافهين... لكن الأفلام المهمة اختفت... وبدأت الناس تنساها... والأجيال اللي جاية متعرفش عن الأفلام دي حاجة!
- يعني قضت على الهوية الفنية؟
- بالظبط! سواء السينمائية أو الغنائية! وطبعاً ده أكيد جزء قوى جدا من خطة عالم الأخطبوط!
اقتربت من أذنه، وهمست:
- وليك إنك تتخيل... اختيار واحدة ست لتنفيذ الجزء ده؟! يبقى لازم إنها تكون ست مش عادية!
- بس دي أصغر من وديع يجي بتلاتين سنة!
- يا حبيبي! المصالح بتتصالح! إنت نسيت ولا إيه؟
- صحيح! عندك حق... اتنين أفاعي!
- إذا كان هي... ولا وديع! أتنين دماغ، وديع بقي هو دلوقتي كمان دوره في خطة عالم الأخطبوط اتغير ورجع للمنفسة بقوة... بقي يشتري ماتشات الكورة لدوريات مهمة ويشفّرها!
- خدت بالى، وبكده يضيّق الخناق على الشباب بالبعد عن الرياضة؟
- أو لازم الذهاب للكافيهات والقهاوي! وهي دي الأرض الخصبة لبداية دورنا احنا في توجيه الشباب للبرشام والمخدرات والجنس!
- منظومة متخرش الميه! كل واحد له دور مُفصّل عليه بالمللي! والناس مقتنعة أن كل اللى بيحصل ده عشوائى
ليقولا (معاً):
- صحيح... عالم الأخطبوط!
دهشت شاهى لم تتوقف رغم أنها أصبحت جزء لا يتجزء من صناعة هذا العالم:
- عالم الأخطبوط ده متاهة كبيرة قوي... ولا تخطر على بال بشر!
توقفت، ثم سألت بفضول:
- بس... تفتكر يا باهي... عادل غيضان لسه بيحبها؟
نظر لها باهي مندهشاً:

- هي مين دي؟
شاهي بضيق
- إنت سرحت في عالم الأخطبوط ولا إيه؟! ركّز معايا! أنا بتكلم على جوليا!
- وإنتِ عرفتي منين إن عادل كان بيحب جوليا؟
- من ديانا... ومن شادي مكين قبل ما يسافر أمريكا... يعني حَبة من هنا على حَبة من هنا!
- واضح إنك مابتضيّعيش وقت خالص!
- عيب عليك! ها... تفتكر لسه بيحبها؟
- إنتِ شايفة إيه؟ أنا معرفش!
- أنا متأكدة إنه لسه بيحبها... هو سمى مجموعة قنواته **J.B.C** العربية على أسمها إلا إذا كان بيحبها، وهنا مربط الفرس!
- فرس غيري فين؟!
- يوه! متخرّجنيش من تركيزي! بقولّك إيه... معاكش برشامة؟
- معايا... بس هتخديها دلوقتي؟
- آه! من غير ميه... هبلعها على طول! وإنت خدلك واحدة... عندنا شغل كتير الليلة!
- على رأيك... طب خدي بقي قبل ما حد يجي علينا!
أخرج باهي شريط البرشام من جيبه بحذر، وأعطاها حبة، فابتلعتها بسرعة، ثم سألته:
- تفتكر إن عادل غيضان ممكن يجي الحفلة الليلة؟
- أكيد! أنا بعت له دعوة... وبعدين، من غير دعوة، لازم يجي الحفلة! إنتِ عايزة الأخطبوط يزعل منه؟! دى تعليمات.
- صحيح!
- ده لولا لفت الانتباه، كان أوغلى الكان حضر بنفسه! لكن الناس... رجالة عالم الأخطبوط كلهم هيحضروا الليلة... اللي بيلعب دور كبير... واللي بيلعب دور صغير!
ابتسم ابتسامة ماكرة:
- مش بقولّك؟ منظومة زي ساعة بيج بين! وكمان بعت دعوة تانية لأخوه هاني... وهو كمان هيحضر!
- آه! هاني ده لوحده حكاية! شاب في العشرينات... وعنده مجموعة قنوات **U.B.C** العربية! ده غير مول كبير جداً في قلب القاهرة... وشركات استثمار عقاري... وقرى سياحية!
- كل ده شو! لكن في الآخر... هاني وعادل حاجة واحدة!

- يعني إيه؟
- كل ده علشان الناس تتوهم إن فيه منافسة ما بين مجموعة قنوات **J.B.C** العربية ومجموعة قنوات **U.B.C** العربية... وكله في الآخر بيصبّ في مصلحة الأخطبوط!
- بس توجّه مجموعة قنوات عادل غيضان غير توجّه مجموعة قنوات أخوه هاني خالص!
- آه! هو ده اللي باين! علشان كل واحد من المشاهدين له ذوق معين... 'ولولا اختلاف الأذواق لبارت السلع'!
أشار بإصبعه في الهواء:
- المقصود من كل ده إن كل واحد يختار اللي يناسبه... بس في النطاق اللى الأخطبوط محدده له علشان يناسبه!
- فعلاً! الاتنين إمبراطورية إعلامية لا يُستهان بها في التأثير على رأي المشاهد... وتوجيه الرأي العام في الوطن العربي لاتجاه معين!
- مش قولتك؟! أهم الاتنين جايين مع بعض كمان!
في هذه اللحظة، تقدم عادل غيضان نحوهما بخطوات واثقة، يرتدي بدلة رمادية أنيقة، وبجواره أخوه هاني الذي كان يبدو أصغر سناً وأكثر حيوية. قال عادل بصوت مُعتذِر:
- مبروك! مبروك! وأنا آسف جداً على التأخير... بس هاني السبب! إنتوا عارفين حجم المشاغل! أنا بعتذرلك يا شاهي هانم... وبعتذرلك يا باهي بيه!
قالت شاهي بصوتها الأنثوي الفتّاك، وهي تنظر إلى هاني غيضان بإعجاب واضح:
- يا خبر يا عادل بيه! متقولش كده! ده احنا كلنا تحت أمرك! ومقدّرين قد إيه إن وقت حضرتك ضيّق!
ابتسمت ابتسامة عريضة:
- يكفينا شرف حضورك حتى ولو دقيقة! أهلاً بحضرتك وبهاني بيه!
قال هاني في تودد واضح، ونظرة إعجاب لا تخفى على أحد:
- مبروك شاهي هانم! مبروك باهي بيه! وأنا اللي لازم أعتذر لإني أنا سبب التأخير!
اقترب خطوة من شاهي:
- وعلشان أصلح غلطتي... أنا وكل شركائي في كل شركاتي... زباين عندكم!
شعر باهي من نبرة صوت هاني أنه وقع في براثن الإعجاب بشاهي، فقال له بسرعة:
- ده شرف كبير لينا يا هاني بيه! أنا وشاهي تحت أمرك في أي وقت!
لتقول شاهي للطرق على الحديد وهو ساخن:

- حيث كده... لازم يكون من هنا ورايح لبس هاني بيه على ذوقي أنا!
قال هاني بفخر واضح، وابتسامة عريضة:
- وأنا تحت أمرك! واعتبري إن معاكِ دفتر شيكاتي ممضي على بياض! أنا أهم حاجة عندي إني أفضل **STAR** على طول!
قطع عادل حديثهما بابتسامة، لكن في عينيه شيء من الحزن:
- واضح إني كده بقيت عازول!
ابتسم باهي بدبلوماسية:
- متقولش كده يا عادل بيه! ده حضرتك الكل في الكل... ورقم واحد في الحفلة وفي كل مكان!
أمسك عادل بكتف باهي بقوة، وقال بصوت خافت:
- طب ممكن كلمة على انفراد يا باهي بيه؟ بعد إذنكم...
عقد باهي حاجبيه في اندهاش، ونظر إلى شاهي للحظة، ثم قال:
- أوامرك يا عادل بيه... اتفضل!
كانت شاهي في هذا التوقيت لا يشغلها ماذا يريد عادل من باهي، ولكن الذي يشغلها هو نصب الشبكة لصيدها المُسمى هاني غيضان. قالت له بعد أن تركهما عادل وباهي بمفردهما:
- وإنت بقي يا هاني بيه... بتحب إيه؟
قال لها هاني بنبرة ونظرة تفهمها كل امرأة في نفس موقفهما:
- أنا بموت في الستات... وخصوصاً لما تبقى في جمالك!
شعرت شاهي بأن هاني يُقصّر عليها المسافات في تحقيق غايتها منه، لذلك ضحكت ضحكة مُغرية على جملته قائلة:
- هاها! ميرسي! أنا أقصد ذوقك في اللبس... إنت دماغك راحت فين؟
- ماشي! عموماً... أنا بحب ذوق الستات في اختيارهم للبسي... وخصوصاً الستات الذكية اللي عندها خبرة في الحياة!
- تقصد خبرة من أي نوع؟
ابتسم هاني بابتسامة ذات مغزى
- إنتِ فهماني كويس!
غيّر هاني الموضوع فجأة:
- تفتكري عادل عايز باهي في إيه؟
في مكان منعزل من القاعة، نظر باهي إلى عادل قائلاً:

- أوامرك يا عادل بيه!
قال له عادل بأثر وشجن، وقد تبدلت ملامحه إلى الحزن العميق:
- قولّي يا باهي... هو وديع الياس جه الحفلة؟
- آه... موجود!
- جه لوحده؟
- لا... معاه مراته جوليا شداد!
أصاب عادل الصدمة
جوليا هنا... في الحفلة؟!
- آه... من أكتر من نص ساعة!
اغتاظ عادل وجزّ على أسنانه، وخرجت منه الكلمات دون وعي:
- أنا مش عارف مكمّلة معاه على إيه! مع إنها عارفة إنه شاذ جنسياً!
صَعَقت الجملة أذن باهي، فقال في دهشة بالغة:
- إيه؟! وديع الياس شاذ جنسياً؟! مش معقول!
انتبه عادل لما قاله وتأثيره لو علم الأخطبوط بتسريب عادل لمثل هذه المعلومة الخطيرة. أسرع بالقول بحزم وهو يُخرج شيكاً من جيبه:
- بقولّك إيه... ولا كأنك سمعت حاجة! والشيك ده هدية منّي ليكم بمناسبة الافتتاح... باهي... أنا مقولتش حاجة... وإنت مسمعتش حاجة!
أمسك باهي بالشيك، ونظر إلى الرقم المكتوب عليه، فاتسعت عيناه:
- عادل بيه! إنت فعلاً مقولتش حاجة! وبجدّ فعلاً كده كتير علينا! أنا مش عارف نودّي جمايل حضرتك دي فين!
- متقولش كده! إنت وشاهي الأسهم بتاعتكم كل يوم بتزيد! واضح إن الأخطبوط راضي عنكم قوي! أنا شوفت الموقع، واضح أنكم بتلعبوا في منطقة مميزة ليها مستقبل كبير! وبعدين إيه؟ احنا مالناش ترابيزة في الحفلة ولا إيه؟
- إزاي؟! ده أول اسم اتحطّ على ترابيزة كان اسم حضرتك... إنت وهاني بيه طبعاً!
- لا! أنا عايز ترابيزة لوحدي... وهاني ترابيزة تانية... منعاً للفت الانتباه! إنت فاهم... مش عايزين مضايقة من الصحفيين!
توقف، ثم أضاف:
- آه صحيح! بمناسبة الصحافة... مبروك جريدة 'الضوء الساطع'! فكرة جميلة جداً!
- ميرسي! كل بفضل توجيهاتك المستمرة يا عادل بيه! وبخصوص الترابيزة... اتفضل حضرتك... وفي ثانية ترابيزة هاني بيه تكون جاهزة! اتفضل حضرتك!

ظلت شاهي وهاني يتبادلان أطراف الحديث. قالت له شاهي بعد أن كوّنت فكرة عنه:
- إنت كده يا هاني بيه... يتخاف منك! كلامك أكبر من سنّك! فعلاً تستاهل إنك تقود كل الاستثمارات دي بالنجاح ده!
- ده حسد بقي! هاهاها! طب إيه؟ هفضل واقف كتير؟ ما ينفعش نتكلم واحنا قاعدين؟
عاد إليهم باهي قائلاً:
- آسف لو اتأخرت عليك يا هاني بيه! ترابيزة مخصوص جاهزة لحضرتك... اتفضل! واعتبر إن أنا وشاهي وكل اللي في الحفلة تحت أمرك!
- شكراً لذوقك! ومبروك مرة تانية... ألف ألف مبروك!
قالها هاني وتوجه إلى ترابيزته بخطوات واثقة.
وما إن أصبح شاهي وباهي وحدهما، حتى قالت شاهي بحماس:
- إيه؟ عادل كان عايزك ليه؟ طلع شاذ هو كمان زي ليليان؟!
ضحك باهي بصوت عالٍ:
- هاهاها! مش للدرجة دي!
- طب ما تقول كان عايزك ليه؟
- كان بيسأل على حبيبة القلب جوليا شداد... جت ولا لأ! وأداني الشيك ده علشان مجيبش سيرة!
نظرت شاهي إلى الشيك، فاتسعت عيناها:
- شيك بالرقم ده علشان بس هيشوفها؟! إمال لو...! دي كده حلوت قوي!
- لو إيه؟
أجابت شاهي بابتسامة ماكرة
- هتعرف لما تكبر! هاهاها! سيبني بس أنا أتكتك... علشان دي كده حلوت قوي قوي قوي!
توالت بعدها وفود المدعوين من الفنانين والمشاهير والسياسيين ورجال الأعمال، وبعض من رجال الحكومة المهمين في صنع القرار في ذلك الوقت، لتتضح الصورة كاملة لباهي وشاهي عن مدى قوة الأخطبوط وهيمنته على مفاتيح الأمور.
زاد السخب والأجواء الاحتفالية، والموسيقى أصبحت أعلى، والضحكات أكثر، والأضواء أشدّ سطوعاً.
وبينما يقف باهي وشاهي بمفردهما في لحظة نادرة، نظر لها باهي قائلاً بدهشة:

- بصّي كده! إيه الصاروخ اللي جاي مع شادي مكين ده؟! هو جه من أمريكا امتى؟! أنا بعت له الدعوة وقولت مش هيجي!
نظرت شاهي في اتجاه قدوم شادي مكين، وهي تبتسم ابتسامة تدل على أنها أصبحت تعي أن الأخطبوط سخّر لهم الجميع لدعمهم في تنفيذ دورهما في الخطة، وأنهما بالفعل أصبح لهم مكانة مرموقة في عالم الأخطبوط تجعل مثل هؤلاء الشخصيات تأتي إلى الحفلة لدعمهم، وكرسالة قوية من الأخطبوط يؤكد لهم مدى قوة دعمه لهما.
وقبل أن تنفض من شرودها، أقبل عليهما شادي قائلاً بابتسامته ووسامته:
- ألف مبروك يا شاهي! مبروك يا باهي!
ثم ردد بعض الجمل الفرنسية بلغة سليمة مفادها أنه سعيد بالافتتاح ويتمنى لهم التوفيق.
قالت شاهي في امتنان واضح:
- ميرسي يا شادي! وأتمنى تكون زبون عندنا! واعتبر إن الحساب كله مدفوع مقدماً!
أفصح شادي عن دوره في دعمهما قائلاً بثقة:
- يا خبر! كتير كده بجدّ! على العموم... أنا هعملكم دعاية حلوة قوي... وهخلّي كل أصحابي من الوسط الفني ورجال الأعمال يكونوا زباين عندكم!
نظرت شاهي إلى الفتاة الجميلة القادمة بصحبة شادي، فتاة في منتهى الجمال والأنوثة، شعرها الأشقر الطويل يتدلى على كتفيها، وعيناها الزرقاوان تلمعان كالياقوت. ثم قالت لشادي:
- طب إيه؟ مش تعرّفنا بالقمر اللي معاك ولا إيه؟
- أوه! **Sorry**! ليليان... أختي! شاهي وباهي أصدقائي اللي حكيتلك عنهم يا ليليان... واللي ليهم مستقبل كبير جداً في البيزنس!
أبدى باهي إعجابه بليليان قائلاً بحماس:
- مش ممكن! هو لسه فيه جمال بالشكل ده؟! تشرفنا آنسة ليليان!
أكملت شاهي ما بدأه باهي قائلة:
- هو ده جمال بعقل! دي أقل حاجة تتقال... ملكة جمال! جاذبية وطلة تفوق الوصف! وده برضه قليل عليها!
هنا جاء إليهم صبحي البنهاوي بعد أن لمح ليليان الجميلة. فالمعروف عن صبحي أنه مولع بالنساء، وله العديد من النزوات ما بين زواج عرفي لفنانات، أو علاقات غير مشروعة لبعض الجميلات تتناولها الصحف على استحياء، وسرعان ما تختفي

حكايات صبحي على أنها ليست سوى إشاعة مُغرِضة للنيل من هذا الكيان الكبير، بل في كثير من الأحيان تكون هذه الحملات بمقابل مادي منه شخصيا، حتى يظل مسار للجدل والتساؤلات في كل الأوساط.

اقتحم صبحي الحديث قائلاً وهو ينظر إلى ليليان بشهوة واضحة:

- فيه إيه؟ إنتوا نسيتونا ولا إيه؟ إزيك يا شادي؟

صافحه شادي قائلاً:

- إزيك يا صبحي بيه؟

بدبلوماسية باهي المعهودة:

- يا خبر! واحنا نقدر؟! ده الحفلة كلها معمولة علشانك يا صبحي بيه!

لمحت شاهي نظرات الإعجاب بليليان في عيون صبحي البنهاوي:

- آه! أعرّفكم ببعض... صبحي بيه البنهاوي، رجل الأعمال المعروف... ونجمة الحفلة، دي بقي... ليليان مكين، أخت شادي!

قالت ليليان بصوت رقيق متناغم كالموسيقى:

- هاي! وميرسي ليكِ يا شاهي! ومبروك الافتتاح!

قال صبحي مبتسماً في دهشة:

- مش ممكن! إيه ده؟! أختك بجدّ يا شادي؟! طب وكنت مخبّيها عننا فين طول كان رد شادي عبارة عن تسويق أخته قائلاً:

- ليليان كانت عايشة في أمريكا... ولسه راجعة معايا بعد ما خلصت دراستها في مجال الإعلام!

زاد ذلك من انبهار صبحي، فقال له:

- هايل! شيء عظيم!

أكمل شادي تسويق أخته بحماس:

- لأ! وإيه؟ عندها هي كمان ميول فنية! فنانة استعراضية... محصّلتش! رقص بجميع الأنواع! الغنا... صوت مفيش بعد كده! تمثيل... موهبة ودراسة! طموحها إنها تاخد الأوسكار!

أكمل باهي بصفته خبيراً في التسويق قائلاً:

- بصراحة! موهبة ما تتسبش! والأوسكار هتخسر كتير لو ليليان ماخدتهاش!

انبهر صبحي وقد التقط الطُّعم:

- طب إيه رأيك يا شادي في العرض ده؟

- عرض إيه يا صبحي بيه؟

- نعمل قناة جديدة... ونعمل فيها برنامج مسابقة لاكتشاف المواهب! زى أمريكا وأوربا، وليليان تقدّم في المسابقة... ونجيب مجموعة من حبيبك الفنانين... مخرج وملحّن وممثلة... كوكتيل! يكونوا لجنة تحكيم!

توقف، ثم أكمل بحماس:

- وطبعاً ليليان تفوز في الآخر! ودي تبقى أحسن دعاية تتشهر فيها بسرعة الصاروخ... والناس كلها تعرفها! ها؟ إيه رأيكم؟

أسرعت شاهي قائلة بحماس:

- فكرة هايلة يا صبحي بيه! أظن مفيش أسعد منك دلوقت يا ليليان! عالم الشهرة اتفتحلك من أوسع أبوابه... أسرع مما تتخيلي! يالا ادخلي برجلك اليمين!

أعجبت باهي الفكرة جداً، لذلك قال:

- صبحي بيه! أنا أهنيك على فكرتك! ليليان هتبقى مكسب... محصلش! كل المخرجين والمنتجين هيتخانقوا عليها بعد كده!

أكمل بحماس:

- وفكرة البرنامج فعلاً هتوصّلها للنجومية بشكل سريع جداً... وفي نفس الوقت من قلب كل بيت! وأنا عندي اسم البرنامج اللي هيسمع مع الناس بسهولة!

- إيه هو؟

قال باهي وهو يكتب الاسم في الهواء بإصبعه:

- **Galaxy star** ...نجم المجرة!

صدّقت شاهي على كلام باهي واختياره للاسم المناسب للبرنامج قائلة:

- بجدّ! اسم جميل ولافت للانتباه!

توقفت، ثم قالت:

- طب معلش أستأذنكم أنا ثواني... علشان أشوف ضيوفنا! أسيبكم تتعرفوا على بعض أكتر... وتتفقوا على تفاصيل البرنامج! بعد إذنكم...

التفتت نحو باهي وغمزت له:

- ممكن كلمة يا باهي؟

قالتها ثم قامت بالغمز لباهي حتى يفهم ماذا تريد. ففطن هو الآخر أنها تريد أن يترك باهي صبحي وليليان مع بعضهما، ويسحب هو شادي لمكان آخر، وذلك بعد أن لمحت هايدي صوان تجلس على ترابيزتها وهي تشطّ غيظا من وقوف صبحي مع ليليان.

لذلك هو أنسب وقت لها لكي يقع صبحي في الفخ، وكذلك تحاول إيجاد طريقة للدخول إلى أعماق هايدي. فقال صبحي وهو منتشى من ترك مساحة له للحديث مع ليليان:

- اتفضلي! أنا مش غريب!

أخذت شاهي باهي وابتعدا مسافة بضع أمتار. قال لها باهي بصوت منخفض:

- بتفكري في إيه يا شاهي؟

شاهي: أنا هروح لهايدي أعطّلها... لحدّ ما صبحي يقع في الفخ مع ليليان! شكله ريل عليها! وإنت عطّل شادي... ماشي؟

أشارت بعينيها:

- بصّ! هايدي شكلها على آخرها... وشّها هيطلع نار!

باهي: أوكيه! أنا هعطّل شادي على قدّ ما أقدر! أنا كده كده كنت عايزه في موضوع مهم... فكرة خطرت فدماغي واحنا واقفين!

- إيه هي؟ بس أوعى يكون اللي في دماغي! ارحم نفسك شوية!

- لأ! إنتِ دماغك راحت لبعيد! أنا بفكر أجمع ما بين شادي ووديع... ويبخت مَن جمع راسين في... وإنتِ عارفة الباقي! هاهاها!

- أيوه كده! هو ده الشغل! مش موظف في شركة! بس هو وديع ليه في الخشن

- وحياتك ليه، وكمان دبلة لو عايزة، لسه عادل غيضان مسرب الخبر طازة، حلال عليكي يا بنت المحظوظة

- هو كمان، كده كتير، تعرف لو مش هيتقطم تحت أيدي كنت ركبته لكن ده بيلعب في الوقت الضايع، حلال على شادى، يالا ابدأ في التنفيذ... وأنا هروح لهايدي!

تركته شاهي وتوجهت ناحية هايدي، بينما عاد باهي إلى شادي وصبحي وليليان قائلاً:

- شادي... ممكن دقيقة؟ عايزك في موضوع مهم! بعد إذنك يا ليليان... بعد إذنك يا صبحي بيه!

قال شادي في دهشة:

- قوي قوي! أمرك يا باهي بيه!

نظر باهى إلى ليليان:

- ليليان هتكون نجمة على إيدك يا صبحي بيه! أنا واثق ومتأكد من ده! أسيبكم تتفقوا إنتوا الأول على تصوّر ملامح البرنامج... ورجعلكم على طول!

قال صبحي في سعادة واضحة:

- اتفضلوا! وأكيد أنا وليليان هنتفق... ومش هنختلف أبداً!

قال باهي بعد أن ابتعد بشادي عدة خطوات:
- إزيك يا شادي؟ واحشني من أيام اليونان!
- هو ده الموضوع اللي إنت عايزني فيه؟
- أكيد لأ! هدخل في الموضوع على طول... من غير لف ولا دوران!
- يا ريت!
- إنت تعرف إن وديع الياس بيرافق رجالة؟
صدم شادي بالمعلومة، فقال بصوت مرتفع:
- إيه؟!! مين؟!! وديع الياس بتاع القنوات؟!
قاطعه باهي قائلاً:
- آه! هو مالك اتخضيت كده ليه؟
نظر له شادي في ارتباك ودهشة واضحين:
- لأ... أبداً! بس المفاجأة! وبعدين وأنا مالي؟ هو حرّ!
- شغّل دماغك! دي فرصة وجت لحدّ عندك! صندوق على بابا واتفتح قدامك! يالا اكبش منه!
- كلامك غريب! وليه متكبش إنت؟ طب ما احنا في الهوى سوا! ولا نسيت أيام زمان؟
- مش محتاج تفكّرني! أنا منسيتش ومتغيّرتش! ولو أقدر كنت عملت كده! لكن ما ينفعش! ومتسألنيش ليه! هبقى أقولك في الوقت المناسب!
- دماغك فيها إيه؟ كمّل! أحب أسمع!
- هقولّك! إنت هتعمل علاقة معاه واحدة واحدة... وفي المقابل هنخلّيه ينتج مجموعة أفلام من إخراجك!
اقترب من أذنه:
- وأنا ليك عليّا أقرّب المسافات وأقنعه! والليلة البداية! هقنعهولك ينتجلك مسلسل يتعرض في رمضان اللي جاي!
- وبعدين؟
- فكّر إنت في فكرة مسلسل يشدّ الناس ويجذبهم... بعيد عن القضايا الهادفة والمواضيع اللي تجيب اكتئاب... وفي نفس الوقت يحقق ربح محترم!
- وإنت هتظبّط ده أزى؟
- مالكش دعوة أنت بقي! سيبني أنا هظبّط كل حاجة مع وديع! وإنت وشطارتك بقي! اتفقنا؟

- أما نشوف! خلّيني وراك لحدّ الآخر! اتفقنا!
- حيث كده ركّز! لما تشوفني قاعد مع وديع لوحدينا... تعال اقعد معانا... بس لوحدك... من غير ليليان! ليليان كفاية عليها صبحي... هو هيطلّعها للسما!
شادي: فهمت! تفتكر أطلب كام في المسلسل؟ وكام في الفيلم؟
- أقولّك... تعال نحسبها...
وهذا في إشارة ضمنية لطريقة التفكير التي يحكمها المال مهما كانت التنازلات، ومهما كانت العواقب، ومدى تأثيرها على المجتمع.
في نفس التوقيت، انسلّت شاهي بخطواتٍ رشيقةٍ عبر زحام الحفل، تشقُّ طريقها بين الأجساد المتراقصة والضحكات المتعالية، حتى بلغت مائدة هايدي صوان التي جلست منزوية في ركنٍ هادئ، أصابعها تعبث بكأسٍ في يدها، وعيناها شاردتان تتأمّلان الحشود بنظرةٍ تمتزج فيها السخرية بالملل. اقتربت شاهي منها بابتسامةٍ مشرقةٍ عريضة، تحمل في طيّاتها حماسة الشباب ودفء اللقاء الأول وبصوتٍ مرحٍ ونبرةٍ تفيض حيوية.
- منوّرة الحفلة كلها يا هايدي هانم!
رفعت هايدي بصرها ببطء، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ باهتة لا تصل إلى عينيها، تلك الابتسامة التي أتقنتها على مدار سنوات من المجاملات المهنية وبنبرةٍ مهذّبةٍ لكنها جافة.
- ميرسي يا شاهي، الحفلة منوّرة بأصحابها.
أومأت شاهي برأسها، وهي تنزلق على المقعد المجاور، عيناها تلمعان بالإعجاب والفضول تجاه هذه المرأة التي طالما سمعت عنها.
- يا رب تكون الحفلة عجباكي!
زفرت هايدي زفرةً عميقة، وأخذت رشفةً من كأسها، ثم أدارت وجهها نحو شاهي بنظرةٍ فيها شيءٌ من التحدّي والمرارة.
- الحفلة لطيفة... بس هو كده فيه ناس النكد بيجري في دمها.
اتسعت عينا شاهي من الدهشةً حين لمحت الكأس في يد هايدي، وأشارت إليه بحركةٍ تلقائية.
- إيه ده! إنتي بتشربي؟!
انفجرت في وجه هايدي موجةٌ من الغضب المكبوت، جسدها انتفض وهي تستدير بحدّة نحو شاهي، عيناها اتّقدتا ببريق حاد وبصوتٍ يرتجف من الانفعال، ترفع الكأس في الهواء.

- وفيها إيه؟! هو أنا مش بني آدمة؟! وإنتوا مش عاملين الحفلة علشان الناس تنبسط؟! أهو أنا بحاول أتبسط! وبعدين ليه الكل فاكرني من كوكب تاني؟! أنا برضه ست ونفسي أفرح وأتبسط زيّ أي واحدة و...

قبل أن تُتمّ هايدي جملتها، انقطعت كلماتها على وقع انفجار الموسيقى الصاخبة، وتعالت أصوات المُذيعة عبر مكبّرات الصوت تعلن:

- والآن... مع مفاجأة الحفلة! الراقصة... مادلين!

اهتزّت أرجاء القاعة بعاصفةٍ من الصيحات والتصفيق الحاد، وانطلقت الأضواء الملوّنة تراقص الجدران، بينما ظهرت مادلين على المسرح ببدلتها اللامعة، الجريئة الى أبعد من حدود الفجاجة، جسدها يتمايل مع الموسيقى الشرقية الصاخبة.

التفتت شاهي نحو هايدي بحماسٍ طفولي، عيناها تتلألآن.

- واو! إيه رأيك في المفاجأة دي؟!

هزّت هايدي كتفيها باستخفاف، وهي تأخذ رشفةً أخرى من كأسها، نظرتها باردة تجاه المسرح.

- مادلين كمان؟ لا... مفاجأة مفاجأة يعني.

مالت شاهي نحوها أكثر، صوتها انخفض قليلاً ليصبح أكثر حميمية.

- طب بعيد عن الإعلام... إيه رأي هايدي صوان الست في الرقص الشرقي؟ والرقص عمومًا؟

تغيّر شيءٌ ما في ملامح هايدي، ارتخت عضلات وجهها المتوتّرة، ولمعت في عينيها ذكرى بعيدة حلوة، ابتسامةٌ حقيقية رقيقة بدأت تتشكّل على شفتيها وبنبرةٍ حالمة، عيناها تحدّقان في الفراغ.

- الرقص... الرقص فنّ جميل، نوع من أنواع التعبير عن الأنوثة. وخصوصًا الرقص الشرقي... بموت فيه.

توقّفت لحظة، وكأنّها تسترجع صورًا من ماضٍ دفين، ثم أكملت وهي تضحك ضحكةً خافتة ممزوجة بالحنين.

- ساعات كنت برقص وأنا لسّه طالبة في أوضتي، وأتفرّج على أفلام الأبيض والأسود علشان أتعلّم الرقص منهم... بس كان فيه حركات صعبة ما كنتش بعرف أعملها. هههههه.

أطرقت برأسها قليلاً، وهي تتنهّد تنهيدة عميقة.

- كانت أيام جميلة... بس للأسف أغلبية الرجّالة بتفهمه غلط.

- طب وإيه رأيك في مادلين؟

هايدي ببرود
- مالها؟
- يعني رأيك إيه في شخصيتها كراقصة؟ بتشوفيها إزاي؟
صمتت هايدي لبرهة، تأمّلت مادلين على المسرح وهي تتمايل بثقةٍ مطلقة، جسدها يتحدّث بلغةٍ لا تحتاج ترجمة، والرجال من حولها يلتهمونها بأعينهم. شدّت هايدي نفسًا عميقًا، ثم انطلقت تتحدّث بنبرةٍ فيها مرارة وإعجاب متناقضان وبصراحةٍ قاسية.
- مادلين؟ أنا عن نفسي بحسدها على شخصيتها... على الأقل على تحرّرها من نفاق المجتمع. واحدة مش لابسة وشّ... بالعربي كده: عِريانة، والناس كلها عارفة إنها كده. بتلبس بكيني على البحر، وبتلبس أي حاجة على مزاجها، مش اللي على مزاج الناس. بتسهر وتشرب لحدّ الصبح وقت ما تحبّ. مش واحدة خطواتها محسوبة عليها.
شدّت نفَسها بقوّة، وأطبقت أصابعها على الكأس، ثم أكملت.
- هي اللي كل الرجّالة عايزينها في السرير... أمّا اللي زيّنا، الوجها قدّام الناس، الست المحترمة، مع إن محدّش عارف إيه اللي بيحصل ورا الكاميرات. بُصّي، اللي عايزة تخون هتخون، ولو في حضن جوزها وبسّ!
ارتسمت على وجه شاهي نظرةٌ متفهّمة ممزوجة بالدهشة من هذه الصراحة الجارحة.
لتقول شاهي بخبث تحسد عليه وجرأة محسوبة
- أعتبر دي مقارنة شخصية؟
- مش إنتِ سألتيني عن رأيي الشخصي؟ ولّا عايزاني أتكلّم كإعلامية قدّام الكاميرا؟
- لا خالص، أنا سعيدة إنك بتتكلّمي براحتك... مع إن دي أول مرة نتقابل.
ارتخت أساريرُ هايدي قليلاً، ومالت نحو شاهي بنظرةٍ فيها شيءٌ من الألفة.
- ممكن تكون دي أول مرة نتقابل، بس أنا عرفت عنكِ حاجات كتير الفترة اللي فاتت. وصدّقيني، أنا حبّيت شخصيتك من قبل ما أشوفك.
توقّفت لحظة، ثم أشارت بإصبعها نحو شاهي بحركةٍ تحذيرية.
- إنتِ ليكِ مستقبل كبير في العالم الغريب ده... بس بلاش تلبسي وشّ زيّ اللي أنا قبلت إني ألبسه، ويكون مصيرك زيّي: كل خطوة بحساب. بس أنا خلاص... جبت آخري، اتخنقت من كل حاجة حواليا.
انحنت شاهي نحوها أكثر، عيناها مليئتان بالتعاطف والاهتمام.

- يااااه! ده إنتِ شكلك جوّاكي كَبْت جامد قوي! فضفضي... فضفضي!
هزّت هايدي رأسها بعنف، وضحكت ضحكةً مُرّة.
- ولا كَبْت ولا حاجة، كلّه محصّل بعضه! طب بُصّي: أنا راضية؟! زمّتك إنتِ عاجبك تصرفات صبحي وجَرْيِه ورا البنات في كل مكان؟! والناس كلها طبعًا بتتكلّم إن أنا مش مَلْيَة عينه!
صوتها ارتفع قليلاً، وبدأت الدموع تتجمّع في مآقيها رغمًا عنها.
- لحدّ ما شكلي بقي وحش في كل مكان أروحه! خلّي رقبتي بقت قدّ النملة! حاولت أغيّر منه كتير... لكن واضح إن الواطي واطي. الشُّرب...
رفعت الكأس ونظرت إليه بنظرةٍ غريبة.
هايدي: ...الشُّرب بقي هو اللى بيفصلك عن كل ده، ويخلّي كل حاجة سهلة وبسيطة.
أضاء وجه شاهي بفكرةٍ مفاجئة، وأمسكت بيد هايدي بحماس.
- أهلًا! طب إيه رأيك تعملي حاجة مختلفة تغيّري بيها شخصيتك؟
هايدي ساخرة:
- حاجة مختلفة إزاي يعني؟ أمشي بضهري؟! هاهاهاها!
شاهي بابتسامة براقة
- إنك مثلاً تقومي ترقصي مع مادلين، وتطلّعي كل الطاقة السلبية اللي جوّاكِ، وتحوّليها لطاقة إيجابية! أو إنك تتعلّمي الرقص بجدّ، زيّ ما كان نفسك زمان! وحاجات تانية كتير مُطرَقعة!
صمتت هايدي، ونظرت إلى شاهي بعينين واسعتين، وكأنّ أحدًا فتح نافذةً في غرفةٍ مُظلمة. تأمّلت مادلين على المسرح، ثم نظرت إلى الكأس في يدها، ثم عادت إلى عيني شاهي المتحمّستين، ببطء، وابتسامةٌ حذرة تتشكّل.
- تصدّقي... فكرة.
نهضت قليلاً في مقعدها، ثم أشارت نحو المسرح.
- أول ما تغيّر بدلتها وتيجي تاني، عايزاكِ تشجّعيني أقوم أرقص معاها. هيجري إيه يعني؟!
ابتسمت شاهي ابتسامةً عريضة، وضربت بيدها على يد هايدي بحماس.
- بسّ كده! من عينيّا!
وهنا جاءت ديانا بابتسامة عريضة قائلة:
- منوّرة الدنيا كلها يا هايدي هانم!
نظرت إليها هايدي بفخر، وقالت بابتسامة عريضة:

- إنتِ اللي منوّرة الدنيا كلها يا حبيبتي! امسك الخشب! مبتكبريش على طول! شباب!
- واحنا نيجي فيكِ إيه يا هايدي هانم؟ شباب وجمال وأناقة! أنا مصممة أزياء... لكن بتعلم منك الشياكة... عن جدّ! صورتك تزين غلاف المجلات العالمية وجرايد الموضة

حاولت شاهى فتح موضوع أكثر جرأة لكنها لم تجد مدخل، حتى طرقت رأسها كلمة جرايد الموضة، فقالت في حماس وهي تبتسم:

- ما قولتليش يا ديانا... إيه رأيك في العدد اللي فات من جريدة 'الضوء الساطع'؟
- تحفة بجدّ! بجدّ أنا شايفها قنبلة وانفجرت! كل الناس بتتكلم عليها! شوية أخبار ومواضيع هايلة... جديدة من نوعها!

قالت هايدي وهي تنظر إلى شاهي:

- على فكرة... أنا قريت العدد اللي فات! مبروك صحيح! فعلاً لفتت الانتباه! وده علشان إنتم أذكياء!

أكملت بنبرة تحليلية:

- وبخبرتي الصحفية، بعض الأخبار والصور المثيرة تفي بالغرض! وده بيكشف عورة سلوك شريحة كبيرة من المجتمع اللي بتفكر بنصها التحتاني! وهُمّا دول اللي كنت بتكلم إن نظرتهم للرقص أساءت للرقص!

توقفت، ثم أضافت:

- ده غير إن الجريدة كشفت ستر شخصيات مجتمع كانت الناس واخدة عنهم فكرة إنهم محترمين! الناس... يعني... طيبة بشكل... وبتحكم بالمظاهر!

ثم أضافت بحزم:

- وبعدين... أنا هنا اسمي هايدي بس! مش هايدي هانم! زهقت من الشكليات الممله دي بقي!

أشارت بيدها اليمنى في اتجاه كل واحدة منهن:

- هايدي... شاهي... ديانا! اتفقنا!

قالت شاهي وهي تشعر بالزهو والافتخار:

- ميرسي على كلامك يا هايدي! أعتبره تعبير عن بداية موفقة لينا!
- أكيد لفوق! وبسرعة الصاروخ كمان!

قالت شاهي وهي تغمز بعينها اليسرى لديانا دون أن تلاحظ هايدي ذلك:

- ديانا حبيبة قلبي... ممكن طلب؟ بليز!
- إنتِ تأمري يا قمر!

استغلت شاهى حديثها مع هايدى عن الرقص قبل قدوم ديانا، وأنه منفذ لتفريغ الطاقة السلبية، لتضع لمستها قائلة لديانا
- على فكرة هايدي عايزة ترقص مع مادلين! وكمان عايزة مادلين تعلّمها الرقص! بس محتاجة اللى يشجعها.
- بسّ كده! من عنيا! أول ما تطلع مادلين على الاستدج! ...وكمان في أقرب وقت هاخلّي مادلين تعلّمها الرقص... وجلسات مكثفة كمان!
قالت شاهي بحماس:
- طب وأنا مليش نفس؟! أنا كمان عايزة أتعلم الرقص! مليش دعوة!
- بسّ كده! وإنتِ كمان تؤبرني هالعيون!
- طب إيه رأيكم نخلّي الجلسات دي عندي؟ بعيد عن الأضواء!
قالت هايدي في موافقة ضمنية منها على الفكرة:
- آه! كده أحسن! ونكون براحتنا! والواحدة تحسّ إنها بقت حرة... حتى ولو لوقت قليل!
قالت شاهي وهي تشير إلى اتجاه مادلين:
- أهه! مادلين ظهرت تاني! لا وإيه؟ ببدلة رقص! واو!
قالت هايدي بانبهار واضح:
- بدلة تحفة! آه! أنا نفسي ألبس بدلة رقص كمان!
قالت ديانا بابتسامة عريضة:
- ولا يكون عندك فكرة؟ اعتبريه حصل! بدلة الرقص دي من تصميمي! وأحسن منها ليكِ مخصوص يا هايدي!
- طب يالا يا ديانا! إيدك في إيد هايدي... وخلّيها ترقص مع مادلين!
- أوكيه! يالا نرقص! ده الرقص حياة الروح... يشفي القلب المجروح! يالا بينا!
قالت هايدي وقد غلبها السُّكْر:
- طزّ في أي حاجة! يالا بينا!
توجهت شاهي مرة أخرى نحو صبحي وليليان، مستغلة بذكاء ماكر أن جميع من في الحفل مشغولون بمشاهدة رقص مادلين، وبابتسامة الثعلب الذي يحيط بفريستيه، قالت بنبرة المستفسر المبتهج:
- إيه الأخبار؟ واضح إن فيه تفاهم عالي قوي والجو جميل! وأنا كده هبقى عزول! هاهاها!

ابتسم صبحي ابتسامة الرجل الواثق من صفقته، ثم قال بنبرة الحاسم الذي اتخذ قراره:
- أنا خلاص يا شاهي، اتفقت مع ليليان على البرنامج! وإنتِ عارفة صبحي لما تطق في دماغه حاجة... هيعملها، هيعملها!
قالت شاهي بنبرة التملق الاحترافي:
- طبعًا أكيد! الكل يشهد إن صبحي بيه البنهاوي علم في عالم الاستثمارات الناجحة، وخصوصًا الاستثمار الإعلامي!
وعندما لمح باهي عودة شاهي إلى صبحي وليليان، أتى هو الآخر مسرعًا ومعه شادي المخرج الشاب الطموح. اقترب شادي من ليليان بابتسامة ودية وقال:
- ها! إيه الأخبار يا ليليان؟ الحفلة عاجباكي؟
ردت ليليان بحماس فتاة تعيش حلمها، عيناها تلمعان بالبهجة:
- تجنن! أنا حاسة إني في هوليوود!
هنا تدخل صبحي بنبرة رجل الأعمال الذي يريد أن يستغل اللحظة:
- جيت في وقتك يا شادي! أنا كنت عايز أعرف رأيك في مجموعة قنوات جديدة متخصصة في كل حاجة... مجموعة قنوات صبحي!
نظر شادي إلى صبحي نظرة الخبير الذي يقيّم الفكرة، ثم قال بصراحة المحترف:
- فكرة في الصميم! الميديا والإعلانات هما المستقبل، مكاسب فوق المية في المية! لكن فيه مشكلة بسيطة... بلاش اسم صبحي! مع كل احترامي وتقديري للاسم طبعًا، بس الموضوع محتاج اسم سيمبل وفي نفس الوقت ملفت ويسمع مع الناس!
تدخل باهي بذكائه الحاد، ورفع إصبعه في الهواء كأنه اكتشف الكنز:
- هو شادي قصده يعني إن اسم صبحي اسم معروف لوحده، لكن مجموعة القنوات لازم يكون ليها اسم كده قومي يشد! إيه رأيكم في اسم 'بلدي'... مجموعة قنوات بلدي؟
صفق شادي بيديه معجبًا:
- برافو باهي! اسم فعلًا يشد الناس!
وهنا انفجرت شاهي بأفكارها كالبركان:
- هو ده الكلام! وتبقى قناة الأغاني والمنوعات اسمها 'زفة بلدي' أو 'فرح بلدي'!
ليليان بذكاء
- ودي طبعًا اللي هيكون فيها برنامج الاكتشاف!
وبسرعة بديهة من باهي:

- وقناة للأكل ونسميها 'زبدة بلدي' أو 'سمن بلدي'!
اسرعت ليليان بحماس وانبهار شديد:
- وممكن تكون فيه قناة للرقص ويبقى اسمها 'رقص بلدي'!
لم تفوت شاهى الفرصة
- ممتاز! وأنا ممكن أقنع مادلين تصور كام كليب للرقص على الموسيقى الشرقي، ننزلهم في القناة نكسر بيهم الدنيا!
تصاعدت في رأس ليليان أفكرأكتسبتها من مجتمعات ترى التحرر بمنظور له ما له وعليه ما عليه:
- وممكن كمان قناة للأنوثة والصحة والجمال ويبقى اسمها 'ورد بلدي'!
قال باهي بنبرة المعجب:
- يا سلام على أفكارك! واضح إنك شاطرة قوي يا ليليان! وطبعًا كل حملات الإعلانات على مجموعة القنوات تبقى من إخراج شادي!
ابتسم شادى في تواضع:
- أنا تحت أمر صبحي بيه!
لتمثل ليليان مشهد طفلة صغيرة لكنها طاغية الأنوثة:
- وأنا؟ صاحبة الأفكار كده تنسوني؟ أنا مخصماكم!
ابتسمت شاهى معلنة أعجابها الشديد بشخصية ليليان:
- وده اسمه كلام! إنتِ اللي هتكوني موديل الإعلانات كلها، وتبقى دي بداية انطلاقة ليكي مع البرنامج!
ثم أسقط باهي قنبلته الكبرى، قال بنبرة الواثق من خطته:
- وأنا عايز كل الإعلانات تبقى احتكار لمنتجاتنا في الفترة اللي جاية!
نظر له صبحي في دهشة:
- تقصد إيه يا باهي؟
- أقصد إن الفترة اللي جاية دي أنا جايب صفقة مقويات ومنشطات جنسية وأدوية للتخسيس، هغرق بيهم السوق! وطبعًا ده جديد على السوق هنا، علشان كده محتاج حملة دعاية قوية! والإعلانات توصل لكل البيوت! ومجموعة قنوات بلدي هتكون هي الطريق للترويج للمنتجات دي من أقصر الطرق!
همس صبحي في أذن باهي بصوت خافت لا يُسمع:
- ودي منشطات بجد ولا فلاسو؟
همس باهي في أذن صبحي بابتسامة شيطانية:

- وحياتك كلها فشنك! حاجات كده تدي إيحاء بس! الناس محتاجة الوهم في أشكال جديدة! لكن فيه حاجات هتيجي مخصوص، حاجات من الآخر، ودي للحبايب بس! وإنت حبيبي يا صبحي بيه، إنت تأمر!

قالت شاهي فجأة كأن فكرة جديدة قد أضاءت في عقلها:

- طب وإيه رأيكم إحنا ندخل كل بيت في المناطق الشعبية زي ما هندخلهم من الميديا؟

نظرت لها ليليان في دهشة:

- إزاي يعني نفوت على الناس في البيوت؟

ضحكت شاهي ضحكة قصيرة، ثم شرحت:

- هاها! لا، أنا قصدي إن أنا جاتلي فكرة إننا نستورد كمان منتجات منزلية ومفروشات وأجهزة كهربية! يعني أطقم صيني وبطاطين وملايات وأطقم معالق، خلاطات، مراوح وكده يعني! بس بجودة قليلة وسعر مغري علشان تشد الناس! وبرضه نعملها حملات إعلانات قوية في مجموعة قنوات بلدي! ونسميها... نسميها... فكروا معايا نسميها إيه؟

رفع باهي إصبعه منتصرًا:

- أنا عندي الاسم: الشركة العالمية للمنتجات المنزلية 'بيت المستقبل'!

صبحي: وأنا معاكم بتمويل! وليكم تلاتين في المية من أرباح مجموعة القنوات كمان!

وصلت هايدي ومادلين وديانا إلى المجموعة في تلك اللحظة. قالت ديانا بنبرة الغيورة الساخرة:

- إيه؟ هي الحفلة كلها صبحي بيه ولا إيه؟

ابتسم صبحي ابتسامة عريضة ونظر إلى مادلين بإعجاب واضح:

- إزيك يا ديانا؟ إزيك يا مادلين؟ كنتي هايلة! دايمًا متألقة! إنتِ الوحيدة اللي لما بشوفها بترقص بحس إن الرقص موهبة ودراسة، مش هز وسط وخلاص!

- ميرسي ليك يا صبحي بيه!

قالت هايدي بمرارة مكتومة بنبرة ساخرة غامضة:

- وعلشان كده أنا ومادلين بقينا أصحاب!

نظر لها صبحي في عدم فهم:

- تقصدي إيه؟ مش فاهم!

- يعني علشان الرقص بقي دراسة، أنا ومادلين بقينا أصحاب! أظاهر أني هرجع أدرس تاني، واضح أني متعلمتش كويس!

لينسحب شادي بذكاء من قبل أن يشتعل الحديث:
- طب بعد إذنكم... ليليان، عايزك!
فهمت ليليان الموقف بسرعة لتنسحب هي الأخرى:
- **Excuse me!**
غيرت مادلين اتجاه الحديث وهي منبهرة:
- ألف ألف مبروك يا جماعة على الافتتاح! وأتمنى يكون رقصي عاجبكم!
بنبرة أنيقة وابتسامة جذابة قال باهى:
- مبروك علينا كلنا! وفعلاً رقصك هو اللي خلّى للحفلة روح وحيوية!
قالت شاهي وهي تنظر إلى ديانا:
- شوفتي يا ديانا؟ احنا اتفقنا مع صبحي بيه على افتتاح مجموعة قنوات... وهنسميها 'مجموعة قنوات بلدي'!
أكملت بحماس:
- وهيكون فيها قناة للموضة والصحة والجمال... اسمها 'ورد بلدي'... وأكيد هيكون ليكى فيها دور كبير! وكمان قناة للرقص باسم 'رقص بلدي'... ودي هتكون من اختصاص مادلين!
اتسعت ابتسامت مادلين:
- فعلاً! قناة متخصصة في الرقص فكرة حلوة قوي! وأنا متحمسة ليها قوي!
قالت هايدي بنبرة يأس يتخللها غيرة خفيفة:
- وأنا طبعاً في آخر الصف... كالعادة!
شعر صبحي بضيق هايدى، ليقول محاولا تصحيح الوضع:
- إيه؟ لأ! ولا إيه يا باهي؟
بسرعة بديهة باهى تدارك الموقف:
- لأ طبعاً! ده إنتِ يا هايدي هانم... ليكِ قناة لوحدك... اسمها 'شمس بلدي'!
أكمل باهي بحماس:
- هتناقش هموم الشارع والناس ومشاكلهم... وبرامج سياسية وإخبارية وحوارية وتوك شو!
قالت شاهي بابتسامة ماكرة:
- وأنا عندي فكرة مطرقعة قوي... آخر حاجة لمذيعتنا الكبيرة!
شعرت هايدى براحة نفسية، على الأقل انها ضمن الحسابات، لتقول مبتسمة في دهشة رقيقة:

- مطرقعة؟! طب قوليها! مستنية إيه؟
- إيه رأيكم إن هايدي تقدم في قناة شمس بلدي... برنامج عن فضايح الفنانين... وأسئلة جريئة ومولّعة... تلهلب وتقلب كيان الشارع والناس في كل بيت؟!
تجمدت هايدي في مكانها:
- إيه؟! أنا أقدم برنامج كده؟! لأ! مستحيل!
قالت ديانا بإقناع:
- الناس بتحبك... وبتثق فيكِ... وهتتقبل منك أي حاجة! وصدّقيني... ده أنسب وقت للتغيير!
ليقول باهى من منظور أقتصادى وتسويقى:
- وأنا شايف إن أسهمك عند الناس هتعلى للسما أكتر... مع كل حلقة فيها أخبار وأسرار عن حياة الفنانين الشخصية!
اندهشت مادلين من رفض هايدى، وذلك من منظور التحرر ثم التحرر، مع العلم أن التحرر يعنى لها التعرى:
- وليه لأ؟! ده الوقت اللي لازم تغيّري فيه جلدك! الشارع محتاج الجديد!
نظرت هايدي إلى مادلين بعمق، قررت أن تأخذها مثلها الأعلى، لذلك قالت:
- عندك حقّ... إنتِ بالذات يا مادلين... عندك حقّ في كل حاجة تقوليها... لازم أغيّر جلدي!
قال باهي بثقة:
- وأنا كالعادة... عندي الاسم اللي هيكسر الدنيا!
ابتسم صبحي، بعد أن تحاشى وصلة نكد هايدى:
- قول يا عبقري الدعاية والإعلان!
- إيه رأيكم يكون اسم البرنامج... 'ملابسات داخلية'؟!
اقتربت مادلين، جسدها ما يزال يتوهّج من حرارة الرقص، عيناها تلمعان بذلك البريق المُتحدّي الذي لا يعرف الخجل. انحنت قليلاً نحو هايدي بابتسامةٍ عريضة وصوتٍ مرح.
- اسم حلو قوي! 'ملابس داخلية'... يعني هيكشف كل حاجة في حياة الفنان!
ضحكت بصوتٍ عالٍ، ثم أردفت وهي تشير بإصبعها:
- وأنا مستعدّة أبقى أول ضيفة عندك في البرنامج. أنا معنديش حاجة أتكسّف منها... أفضحينى، الفضايح زى الشطة، بتعمل للحياة طعم، ده لو إنتِ وافقتي أبقى ضيفتك.

تبدّلت ملامح هايدي، وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ حقيقية للمرة الأولى في تلك الليلة.
- يا خبر! ده إنتِ تنوّريني! خلاص، طالما إنتوا شايفين كده، أنا موافقة.
انتفض صبحي من مكانه، عيناه تبرقان بالرضا، ورفع كأسه في الهواء.
- وأنا علشان خاطر عيون هايدي، رفعت نسبتكم من الأرباح لأربعين في المية.
مدّ باهي يده مصافحًا، ابتسامةٌ راضية تعلو محياه.
- اتّفقنا!
أنتصبت شاهي برشاقة، والتفتت نحو ديانا بنظرةٍ واعية.
- طب بعد إذنكم، أشوف باقي ضيوفنا... مع إن الوقفة معاكم ما تِتشبعش منها. يلا بينا يا ديانا.
فهمت ديانا النظرة لتقول وهي تنهض:
- عايزاني معاكِ؟ أوكي، بعد إذنكم.
ابتعدتا قليلاً عن المائدة، وانحنت شاهي نحو ديانا همسًا، عيناها تومضان بالمكر.
- تعالي نرحّب بهاني غيضان... ممكن نعمل معاه بيزنس كويس.
ابتسمت ديانا ابتسامةٍ ماكرة:
- يالا بينا أما أشوف دماغك فيها إيه.
اقتربتا من هاني غيضان الذي كان يجلس منفردًا بكأسه، نظراته تجوب المكان بملل أرستقراطي، لتقول شاهي بحماسٍ مُصطنع:
- منوّرنا منوّرنا منوّرنا يا هاني بيه!
رفع هاني حاجبيه بسخرية، وابتسم ابتسامةً باردة.
- ويا ترى مين هيحاسب على النور ده كله؟
انفجرت شاهي بضحكةٍ مُتكلّفة، ثم أشارت نحو ديانا بحركةٍ أنيقة.
- هاهاها! عيوني ليك يا هاني بيه. آه، أعرّفكم ببعض، هاني بيه غيضان...
قاطعتها ديانا بثقة، مادّةً يدها نحو هاني.
- طبعًا غني عن التعريف! مجموعة **U.B.C** العربية أشهر من النار على العلم. تشرّفنا يا هاني بيه.
لتكمل شاهي:
- مِس ديانا بغدادي، مُصمّمة الأزياء المشهورة، وكمان منظّمة حفلتنا.
توقّف هاني لحظة، وتفحّص ديانا بنظرةٍ تقديرية امتزج فيها الإعجاب بشيءٍ من الشهوة المُقنّعة.

- آنشانتيه مدام! طبعًا سمعت عنها كتير وشُفتها في حفلات كتير، بس ما كانش لي الشرف إني أتعرّف عليها قبل كده.
توقّف لحظة، ثم أكمل وهو يمسك يدها برقّة:
- وده بعتبره من سوء حظّي... لأني بحبّ المبدعين، وإنتِ مبدعة في عالم الفاشون. ويشرّفني إني أكون زبون عند حضرتك.
انحنى قليلاً وقبّل يدها بأسلوبٍ أوروبي مُتقن، بينما تبادلت شاهي وديانا نظرة انتصار خاطفة. وبدلال قالت ديانا:
- اعتبر نفسك معايا هتبقى أشيك راجل في العالم.
ضحكت شاهي بمرح، وهي تربت على كتف هاني.
- ديانا كده هي اللي هتصمّملك كل لبسك... يعني هيبقى ليها حق الاحتكار لجميع ملابسك! هاهاهاها!
رفع هاني حاجبيه بتحدٍّ مُمازح.
- وأنا موافق! وحتى الملابس الداخلية كمان، معنديش مانع.
لتزيد شاهي بخبث إيقاع الجرأة ى الحديث:
- وليه لأ؟ حتى ملابسك الداخلية... مش كده يا ديانا؟
ابتسمت ديانا ابتسامةً واسعة، ونظرت إلى هاني بإعجاب.
- واضح إنك بتخلّص كل صفقاتك في دقيقة!
انفجر هاني بضحكةٍ صادقة هذه المرة.
- هاهاها! الموضوع وما فيه إن شرف كبير ليا إن ديانا هانم بغدادي تبقى مُصمّمة أزيائي. واحدة بجمالك وأنوثتك وخبرتك... آممم، قصدي خبرتك في مجال الأزياء طبعًا.
- ميرسي. بس بلاش الألقاب، مش مكانها. خلّيها ديانا بس... ده إحنا وصلنا للملابس الداخلية!
ضحك هاني مجددًا، مُستمتعًا باللعبة.
- هاها! زي ما تحبّي. أنا بحبّ الواضح. يعني مثلاً، عجبني جدًا جريدة 'الضوء الساطع'... حاجة كده زي الشطّة تلهلب الناس! وأخبار مثيرة تكشف المستخبّي في كواليس السرير. أهنّيكِ على الفكرة يا شاهي.
توهّجت عينا شاهي بالفخر.
- ميرسي! ولسّه في العدد الجديد بتاع بُكره مجموعة أخبار جامدة جدًا هتقلب الدنيا.
انحنى هاني نحوها بفضول، صوته انخفض قليلاً.

- شوّقتيني! طب ما تسرّيلنا حاجة كده حصرى لترابيزة هانى غيضان!
ضحكت شاهي بمكر، وأشارت بإصبعها نحوه.
- هاها، ماشي! بُكره نازل في العدد صور لفنانة في عيد ميلادها... بس صور فيها أوضاع مثيرة جدًا وهي قاعدة على رِجل فنان مشهور جدا، المفروض إنه محترم والناس كلها حاطّاه في مكانة عالية.
توقّفت لحظة لتقيس ردّ فعله، ثم أكملت:
- ونازل موضوع عن فتح ملف مقتل فنانة مشهورة من جديد، والكشف عن أسباب ودوافع قتلها، ونشر مُذكّرات بخطّ إيدها فيها فضايح لرجال سياسة وفنانات وشخصيات مهمة في المجتمع.
اتّسعت عينا هاني بإعجاب مُمزوج بالشهوة للفضائح.
- مواضيع في الجون! وايه تاني... معلش، ما بقدرش أستنّى. عيبي إني مستعجل أعرف الجديد على طول.
- وفيه كمان نشر صورة محضر الشرطة لتلات فنانات بعد القبض عليهم في بيت دعارة، وتفاصيل الناس ما تعرفهاش في الموضوع ده.
صفّرت ديانا بإعجاب.
- العدد ده هيخلص في لمح البصر! هيتخطف خطف! هو ده النوع من الجرايد اللي بيجذب الناس فعلاً.
أومأت شاهي برأسها بفخر، ثم أكملت:
- ده غير نشر صور لأول مرة لفضيحة كلينتون ومونيكا... وطبعًا الصور مش بتتعرض لأول مرة ولا حاجة، بس الصور في الآخر فيها إثارة جنسية بشكل كبير لمجتمعنا الشرقي. لكن بالنسبة للمجتمع الغربي، بتكون صور عادية.
بمنتهى الثقة والقناعة قالت ديانا:
- لأن الغرب عندهم مساحة من الحرية الجنسية أكبر بكتير جدًا من الشرق الأوسط.
تأمّل هاني الكأس في يده لحظة، ثم رفع بصره نحوهما بنظرةٍ عميقة.
- ومن هنا المشكلة. ثقافتنا الجنسية عاملة إزاي؟ الناس هتشتري الجريدة على إنها محتوى خبري ولّا محتوى جنسي؟
صمت لحظة، ثم هزّ رأسه.
- لسّه معندناش وعي وانفتاح جنسي زي الغرب. لسّه قدامنا كتير قوي. يعني مثلاً، هل المجتمع الشرقي يتقبّل فكرة إن راجل يمارس الجنس مع اتنين ستات في وقت واحد؟ فكرة الجنس الثلاثي عمومًا؟

انتفضت شاهي بحماس، عيناها تلمعان.
- واو! فكرة مجنونة فيها إثارة آخر حاجة!
ضحكت ديانا بسخرية.
- هو فيه راجل شرقي يستحمل اتنين ستات؟ ده يبقى وحش!
ابتسم هاني ابتسامةً غامضة، وأشار بكأسه نحوهما.
- لأ أعترض وبشدة لسه عندنا وحوش طبعا، ها موافقين على تطبيق الفكرة؟
أزداد حماس ديانا، وشعرت برغبة جامحة في إخماد نيران غرائزها الجنسية
- أنا بحبّ الحاجات المجنونة.
ومن منظور مادي بحت قالت شاهي بحذر:
- ده على حسب...
رفع هاني حاجبيه، وقرّر أن يكشف أوراقه.
- حلو... طلباتكم؟
أخذت شاهي نفَسًا عميقًا، ثم انطلقت بثقة.
- فكرة تمويلك لأكبر مجموعة مراكز تجميل في الشرق الأوسط، مقابل خمسين في المية من الأرباح... 'شاهي بيوتي سنتر'.
أومأ هاني برأسه دون تردّد.
- مش بطّال. معنديش مانع. وإنتِ يا ديانا؟
انحنت ديانا نحوه، عيناها تبرقان بالطموح.
- طالما الموضوع جدّ كده... أنا طول عمري بحلم بفتح قناتين: واحدة عن الأزياء وعالم الموضة في كل أنحاء العالم، والثانية عن الأكل الغربي والمطاعم العالمية.
رفعت إصبعها معدّدة:
- القناة الموضة هيكون اسمها 'فستان سواريه'، وقناة الأكل 'مارون جلاسيه' هتكون للأكل الهاي كلاس. وطبعًا الأرباح مضمونة مية في المية والأرباح خمسين ليك وخمسين ليا.
ابتسم هاني ابتسامةً عريضة، وصافحها بحرارة.
- وأنا برضه معنديش مانع. اتّفقنا!
شاهي بحماس:
- تحب نمضي العقود امتى؟
- أنا بحبّ السرعة. بس علشان أكون قدّ كلمتي، إدّوني فترة ونمضي العقود. أسحب بس شوية من السيولة اللي ليا في السوق، ونبدأ على طول. والعقد سَيْف!

انفعلت ديانا بحماس، وأمسكت بيده بقوة.
- من غير عقد ولا حاجة! ما يمكن حاجة تفرّق ما بيننا أبدًا! ده أنا ما صدّقت لقيتك!
ارتسمت على وجه هاني ابتسامةٌ غامضة، ثم استأذن بإيماءة راقية.
- طب بعد إذنكم... فيه موضوع مهم كنت عايز صبحي البنهاوي فيه. شوية تظبيطات علشان نلمّ فلوسنا من مشروع 'مدينة السحاب' اللي داخلين فيه أنا وهو شراكة.
لم تفوت شاهي الفرصة:
- خُد راحتك يا هاني بيه! بس أنا ليا فيلا هناك. أنا بشوف الإعلانات والتصميمات تجنّن!
التفت هاني نحوها بابتسامةٍ واسعة.
- من غير ما تقولي! طبعًا الفيلا محجوزة ليكِ، وبالتقسيط المريح كمان! وديانا... طبعًا فيلتها اتحجزت دلوقتي.
ضحكت ديانا بدلال.
- بس أنا تقسيطي من نوع تاني خالص! وبحبّ أقسّط على مهلي قوي.
نظر إليها هاني بنظرةٍ شهوانية مُقنّعة.
- وأنا معاكِ للنهاية. أقسّطي على أقلّ من مهلك. يلا سلام دلوقتي.
ابتعد هاني بخطواتٍ واثقة، بينما التفتت شاهي نحو ديانا بانتصار.
- ها! إيه رأيك يا ديانا؟
نظرت ديانا إليها بدهشة ممزوجة بالإعجاب.
- رأيي؟! إنتِ محصّلتيش؟! الصفقة معاكي بتم في ثانية؟! بكلمة طب!
هزّت شاهي كتفيها باستخفاف، ابتسامةٌ شيطانية تعلو شفتيها.
شاهي: لا طب ولا حاجة. هو كده فيه ناس عندهم فلوس وصلت لمرحلة إن الفلوس ما لهاش لزمة قدام مزاجها اللي فوق في الدماغ... ومزاجها اللي تحت في الدماغ برضه.
توقّفت، ورمقت ديانا بنظرةٍ ذكية.
شاهي: والباقي إنتِ فهماه. اللي زي دول لازم يكونوا في صفّنا بأي طريقة... فوق أو تحت.
ضحكت ديانا بصوتٍ عالٍ.
- ده إنتِ طلعتي موضوع كبير قوي!
أشارت شاهي بذقنها نحو ركنٍ بعيد.
- طب ما تيجي ندخل على اللي بعده ونشوف الدنيا معاه فيها إيه؟

- قصدك مين؟
- عادل غيضان.
ارتسمت على وجه ديانا ابتسامةٌ واسعة.
ديانا: طب يلا بينا، علشان أنا عايزاه في موضوع مهم.
- إيه هو؟
- تعالي وإنتِ تعرفي.
اقتربتا من عادل غيضان الذي كان يجلس منفردًا، كأسٌ في يده، ونظراتٌ شاردة تحدّق في الفراغ.
اقتربت شاهي وبصوتٍ مُتعاطف:
يا خبر! عادل بيه قاعد لوحده؟! لا، إحنا كده فعلاً مقصّرين بجدّ.
رفع عادل بصره ببطء، وابتسم ابتسامةً حزينة.
- لا ولا يهمّك يا شاهي. أنا اتعوّدت على كده من زمان.
جلست ديانا بجواره، ولمست كتفه برقّة.
- مالك يا عادل بيه؟
- لا مفيش... بس افتكرت أيام زمان.
مالت ديانا نحوه، صوتها صار أكثر دفئًا.
- لسّه ما نسيتش... قلبي معاك يا عادل بيه. طب بقولّك إيه؟ ما تحاول تفكّر فيّا أنا شوية؟
ضحك عادل ضحكةً مريرة، وهزّ رأسه.
- هاها! إنتِ فاهمة غلط يا ديانا. أنا آخر حاجة أفكّر فيها الستات. لكن أنا مشكلتي إن وديع هو اللي كسب.
ارتسمت على وجه شاهي نظرة فهم مفاجئة.
- آه، أنا كده فهمت! طب واللي يخلّيك تكسب بالقاضية كمان... تدفع كام؟
صمت عادل لحظة، ثم نظر إليها بجدّية.
- أنا مش متأكّد إنك فاهمة الموضوع ولّا لا، بس أنا مستعدّ أدفع مليون دولار.
اتّسعت عينا شاهي، لكنها أخفت دهشتها سريعًا.
- مليون دولار؟! والمقابل؟
توهجت عينا عادل ليقول بهدوء وجرأة عكس البركان الذي بداخله:
- أشرب إزازة شامبانيا على سلسلة ضهر جوليا شدّاد.
أومأت شاهي برأسها دون تردّد.

- وأنا موافقة.
حدّق فيها عادل بدهشة.
- إنتِ واخدة الموضوع ببساطة قوي كده ليه؟
تدخّلت ديانا بحزم.
- سيب الموضوع ده علينا. إنت ما تعرفش قدرات شاهي. وبعدين، أنا ما بحبّش أشوفك كده.
توقّفت، ثم أضافت:
- بس المليون دولار لجوليا... وإحنا؟
رفع عادل حاجبيه.
- طلباتكم؟
انحنت ديانا نحوه بحماس.
- أنا عندي فكرة برنامج هتحقّق نجاح كبير عندك في مجموعة قنواتك... أكبر من نجاحها بكتير.
- فكرة إيه؟
ديانا: برنامج عن اكتشاف مواهب الرقص... الباليه والرقص الشرقي. يتعرض على **J.B.C** العربية. عبارة عن أكاديمية لتدريب الرقص، فيها مجموعة من المتسابقين والمتسابقات. هنعملهم زي كامب، حاجة زي الفندق، بس فيه كاميرات بتصوّر كل حاجة في حياتهم اليومية لحدّ انتهاء المسابقة.
توقّفت لحظة، ثم ابتسمت ابتسامةً ماكرة.
- وطبعًا هيكون فيه اتنين أو تلاتة من ضمن المتسابقين إحنا مأجّرينهم، علشان يكون فيه إثارة جنسية في الموضوع. يعني واحدة تيجي الكاميرا عليها وهي بتستحمّى بالمايوه، واحدة نايمة وهي حاضنة الكابل بتاعها... شوية حاجات مثيرة من النوع ده.
أكملت بحماس:
- ده غير عروض الرقص بدَل من تصميمي، آخر إثارة! البرنامج هيعمل ضجّة ونجاح رهيب! ولجنة التحكيم هتكون أنا ومادلين، ونجيب مُصمّم رقص عالمي معانا. ويبقى اسم البرنامج '**Dance Academy**'... ها، قلتِ إيه؟
صفّقت شاهي بحماس.
- ودي عايزة كلام! برنامج زي ده نجاحه وأرباحه مضمونة!
أومأ عادل برأسه ببطء، ابتسامةٌ راضية بدأت تتشكّل.
- موافق. أنا عليّا التمويل، والأرباح كلها ليكِ. أوكي؟

ديانا: نمضي العقود؟
- من بُكره لو حبّيتي.
شاهي: مبروك عليكم!
التفت عادل نحو شاهي بفضول.
- وإنتِ يا شاهي، طلباتك إيه؟
مالت شاهي نحوه، صوتها انخفض إلى همس.
- أنا عارفة إنك نفسك تذلّ وديع. وأنا عندي فكرة قناة جديدة تذلّه بيها، لحدّ ما توصل لمرادك.
انتفض عادل من مكانه، عيناه تومضان باهتمام شديد.
- قناة؟! مرة واحدة؟! إيه هي الفكرة؟
شاهي: قناة نعرض عليها الأفلام الأجنبية من غير قطع أي مشهد، بما فيها المشاهد الجنسية. لأن طبعًا هنختار أفلام أجنبية فيها مشاهد جنسية ونعرضها.
هزّ عادل رأسه بقلق.
- إيه ده؟! قناة كده مش مُشفّرة على القمر بتاعنا، من غير ما تتقفل؟! مش ممكن!
ابتسمت شاهي ابتسامةً غامضة.
- ما هو ده الجديد! وأنا بطريقتي مش هخلّي القناة تتقفل. كل حاجة ليها تمن. القناة دي هتكسر الدنيا وتسحب البساط من تحت قنوات وديع المُشفّرة، وننزل فيها حملات أعلانات منتجتنا أنا وباهي.
تأمّل عادل الفكرة لحظات، ثم أومأ برأسه ببطء.
- إذا كان كده... ماشي. بس أنا هموّل من الباطن بس، ويبقى الموضوع ده بعيد عن اسم عادل غيضان. والأرباح كلها ليكِ.
وفي تلك اللحظة، ظهر باهي فجأة خلفهم، صوته يحمل نبرة استنكار ممزوجة بالمزاح.
- واضح إن فيه بيزنس بيتمّ من ورا ضهري!
استدارت شاهي نحوه بسرعة، ملامحها تحمل براءة مُصطنعة.
شاهي: وده ينفع؟! إحنا بس بنحاول مع عادل بيه نلاقي حلول تطفّي ناره من وديع إلياس... عن طريق سحب البساط واحدة وواحدة من تحت باقي قنوات وديع.
أطرق باهي رأسه بندم.
- آه، أنا متأسّف جدًا يا عادل بيه. أنا لو أعرف كده، ما كنتش عزمته.
رفع عادل يده مُطمئنًا.

- لا عادي. دي لا أول ولا آخر مرة نتقابل فيها.
انحنى باهي نحوه بحماس مفاجئ.
- طب إيه رأيك في قناة سياسية تنافس قناة وديع المشهورة الهضبة، اللي هي أكبر مصادر قوّته في سوق الميديا؟
انتبه عادل تمامًا، جسده انتصب في مقعده.
- سمعك... كمّل. يا ريت تفاصيل أكتر. إنت وشاهي واضح إنكم مشكلة كبيرة... أفكار ما بتنتهيش!
- قناة سياسية نسمّيها وطن العرب، تنافس بقوة قناة الهضبة، وتسحب من تحت رِجل وديع البساط بجدّ.
ابتسم عادل ابتسامةً عريضة، ومدّ يده مصافحًا باهي بقوة.
- وأنا موافق على كل أفكاركم! وبرضه العقود اعتبروها اتمضت. والأرباح كلها ليك. وحتى لو مفيش منها أرباح، ليك نسبة على خسائر قناة الهضبة.
نهضت شاهي من مكانها.
شاهي: طب نستأذنك يا عادل بيه، ونروح نبتدي تنفيذ الموضوع اللي اتّفقنا عليه.
حدّق باهي فيها بحيرة.
- موضوع إيه؟
أمسكت شاهي يد باهي وهي تستعد للمغادرة:
- تعال معانا وأنا هفهّمك. بعد إذنك يا عادل بيه. يلا يا ديانا.
أخذ عادل رشفة من كأسه، بعد أن أسفر الحديث عما يثلج صدره نوعا ما:
- اتفضّلوا. وأنا مستنّي النتيجة. وخُدي بالك، ده مش قِصاد المشاريع اللي إحنا اتّفقنا عليها... المشاريع هتتمّ. أنا عجبتني الأفكار جدًا.
توقّف، ثم أضاف بنظرةٍ جادّة:
- يلا، أنا مستنّي منك نتيجة شبه معجزة.
ابتسمت شاهي ابتسامةً واثقة.
شاهي: وأنا هحقّق المعجزة. كيد النسا بقي! بعد إذنك.
ما إن ابتعدوا عن عادل، حتى أمسك باهي بذراع شاهي بقلق.
- هو فيه إيه؟! معجزة إيه؟!
التفتت شاهي نحوه، عيناها تومضان بالمكر.

- هتعرف. بس إنت اشغل وديع خمس دقايق في أي موضوع. ديانا، حاولي تسحبي جوليا لأوضة مادلين بحجّة إنها تظبط المكياج. وأنا هشرح لمادلين تعمل أيه، ونشوف لما إحنا التلاتة نتجمّع ونقنعها، إيه اللي هيحصل.
ابتسمت ديانا لحماس شاهي:
- بسيطة. سيبي موضوع ميكب جوليا ده عليّا.
باهي باستغراب
- ولو إني مش فاهم، بس أنا كده كده كنت عايز وديع في موضوع مهم... بعيد عن جوليا. فحاضر، هنفّذ.
تحركت شاهي في عجلة من أمرها:
- طب تعال ندخل عليهم. يلا يا ديانا.
ضحكت ديانا بصوتٍ خافت.
ديانا: وأنا معاكم يا شياطين الإنس!
اقتربت المجموعة من وديع وجوليا اللذين كانا يجلسان معًا في ركنٍ هادئ، أجسادهما متقاربة، وأصابع وديع تمسك بيد جوليا برقّة.
باهي بصوتٍ مُشرق:
- منوّرة الحفلة يا جوليا هانم! منوّرنا يا وديع باشا!
أومأ وديع برأسه بفتور بينما ابتسمت جوليا ابتسامةً باهتة قائلة.
- ميرسي.
حاولت شاهي فتح مجال للحديث:
شاهي: الحفلة وكل اللي فيها بتحسدكم يا وديع باشا! بجدّ، نمسك الخشب.
نظر إليهم وديع بنظرةٍ حادّة، صوته يحمل عتابًا خفيفًا.
- إنتوا فين؟ مختفين ليه؟ حدّ يختفي كده عن ضيوفه؟
تدخّلت جوليا بنبرةٍ حادّة، كانت قد لاحظت كل شيء.
- ولا مختفين ولا حاجة. هُما مشغولين عنّا، ولسّه قايمين من على ترابيزة عادل غيضان.
ضحكت ديانا بصوتٍ عالٍ، محاولةً تخفيف التوتّر.
- هاها! بس إيه الشياكة دي يا جوليا هانم؟! مع إنك مش بتلبسي من تصميمي، لكن اختيار رائع للألوان! وتصميم الفستان أكتر من رائع!
ارتخت ملامح جوليا قليلاً.
- ميرسي. طول عمرك مُجاملة يا ديانا.

ثم التفتت نحو شاهي وباهي بابتسامةٍ رسمية.
- مبروك يا شاهي، مبروك يا باهي... جريدة 'الضوء الساطع'.
- الله يبارك فيكِ.
توقّفت جوليا لحظة، ثم أضافت بنبرةٍ فيها عتاب خفيّ:
- بس... مش قاسية شوية؟
ردّت شاهي بثقة، بينما ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ باردة.
- مش هي دي الحقيقة؟
ليقول باهي بحذر:
- أيوه، إحنا ما بنقولش غير الحقيقة.
تنهّدت جوليا تنهيدةً عميقة، وأخذت رشفةً من كأسها.
- كل واحد بيفهم الحقيقة من وجهة نظره هو بس. يعني أنا مثلاً، الناس بتتهمني إني بمضي عقود احتكار مع الفنانين والمطربين، وأقضي بعد كده على مستقبلهم... لكن ده كلام مش صحيح!
رفعت صوتها قليلاً، انفعالٌ خفيّ بدأ يتسرّب إلى نبرتها.
- السوق ما بيرحمش! المنافسة شرسة مع مجموعة **J.B.C** ومجموعة **U.B.C**. لازم يكون عندك فريق نجوم، وفريق من النجوم الاحتياطي... مش هتصنّع النجم ويجي واحد زي عادل غيضان أو هاني أخوه يخطفوه منك!
صمتت لحظة، ثم أضافت بمرارة:
- يعني إيه الاستفادة من أن عادل غيضان أنه يدمّر مجموعة قنوات 'جوليانا' وشركة 'جوليانا تون'؟!
تدخّلت ديانا بنبرةٍ عملية باردة.
- وليه بتفكرى كده؟ ده سوق! والشاطر اللي يكسب. ولّا إنت مش معايا، يا وديع بيه؟
أومأ وديع برأسه ببطء، صوته صار أكثر عمقًا وجدّية.
- إنتوا لسّه كتاكيت صغيرة. أنا فاهم عادل كويس، وأكيد هو كمان فاهمني كويس. وأكيد عارف إن مجموعة قنوات 'جوليانا' بتخسر بسببه.
توقّف، وأخذ رشفةً من كأسه، ثم أكمل بهدوء:
- لكن برضه جوليا مش هتنهزم. زي ما هو برضه عارف إني بصرف على قناة الهضبة السياسية مش علشان الربح. هو فاهم قوي إنها دي السلاح وقت الدفاع عن كيان العالم بتاعنا. لما نحبّ نشغّله نشغّله، ولما نحبّ نهدّي الوضع نهدّيه.

مال نحوهم أكثر، نظراته صارت أكثر حدّة.
- ولما دولة تمشي ضدّ الخطّة، نخلّيها تلفّ حوالين نفسها، وإحنا محايدين. بس الفكرة كلها: لو فيه نزاع ما بين طرفين، أكيد كل واحد منهم له أخطاؤه. وإحنا دورنا إننا نبيّن الأخطاء دي بس للطرف اللي مش على مزاجنا، ونتجاهل أكثر أخطاء الطرف اللي على مزاجنا.
ابتسم ابتسامةً باردة:
- وكمان نُظهر مميّزاته، ونخفي مميّزات الطرف الثاني. وكده إحنا بنقول الحقيقة، بس مش كاملة. حقّ يُراد به باطل... يعني زي ما بتقولوا. لكن في الآخر، اللي بنقوله هو الحقيقة فعلاً، ولا لأ؟
صفق كلا من باهي وشاهي وديانا من فرط الأنبهار، ليكمل وديع:
- طبعا تمويل قناة زي دي محتاجة ميزانية ضخمة جدًا.
- فعلا، كتير بسأل نفسي تمويل قناة بحجم قناة الهضبة منين؟
- التمويل مش صعب زي ما الكل متخيّل. فيه دولة متضايقة من دولة ثانية... طبعًا بتمولنا علشان نوجّه الناس ضدّ الدولة دي. وكمان فيه دولة بتبقى عايزة تلمّع نفسها... إحنا بنلمّعها إعلاميا، وكلّه بتمنه. مبدأ الدعاية والإعلان.
في تلك اللحظة، انحنت ديانا نحو جوليا بقلق مُصطنع.
ديانا: يا خبر! إنتِ الميك أب بتاعك عايز يتظبط يا جوليا هانم!
نظرت جوليا إلى المرآة الصغيرة بداخل حقيبة يدها بقلق.
- بجدّ؟!
نظرت ديانا نحوها، بعد أن غمزت لشاهي:
- آه! تعالى نظبطه، ممكن تيجي معايا يا شاهي؟ بعد إذنكم يا جماعة.
رفع وديع يده مُطمئنًا.
- على راحتك يا ديانا.
نهضت جوليا مع ديانا وشاهي، وذهبت الثلاثة نحو غرفة مادلين.
ما إن ابتعدن، حتى انحنى باهي نحو وديع بفضول.
- وطبعا قناة الهضبة ضمن خطّة الأخطبوط!
أومأ وديع برأسه بجدّية.
- طبعًا. ودي عايزة كلام.
- طب فيه سؤال محيّرني شوية.
- اسأل.

باهي: حرب التكسير اللي بينك وبين عادل غيضان دي... مش كده ضدّ خطّة الأخطبوط؟

ضحك وديع ضحكةً قصيرة، وهزّ رأسه بقوة.

- وده ينفع؟! لا طبعًا، بالعكس! دي أكثر حاجة مع الخطّة. وده كلّه علشان ما حدّش يحسّ إن فيه توجّه واحد بس... مع أن حرب التكسير اللي بينّا بجدّ، لكن برضه بتخدم الخطّة الملعونة.

حدّق فيه باهي بإعجاب ممزوج بالحيرة.

- أنا شايفك ساخط من الخطّة... وعلى عالم الأخطبوط عموما، مش مفهومة دي ليه، بصراحة؟

صمت وديع لحظات طويلة، نظراته صارت بعيدة، ثم تكلّم بصوتٍ خافت.

- العالم ده... اللي بيدخله ما يعرفش يخرج منه إلا وهو ميت. وإحنا أرتضينا ندخل العالم ده، يبقى لازم نكمّل فيه للنهاية.

حاول باهي تغيير الموضوع، الجوّ صار ثقيلاً.

- طب ما تيجي نغيّر الموضوع ده أحسن؟ إيه رأيك يا باشا فى جريدة 'الضوء الساطع'؟

ابتسم وديع ابتسامةً غامضة.

- كلّه في الخطّة برضه.

- طب إنت قريت العدد اللي فات؟

- طبعًا. عندك جديد؟ مواضيع... مفاجآت... ناس مقصودة... في الآخر رسالة... إثارة غرايز... جنسية... تحييد... وتحريك ميولهم للجنس والعنف. كلّه مفهوم.

- بس أنا عندي في عدد بُكره موضوع مختلف.

- هيكون إيه يعني الجديد؟

- موضوع عن انتحار الفنانة المعروفة 'رضا'، بعد ما تحوّلت من راجل لست. مسكينة، ما قدرتش تتأقلم، فانتحرت بعد ما الاكتئاب اتمكّن منها. بنتكلّم عن نظرة المجتمع لرضا... وكمان الوطن العربي لسّه عنده ثقافة رافضة فكرة تواجدهم. مع إن هُما موجودين فعلاً، وعايشين بينّا.

ارتسمت على وجه وديع ابتسامةٌ راضية.

- لا بجدّ، موضوع جميل! جريء ومختلف. الصراحة عجبني.

- ولسّه كمان الموضوع بيناقش مشكلة **lesbians**و**gays** فى الوطن العربي وإنهم عايشين وسط المجتمعات العربية زيهم زي مصاصين الدماء... محدّش متقبّلهم، وعلى طول عايشين في خوف.

- عندك حقّ، وكل واحد حرّ دي ميول... مزاج يعنى.
- طب أقول لك سرّ.
- إيه؟ قُول.
انحنى باهي نحوه، صوته صار همسًا.
- شادى مكين... **gay**!
اتّسعت عينا وديع بدهشة حقيقية.
- إيه الكلام ده؟! بجدّ؟!
باهي: آه طبعًا. دي معلومات موثوقة ومؤكّدة.
هزّ وديع رأسه ببطء، وهو يتأمّل شادى في ذهنه.
- غريبة! ولا كنت واخد بالي، مع إني بعرفهم من وسط ألف!
- مش كل اللي بيبان على حقيقته. مش لسّه حضرتك قاي حق يراد به الباطل؟
ابتسم وديع ابتسامةً عريضة، وربّت على كتف باهي بقوة.
وديع: مفهوم، مفهوم. إنت ليك مستقبل كبير يا باهي.
وفي تلك اللحظة، ظهر شادي من بعيد، يخطو بثقة نحوهما وبصوتٍ مرح.
- إزيّكم؟ إزيّك يا وديع بيه؟
- إزيّك يا شادي؟ تفضّل حبيبي، تفضّل اقعد.
جلس شادي بحذر، نظراته تتنقّل بين الرجلين.
- لو مش هيضايقك يعني...
- لا مضايقة ولا حاجة. اقعد يا شادي.
ضحك باهي بصوتٍ عالٍ.
- لسّه كنّا في سيرتك!
تجمّد شادي في مكانه، قلقٌ خفيّ بدا على وجهه.
- ويا ترى بالخير ولّا...؟
- كل خير! كنّا بنتكلّم أنا ووديع بيه إنك مُخرج موهوب قوي.
ارتخت أساريرُ شادي، وابتسم ابتسامةً عريضة.
ليجد وديع ينظر له نظرة إعجاب شهوانية قائلا:
- طبعًا. ودي عايزة كلام.
أيقن باهى أن كل ما دبره يسير على ما يرام، ابتسم قائلا:
- إيه رأيك يا شادي، يعني لو فكّرت إنك ترتّب وتُنتج مسلسل في رمضان اللي جاي، وإنت تكون المُخرج بتاعه؟

اتّسعت عينا شادي بحماس.
- وأنا موافق على أي حاجة يقولها وديع بيه.
ابتسم وديع ابتسامةً راضية، ليقول وهو يهز عضلة ساعد شادى الأيسر.
- أنا عايز موضوع كده... يهزّ الناس.
صمت شادي لحظة، ثم قال بحماس:
- وأنا عندي فكرة! مسلسل مالهاش حلّ.
ليفتح مجالا لشادى لكي يستفيض في الشرح تسأل باهى:
- إيه هي الفكرة؟ شوقتنا.
- مسلسل عن تعدّد الزوجات والخيانة الزوجية ومشاكل البنات. وجبت كذا ممثّلة من ممثّلات الإغراء عندي. ويا سلام كمان لو نجيب مُغنّية من المُغنّيات المعروف عنهم الإثارة الجنسية، بالإضافة لوجود راقصة أو راقصتين حشو لمادلين.
انفجر باهي بحماس:
- لأ وإيه؟! شادي، عندي أخت اسمها ليليان... بس صاروخ! ...صاروخ تمثيل؟ جمال إيه؟ ياخد عقل المشاهدين، لازم يكون ليها دور بطولة!
التفت شادي نحوهما بترقّب.
شادي: طب إيه رأيكم بقي في فكرة المسلسل؟
صفّق باهي بحماس.
- دي عايزة كلام! فكرة ممتازة طبعًا! دي هتجيب مكاسب رهيبة في رمضان من كمية الإعلانات!
أومأ وديع برأسه ببطء، ابتسامةٌ راضية تعلو محياه.
- وأنا موافق. وكمان ممكن تشدّ حيلك يا شادي، وأنا أنتج لك مجموعة أفلام من إخراجك.
أستغل باهى الفرصة لكي يروج للبرشام بشكل غير مباشر:
- آه! وبرضه تناقش فيها مشاكل الجنس والمخدّرات والبلطجة... يعني حاجة كده تدخل جوه الحواري الشعبية...
أدرك وديع أن باهى يروج لخدمة الأخطبوط، ليسير معه على نفس النهج:
- وطبعًا معاك فيها مادلين وليليان أختك. دول هُما المستقبل.
ابتسم شادى في سعادة وقال بتواضع:
- وأنا تحت أمرك.
ربّت وديع على كتفه بلهفة.

- وأنا عيوني لك يا شادي المُخرج اللطيف. نبدأ السنة دي بالمسلسل، ومن أول السنة اللي جاية نبدأ سلسلة الأفلام. علشان، بيني وبينكم، فيه مشروع كبيرة جدًا جدًا هضخ فيه راس مال ضخم الفترة اللى جاية، وهو ده اللى ممكن يربك حساباتى شوية!

تتسع عينا شادي بفضول ممزوج بحذر، يميل برأسه قليلاً.

- مشروع كبير لحد فين يا باشا؟

يبتسم وديع ابتسامة الثعلب الماكر، يشعل سيجاراً فاخراً ببطء، يراقب دخانه يتصاعد في الهواء، بنبرة من يكشف كنزاً.

- مش هخبي عليك... في دراسات متقدمة لينا للدخول في تمويل بناء سد في إثيوبيا. احنا ومجموعة مستثمرين من جنسيات مختلفة، وكذا دولة هتدخل في التمويل كمان!

تبرق عينا باهى بالإعجاب رغم عدم فهمه التام، صفق بيديه برقة.

باهى: سد؟! أنا ما فهمش حاجة في الهندسة، بس طالما كده... كل التوفيق ليك يا باشا!

يضحك شادي ضحكة خفيفة، يرفع كأسه محيياً.

- وديع بيه بيراهن دايماً على الحصان الكسبان!

تبادل وديع وباهى النظرات، لينهض باهى، ثم ينحني انحناءة مسرحية طفيفة.

- استأذنكم، هشوف باقي الضيوف. خدوا راحتكم، المكان مكانكم. سهرة سعيدة!

تركهم، وهو على علم تام أن وديع لن يترك الفرصة بمعاشرة شادى، غير مكترث من سيكون فوق ومن سيكون تحت، فالأثنان تحته الأن حتى لو بشكل غير مباشر.

على الجانب الأخر في غرفة مادلين، الأضواء الصفراء الدافئة تُحيط بالمرايا الكبيرة، رائحة العطور الفاخرة تملأ المكان. تجلس جوليا أمام المرآة بفستانها الأنيق، ملامحها متجمدة في قناع من الكبرياء المتصدع. تقف ديانا خلفها، ترتدي ثوباً أسود ضيقاً، تتفحص انعكاس جوليا بنظرة حادة، بينما مادلين وشاهي يقفان في الخلفية كالظلال الصامتة، لكن بينهما حديث هامس لتشترك مادلين في التأثير على جوليا، لتقول مادلين بنبرة مطمئنة زائفة:

- الميك أب مضبوط أهو يا ديانا، في إيه؟

تقترب ديانا أكثر، تضع يدها على ظهر كرسي جوليا، تميل حتى يكاد وجهاها يلتقيان في المرآة وبصوت ناعم خادع.

- تصدقي فعلاً، يبقى ضل الإضاءة هو اللي كان فيه مشكلة. بس تعرفي يا جوليا... إنتِ صعبانة عليا.
ترتجف يد جوليا الممسكة بفرشاة الميك أب، تضعها ببطء، تلتفت بحدة.
- جوليا كده من غير 'هانم' يا ديانا؟
تضحك ديانا ضحكة خافتة، تتراجع خطوة، تتفحص أظافرها باستعلاء.
- احنا نعرف بعض من أيام ما كنتِ ستايلست. ما تحاوليش تفضلي لابسة وش مش لايق عليكِ. أنا عارفاكِ كويس.
تشتعل عينا جوليا بالغضب المكبوت، تقف فجأة، بصوت مرتفع مهتز.
- عايزة تقولي إيه يا ديانا؟!
تبتسم ديانا ابتسامة باردة، تتقدم مادلين وشاهي من الظل، يحيطن بجوليا كالضباع حول فريستها لتقول ديانا ببطء قاتل.
- إنتِ أبتدى يبان عليكِ الكِبر، وقبل ما تقولى حاجة، الكِبر مش بالسن يا جوليا. ما حدش بيشوف نفسه، أنا اللي أحكم عليكِ!
تتسع بؤبؤتا جوليا، تتراجع حتى يصطدم ظهرها بالحائط. تقترب ديانا أكثر، صوتها كالسم:
- الوهم اللي إنتِ عايشة فيه بقاله كام سنة... ابتدى يضيع، يتبخر! لعبة الكراسي الموسيقية شغالة، والأدوار عمالة تتبدل يا شاطرة!
لتفت جوليا نحو مادلين لعلها تجد من يساندها، لكن هيهات، قالت لها مادلين بنبرة حادة:
- لازم تعرفي يا جوليا هانم... إن وديع باشا ما بقاش هو الحصان الكسبان!
لتتجه بعدها جوليا بنظرها اتجاه شاهى، لتومئ شاهي برأسها:
- وأكيد إنتِ عارفة إن دوره في خطة الأخطبوط ابتدى يقل، وبالتباعية... دورك إنتِ كمان ابتدى يقل!
لتمسك ديانا وجه جوليا وتجبرها على النظر لها وتصفعها بكلمات كالسياط:
- ده غير إن الكل عارف إن مجموعة قنوات 'جوليانا' و'جوليانا تون' بتقع. وما تقوليش إن عادل هو السبب... لأ! ده كله جزء من خطة الأخطبوط!
تُمسك مادلين بذراع جوليا بقوة، تجرها أمام المرآة الكبيرة.
- بُصّي لنفسك في المراية كده. شايفة؟ العمر بيجري!
تنظر جوليا إلى انعكاسها، ترى خطوطاً دقيقة حول عينيها لم تلاحظها من قبل.
لتنزل ديانا كلمات كالصاعقة

- ده غير أن الكل عارف إنك كده كده وديع بيرافق رجالة.
تنفجر جوليا أخيراً، تدفع مادلين بعنف، وجهها محمر من الإهانة وبصرخة مكسورة.
- إنتم عايزين مني إيه؟! عايزين تقولوا إيه؟!
تتبادل الثلاثة نظرات متآمرة، تتقدم مادلين بخطوات مدروسة بنعومة سامة.
-احنا عايزين مصلحتك...
ديانا بحدة
- عايزينك تفوقي...
بهدوء شاهى المصطنع:
- عايزينك تعملي لنفسك دور في خطة الأخطبوط... في المرحلة الجاية.
تحبس جوليا أنفاسها، يتسارع نبض قلبها بصوت متهدج:
- يعني إيه؟
تميل ديانا بوجهها، همس خطير:
- أي واحدة فينا تتمنى العرض اللي هعرضه عليكِ دلوقتي.
جوليا: عرض؟ عرض إيه؟
تبتسم مادلين ابتسامة شيطانية.
- عادل غلطان.
تتجمد جوليا، شفتاها ترتجفان.
جوليا: ماله؟
شاهي بأغواء كالشيطان:
- عرَض عليكِ مليون دولار!
يكاد قلب جوليا يتوقف، تمسك بحافة الطاولة حتى لا تسقط بصوت مبحوح.
- مليون... دولار؟
تومئ مادلينرأسها:
- وده غير دور في الخطة... في المرحلة الجاية.
تبتلع جوليا لعابها بصعوبة، عيناها تتنقلان بين الوجوه الثلاثة.
جولیابحذر
- والمقابل إيه؟
تنفجر ديانا بضحكة عالية ساخرة، تصفق بيديها.
- أبداً! حاجة بسيطة جداً... هيشرب إزازة خمرة على ضهرك وإنتِ نايمة عريانة!
لتكمل مادلين محاولة تهوين الأمر:

- أظن الموضوع بسيط!
تتسع عينا جوليا بصدمة مطلقة، يتحول وجهها من الأحمر إلى الشاحب بصرخة ممزوجة بالاحتقار.
- إيوه؟! قولوا كده، آه؟! يا أولاد...
تتوقف، تكتم الشتيمة، جسدها يرتجف من الإهانة.
تقاطعها ديانا:
- أش، من غير قلة أدب.
شاهي ببرود
- فكري بعقلك واحسبيها!
تقترب ديانا تمسك ذقن جوليا بقوة:
- أول ما توافقي المليون دولار هيكون تحت رجليكِ! ومين عارف؟ يمكن يكون ليكِ دور كبير بعدها في خطة الأخطبوط!
تدفع جوليا يد ديانا بعنف شرس، تنظر إليهن الثلاثة نظرة احتقار عميق، ممزوجة بألم مكسور، بصوت يختنق بالكرامة الجريحة.
- أيه القرف ده، أنا عمري ما هكون زيكم!
تندفع نحو الباب، تفتحه بقوة حتى يرتطم بالحائط. تخرج مسرعة، فستانها يتطاير خلفها، تاركة وراءها رائحة عطرها الممزوج برائحة الإهانة.
ترفع مادلين وشاهي وديانا أيديهن عالياً، يصفقن كل منهن على يد الأخرى بحماس شيطاني، ضحكاتهن تملأ الغرفة كصدى مشؤوم. معلنين أن النصر حليفهم لا محالة، ثم خرجن الى الحفلة وكأن لم يحدث شيء!
بدأت تتلاشى أصوات الحفلة في الخارج تدريجياً، بينما ظلت الغرفة تضج بصدى المكيدة الدنيئة.
وهكذا، في تلك الليلة المُبهرة، تشابكت الخيوط جميعها في نسيج واحد مُحكَم. حيث كان الأخطبوط يُحرّك أذرعه الكثيرة بدقة متناهية، كل ذراع تُمسك بفريسة، وكل فريسة تُمسك بأخرى، في سلسلة لا نهاية لها من الفساد والانحلال.
والبرشام... البرشام ينتشر في كل مكان، يُبقي الجميع مُتيقظين، مُنتشين، غير مُدركين لما يحدث لهم، ولا إلى أين يسيرون.
كانت الحفلة تُعبّر عن صورة مُصغَّرة للمجتمع بأسره: منظومة مُحكَمة من الفساد والمصالح المتشابكة، حيث يُباع كل شيء ويُشترى، من الأجساد إلى الضمائر، من الفن إلى الإعلام، من السياسة إلى الأخلاق.

وفي قلب هذا كله، كأن الأخطبوط يبتسم من وراء الستار، راضياً عن عمل أذرعه، مطمئناً إلى أن الخطة تسير كما يجب، وأن المجتمع ينحدر نحو الهاوية... خطوة بعد خطوة... برشامة تلو برشامة... فضيحة بعد فضيحة...
حتى لا يبقى شيء مُقدَّس، ولا يبقى أحد نظيفاً.

إلى اللقاء في الجزء الثانى

هشام سلامة سلمان

خلصت خلاص الكلام... والحقيقة بانت كاملة
لكن إحنا زي النعام...دفنين راسنا في الرملة
في كل بيت من البيوت
وصل خلاص الإخطبوطو
واحنا ولا احنا هنا
الكل بيهرب من حياته
حتى الفايق فضل سكاته
وزادت جوانا الأنا
اللي بيقول أنا مالي
واللي بيقول أنا ف حالي